# أغاليط المؤرخين

الدكتور
محمد أبو اليسر عابدين

الأُغْلُوطَةُ : مَا يُغْلَطُ بِهِ مِنَ الْمَسَائِل . وَنَهَى رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأُغْلُوطَاتِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ .

(الصِّحَاح)
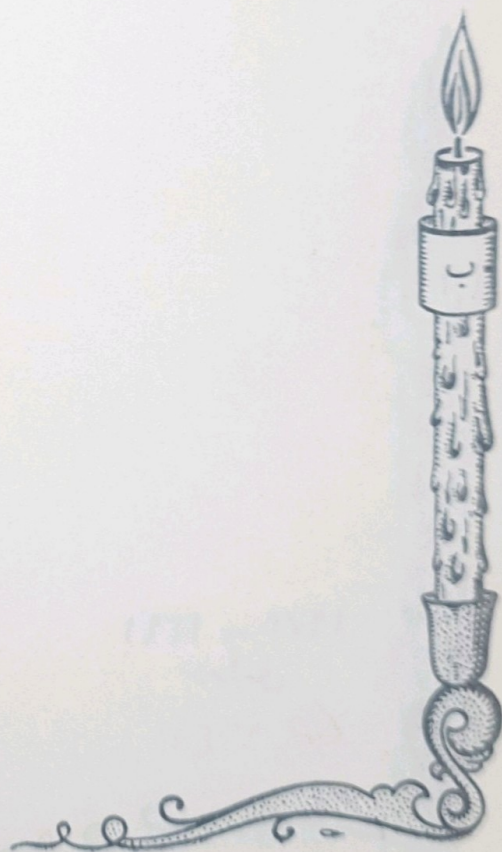
ٱلغَلَطُ مُحَرَّكَةً : أَنْ تَعْيَا بِٱلشَّيْءِ فَلَا تَعْرِفَ وَجْهَ ٱلصَّوَابِ فِيهِ . وَقَدْ غَلِطَ كَفَرِحَ . وَٱلْغَلُوطَةُ كَصَبُورَةٍ . وَٱلْأُغْلُوطَةُ بِٱلضَّمِّ وَٱلْمَغْلَطَةُ : ٱلْكَلَامُ يُغْلَطُ فِيهِ .

(القامُوس)
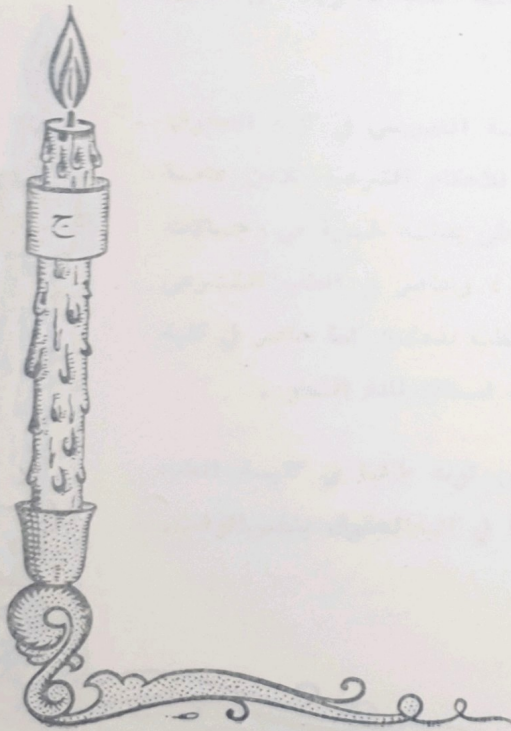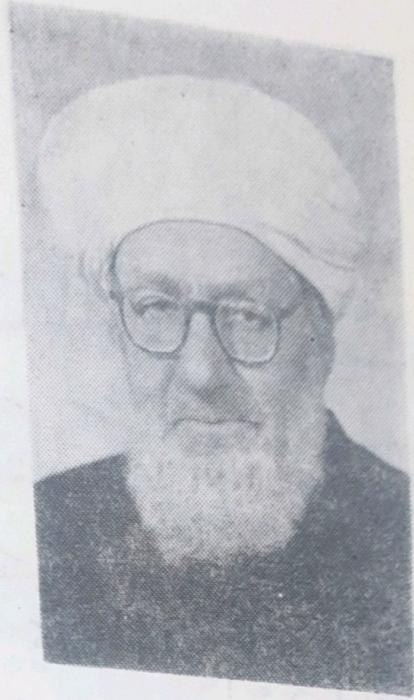
الدكتور

محمد أبو اليسر عابدين
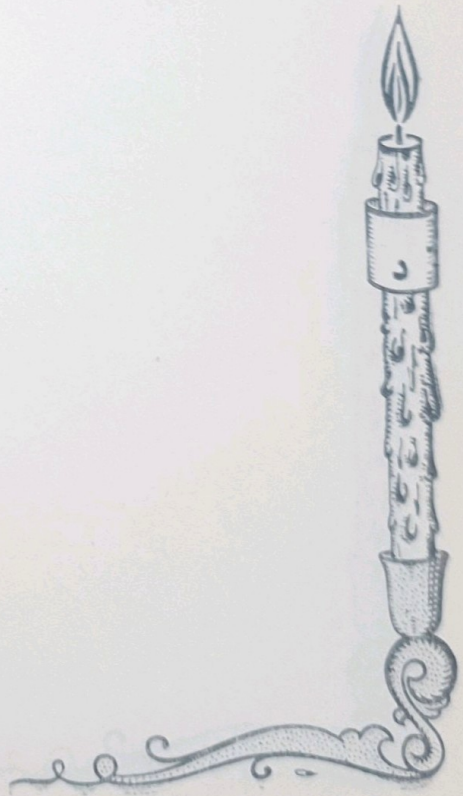
- هو محمد أبو اليسر عابدين .
- ولد في دمشق عام ١٣٠٧ هجري والده الشيخ أبو الخير عابدين .
- درس العلوم الدينية والدنيوية ودرسها سنين طوالا .
- تقلب على كبار مشايخ عصره وتلقى علومه عنهم ، وتخرج من كلية الطب في الجامعة السورية عام ١٩٢٦م وحاز على شهادة الكولكيوم الفرنسية وعدة اختصاصات مهنية أخرى .
- زاول مهنة الطب ما يزيد على ثلاثين عاماً .
- زاول مهنة التدريس في كلية الحقوق استاذا للاحكام الشرعية ثلاثين عاما وتخرج على يديه خيرة من رجالات البلاد ، وحاضر في الطب الشرعي بكلية الطب بدمشق كما حاضر في كلية الشريعة استاذا لمادة النحو .
- جمع بين كونه طالبا في كلية الطب وأستاذا في كلية الحقوق بنفس الوقت.
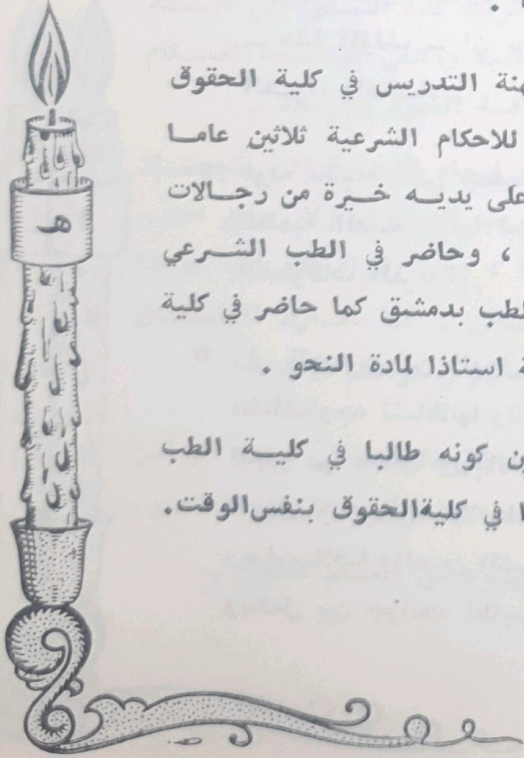
• تسنم منصب المفتي العام للجمهورية العربية السورية من عام ١٩٥٤ وحتى أوائل عام ١٩٦٣ حيث أحيل على التقاعد بخدمة تزيد على ٤٢ عاما في المناصب العامة ، وقد أصدر في تلك الحقبة مجموعة فتاوى نادرة .

• مواقفه الدينية تفوق الوصف ، ووطنية أصيلة بنفسه مؤمن بوطنه وأمته شديد في عقيدته واسلاميته .

• متزوج وله ولدان .

• خط العديد من المؤلفات القيمة في الفقه واللغة والتاريخ والأدب والنحو والتفسير والحديث تزيد على ٣٠مؤلفا ضمنها عصارة أفكاره ، قيض لأولها ـ هذا المؤلف ـ أن يوضع بين يدي القراء والنقاد .

• حوت مكتبته التي جمعها مئات الكتب العلمية القيمة بينها أمهات طيبة من المخطوطات الفريدة .

• زار العديد من الدول واطلع على مختلفأوجه نشاطاتها وثقافاتها وناقش الكثير من علمائها ورجالاتها ، من هذه الدول جمهوريات الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا والصين الشعبية وغيرها، ويحمل بين جوانحه اطايب الذكريات.
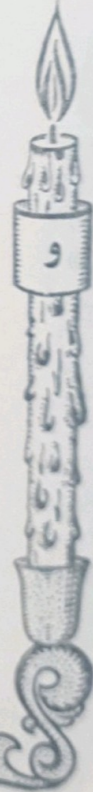
- قام بالتدريس الديني في مساجد دمشق وحلقاتها وجعل منزله محجاً للفتيا والتدريس منذ نعومة أظفاره حتى كتابة هذه الأسطر .

- منذ بلوغه سن الرشد قام بامامة وخطابة جامع الورد الكبير بدمشق ولا يزال قائماً بشعائره .

- وطد صداقات عمرية قامت على تبني الدعوة الى الحق والاخلاق وحسن المعاملة مع رجال الدين المسيحي الذين يكنون له كل محبة واحترام وشاركهم في مناسباتهم وأفراحهم وأحزانهم .

- أدى فريضة الحج ونوافله مرات متعددة وتشرف بزيارة قبر الرسول الأعظم .

- رفض مرات عدة التسلق الى السلطة السياسية واكتفى بمناصحة الحكام في كافة العهود والبلاد .

- حمل لواء الدعوة الى الجهاد والتدريب العسكري وكان من أمهر الرماة ، وحث المرأة على أداء دورها النضالي . كما شارك المرابضين مناسباتهم في مواقعهم الأمامية .

- أمنيته الاستشهاد على ربوع الوطن المغتصب ولا يزال ينتظر مع العائدين.

- هو ينبوع من العلم متفجر .
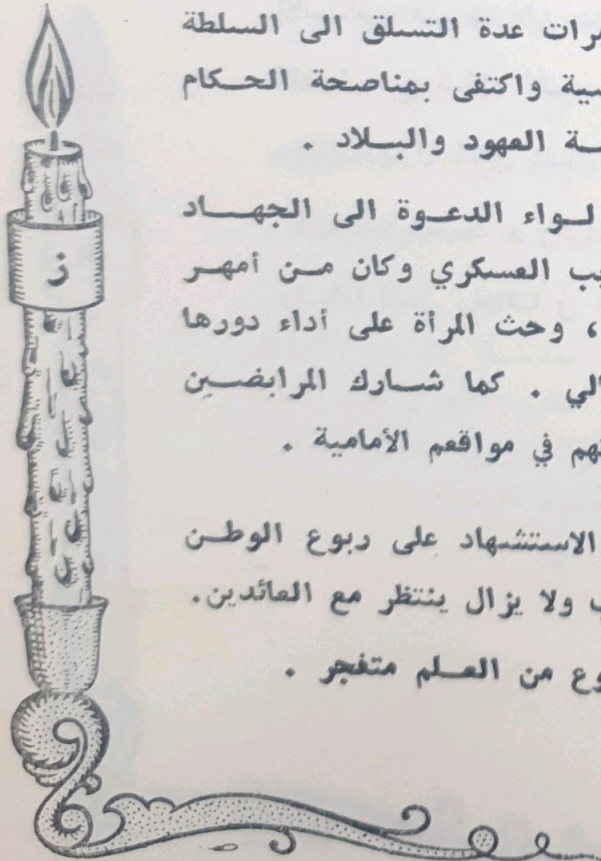
« وأنا أعتذر الى القراء ، فما أردت بما كتبت مدح الاستاذ المفتي ولا الدعاية له ، وهو مستغن بعلمه ومنصبه عن الدعاية ، ولكن أردت تنبيه وزارة الثقافة التي حملت نفسها تشجيع المؤلفين ، وطبع الكتب ، وتنبيه الناشرين ، الى ما في نشر هذه الكتب من نفع للناس .

وأردت شيئاً آخر ، وما كل ما نريد يكون ، هو أن تفكر الحكومة في تفريغ بعض العلماء للتصنيف والتأليف ، كما فرغت ناساً من الأدباء للكتابة والانتاج ، واذا كان الاستاذ المفتي - على سبيل المثال - ألف هذه الكتب كلها مع شغله كله ، فماذا يكون لو أعطيناه راتبه وقلنا له : أغلق عليك بابك ، وانصرف الى كتبك فقد كفلنا لك عيشك ، وفرغنا من هم فكرك .

ولماذا نهمل رجالنا في حياتهم لنكرمهم بعد مماتهم » .

من مقال الاستاذ علي الطنطاوي
في جريدة الايام الدمشقية
الصادر بتاريخ ١٨/٥/١٩٦١
بعد استعراضه لمؤلفات الكاتب.
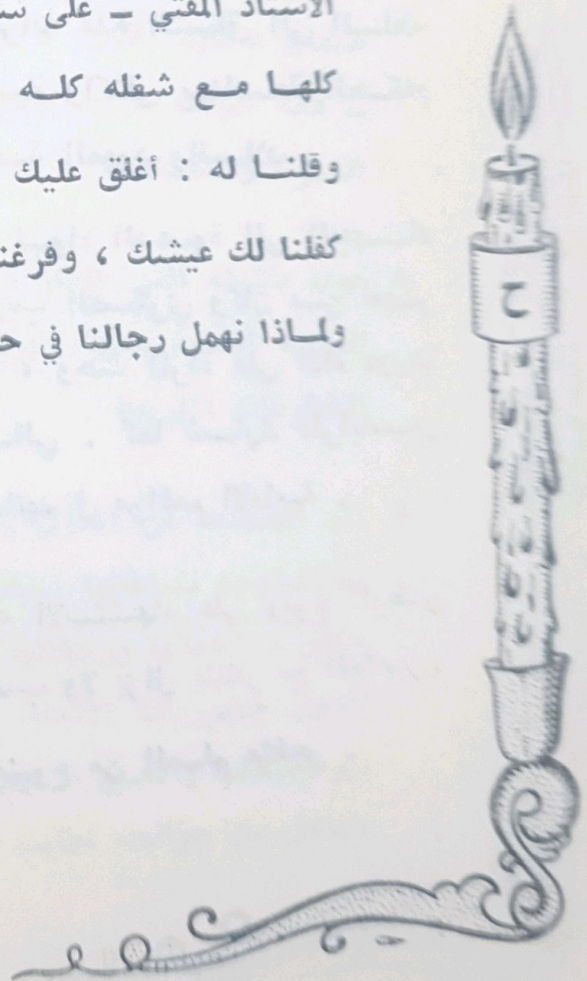
« وقد انتقلت اليه كتب آبائه وبينها المخطوطات النوادر التي أحسن الانتفاع بها وصانها من لصوص مخطوطاتنا الذين يفقرون مكتباتنا باشترائها ليغنوا خزائن كتب الغرب بذخائرنا ، ولولا حرص مفتينا عليها وضنه بها على غير أهلها لما عثرنا على ( كتاب الابدال ) بين مجاميعه الخطية ، فجزاه الله عن الاسلام والعربية جزاء من أحسن عملا .

وزرت يوماً الشيخ العليم ( الدكتور ) أبا اليسر في منزله ، وصحبني اليه صديقي العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني المستهام بالكتب ، فأكرمنا رب المنزل باطلاعنا على نوادر مخطوطاته ، ومن بينها مجموعة لغوية كتب على الصفحة الاولى منها : كتاب المثنى لحجة العرب أبي الطيب اللغوي ، وحرص صاحبي على اشترائه ، وسأل صاحبه عن ثمنه ، فكان جوابه : وزنه ذهباً » .

من مقدمة كتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي طبع المجمع العلمي العربي بدمشق تحقيق المرحوم الاستاذ عز الدين التنوخي
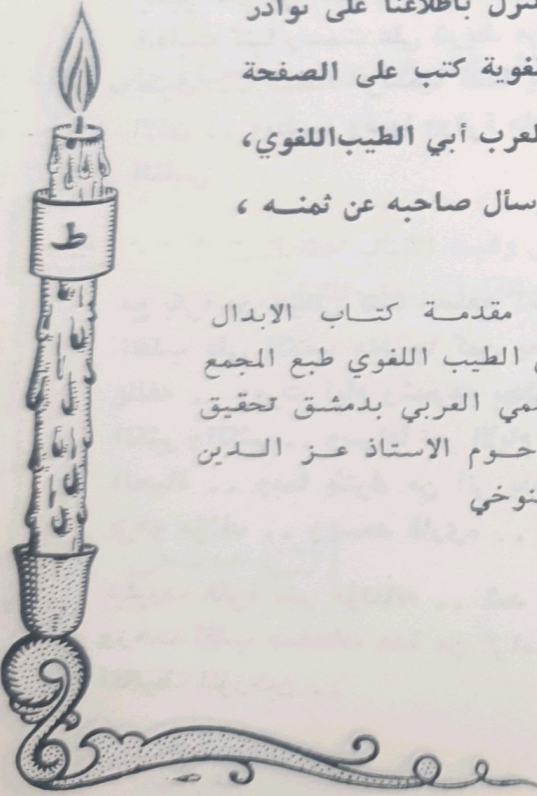
# توطئة

عرفته أبا ... عرفت المؤلف
بكل ما تحمل من معنى كلمة الأب عرفته مع سني الحياة الأولى
وصديقا .. بمحتوى الصداقة العميق
وأخا .. عندما وجد فيّ قبسا من نضوج
ولا يزال ركنا بحياتي في علمه وتوجيهه وفلسفته

. . . . . . . .

صفحات وصفحات .. لو تحدثت بها عنه لما أوفيت حقاً له
وعباراتي تتعثر في وصف مسيرة طريقه التي اجتاز بها وعثاء الزمن

. . . . . . . .

بالايمان تظلل .. وبالاسلام تسربل .. وفي الحياة كافح .. نشأته عصامية
شريف النسب في عراقة أسرة .. وكأرض عطشى يستسقي العلم
كتلة من الحياة وجدت للحياة بحق .. ما اقتصر على طرف دون آخر .. من متنوع
الاطراف جمع .. والى زاوية أحبها ورضع مع صفره لبنها .. ركن
الفقه في الدين والتهجد للخالق عز وجل .. تلك هي زاويته .. إليها نفسه سكنت
فعليها استقر. واليها سريرته ركنت فمن أطايب منهلها أخذ يعب
فالمثل الاعلى ما هدف .. والطريق الصحيح ما اختط
بحبر علم من كتب امتزجت دماؤه .. وعلى ما سَبَرَت شفتَت نفسه .. ثروته
انقلبت كتبا رسمت على شريط من ذاكرة .. صورها تستدعى بسؤال يلقى أو ببحث
يطرق .. شفتاه ترسمها نطقا يعكس خلاصات وتوسُعات .. الى سماعها تهفو
الأذن .. وبطيب وقعها ووفرة مادتها تشد السامع .. فينعكس بها غذاء من النفس
للنفس

. . . . . . . .

مع بكرة من حياتي كنت أتصفح كتاباته .. أفهم منها ما أفهم .. ويَنِدُ عني كثير !
أتقلب على الكتب متفرجا كمن يحاول تذوق طعم من مأكل ، حديث عهد به لم
يألفه .. ومرت أيام وشعرت بحلَمَات الذوق تتفتح .. كان همي أن أطلع على
الكثير والكثير .. وسراعا تمر الأيام .. هكذا يقولون .. فنحن من نمر في ظلال شجرة
الحياة .. وبما يُترك من أثر يفخر انسان .. وبما يسود بياض ورق في علم
يزهو مؤلف .. ويسعد قارىء .. ويستفيد باحث

تبلورت فكرة نشر مؤلفاته .. شد ما دفعني اليها قريب انتقل الى رحمة الله ..
ورحت أقلب صفحات عدة من كراسات جمعها بخطه .. أخترت من بينها ما سماه
أغاليط المؤرخين ..

أذن .. لماذا هذا الكتاب بالذات ؟.

. . . . . . . . .

عرفت من الخطأ فيما يرتكبه المرء في حياته الكثير .. ولكنها لم تكن لتخط في حياتي
الا عبرا تدفع من مسيرتي مع الأيام .. وأعجبت من عبر التاريخ .. ففي كل خطا
عبرة .. ومن كل عبرة مجد .. والفرد لبنة في بناء الشعوب .. والشعوب كتلة
للحفاظ على الوطن والأمجاد .. بالعمل لا بالتغني .. بالجد لا بالتمني.. كلما عثرت
بعقبة نهضت تطاول السماء .. وما أروع ما حمل التاريخ من قصص .. واقعها
هو الحياة على الأرض .. وكذبها رسم هادف لغاية .. والتعمق في الكشف عن
أسرار بها حري بالدراسة

لهذا اخترت الكتاب .. نفضت عنه ركام الأيام .. وتثنيت أعرضه على دور نشر
ومتمرسين في مهنة .. منهم من أفتر من همة نشطت لعمل .. بغى الاستفادة بقليل
عرض وكبير مجازفة حسب ما ارتأى .. ومنهم من حد من اندفاعي بقلة رواج حجة
أبداها عن المؤلف لخاصة من قوم

. . . . . . . . .

وقيض الله بمشيئته من شد من أزري مشكوراً ، فكانت هذه الطبعة التي أضعها
بين يدي قراء ونقاد ، وخاصة وعامة .. فإن كان بها من قصور عملت على تلافيه
فيما سيأتي من طبعات وكتب عاهدت نفسي على المضي بنشرها .. سواء هي لوالدي
حفظه الله أو لغيره شريطة احتوائها على مادة من علم
أملي بها خطوة يحوطها توفيق الله .. وتتكسر عليها صعوبات .. وتكتشف بها
خامات

ومع عهد .. وتقدير .. أقدم هذا الكتاب .. وكلي ثقة بالقارىء .. مزجيا رجائي
بالكتابة إلي عن كل خاطرة ونقد

. . . . . . . . .

بعجالتي هذه .. هل وفيت الكاتب حقه ؟.. هل وفيت الكتاب حقه ؟..
. . . . . . فالزمن يحكم للكاتب . . والقارىء يحكم للكتاب..

دمشق ١٥ ذي القعدة ١٣٩١    ١ كانون الثاني ١٩٧٢

الناشر

الاهداء

الى الحقيقة المجردة

الى العاملين من اجلها

الى الايام ... والشعوب

محمد الهادي عابدين
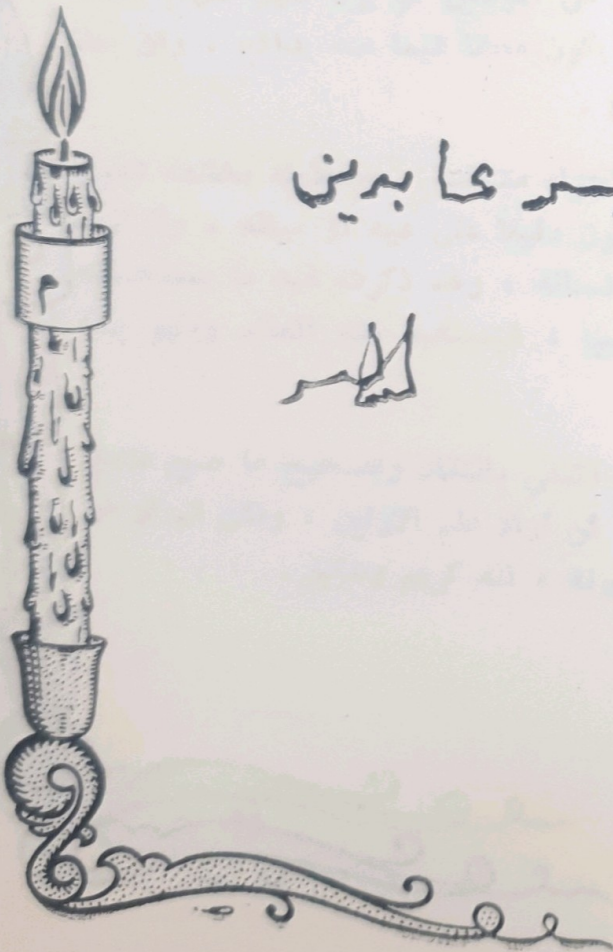
## بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي جعل في تداول الايام عبرة لمن اعتبر من الانام ، وأرجانا عنهم أحوالهم بنقل الالسن والاقلام ، ونشاهد آثارهم الصامتة الناطقة فنميز بين الاقوام ، وأشهد ان لااله الا الله حكم على الاعمار بالآجال ، وتفرد بالعظمة والبقاء والجلال ، وجعل الدنيا دولا لاتستقر على حال ، ليعتبر العاقل بالامثال ، ويرتدع الفخور المختال .

وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله حوى كل الفضائل ، ونشرها أصحابه في الاواخر بصدق نية وهجروا كل نعيم زائل ، صلى الله عليه وعليهم ومن تبعهم من كل محدث وناقل .

أما بعد فان علم التاريخ مرغوب لدى العلماء والجهال ، لاحتوائه على غرائب الامور وشواهد الاحوال ، وكنت راغبا فيه وراغبا عن الجمع فيه ، لان التاريخ لايستر عورة الرجال ، ولكن شاقني له ما تعاقب علينا من الدول بقليل المهل ، فرأت بلادنا ما لا يرى بأجيال من المستعمرين الذين قتلوا كبارنا والابطال ، وأيضا ما شاهدته من الميل مع الاهواء من مؤرخي عصرنا بلا امتراء ، وطرح أهلية الرواية من غير اعتناء ، ومجاراتهم لحاكم الارض دون حاكم السماء ، فترى الكاتب يبرم اليوم وينقض بالغد ، لما يعتريه من الجزر والمد .

وأيضاً ما شاهدته من أغلاط بعض المؤرخين. القدماء والمعاصرين ، وخفي غالبه على الاكابر والمبتدئين ، مما حدا بي كل ذلك أن أنتقد ما أراه خلاف الصواب ، غير طالب سد ثلمة أو ستر هفوة ممن يطالع الكتاب ، لان مثل هذا الرجاء من المؤلفين لم يرد عنهم سهام حاسد طامع ، ولا ناقد للحق تابع ، بل أطلب من المنتقد أن يكون محقا فيما عنه يدافع ، وأن يعلم أني وأياه صائران ليوم تبلى فيه السرائر والبصر خاشع .

ورتبت كتابي على مقدمة وفصول ليمكن اصداره اجزاء متتالية ، وسأذيله بخاتمة تحوي ترجمة بعض المعاصرين من قلمه وبنانه ، فأن أمكن يكون دليلا على عيه أو بيانه ، ولا أزيد الا الايضاح او الانتقاد ان خالف ظاهر أصغريه قلبه ولسانه ، وقد ذكرت فيه ما يستحسنه العالم والاديب ، وما يستسيغه المبتدىء مثلي واللبيب ، فيستفيد منه العالم ويلهو به الظمآن والكئيب .

وان كتابي هذا ليس على نهج كتب المتقدمين ، بل أكتفي بانتقاد وتصحيح ما صح عندي خطاؤه بيقين من كلام المؤرخين ، وفي كتب التاريخ غنية لمن أراد علم الاولين ، ولكن لم أر من أفرد مؤلفا بهذا الباب ، فأسأله سبحانه الاخلاص والمعونة ، انه كريم وهاب .

# المقدمة

■ **أولاً**

أعلم ان ماأورده مما أعزوه لناقله فأني أخرج من عهدته ، والعهدة فيه على المنقول عنه .

■ **ثانياً**

ما أورده بدون عزو لأحد أو نسبته الي ، فأن عهدته ترجع علي .

■ **ثالثاً**

ان سبب الغلط في تواريخ الأقدمين كثيراً مايكون لتحسين الظن بالمنقول عنه حتى يكون الكتاب مشحوناً بالأغلاط ، وحينئذ تكون هذه الأغلاط منسوبة للناقل والمنقول عنه ، لان عادة الناقل اعتماد ما ينقله أن لم ينبه على التبري منه ، كما نبهت هنا . ولذلك فأني لا ألتزم صحة شيء من المنقول سواء كان صحيحاً في نفسه أو غير صحيح . فان قلت اذا كان هذا الكتاب لانتقاد غلط المؤرخين ، فان كان ما تنقله صحيحاً فلم لا تلتزم صحته ، وان كان غير صحيح فلم لاتنبه على غلطه ؟ قلتُ أني لا أتعرض لما يغلب على الظن صحته او يشك . انما أبين ما يغلب على الظن خطاؤه أو يتحقق، لأن أكثر أخبار المؤرخين مشكوكة، وتتبع كل شيء مما ذكروه أمر لايتسع له العمر ، فلنبين الخطأ فيما يتيسر فيه البيان وعلى الله التكلان .

■ رابعاً

ان طريق المحدثين في هذا غير طريق المؤلفين ، لأن المحدثين متى ذكروا القصة او الحديث بسنده متصلاً الى قائله فليس معناه التزام صحة الحديث عندهم ، بل معناه احالة السامع على فحص رجال السلسلة ، فان كانوا ثقاة قبلهم ، والا رد حديثهم . ففي كتاب تذكرة الموضوعات لمحمد طاهر بن علي الهندي الفتني المتوفي ٩٨٦ هـ ما نصه : قال ابن حجر : اكثر المحدثين من سنة مائتين الى الآن اذا ساقوا الحديث بأسناده اعتقدوا انهم برئوا من عهدته أ هـ .

قلت وهذا ما اخطأ فيه من علق على المحدث المؤرخ حافظ الشام ابن عساكر حيث ان ابن عساكر ضمن كتابه الغث والسمين ، ولكن خرج من عهدته ببيان سنده الى قائله ، وقد رأيت من المؤلفين من أراد التأليف بموضوع فعثر على كتاب بنفس ذلك الموضوع فضمنه كتابه بلفظه وحرفه فكأنه صار هو المؤلف له والملتزم لصحة ما فيه والقائل بما تضمنه . من ذلك ما قاله الشيخ محمد بن ابي بكر بن عمر المخزومي الدماميني المالكي من علماء القرن التاسع الهجري في كتابه العروض شرح الخزرجية مانصه : ولنختم الكلام في فن العروض بفصل ذكره ابن بري النازي في شرحه لعروض ابن السقاط ، فنورده برمته لاشتماله على فوائد لا بأس بالاحاطة بها علماً قال ... ثم ساق كلامه .

فهذا معناه التزام ما التزمه المنقول عنه .

■ خامساً

قد يكون سبب الغلط ما نراه من مؤلفي قصص التاريخ لأفذاذ الرجال ، حيث يجمعون ما وافق هواهم غير معتمدين على صحة الرواية ، وما لم يوافق هواهم طعنوا به وارتكبوا اوجه التأويل . وهذا كثير في كتب القصص والتواريخ والمواعظ قلما يخلو منه مؤرخ او واعظ ، واني من جملة

من جمع رسالة في الوعظ ولكن نبهت فيها انى لا التزم صحة شيء ورد فيها ولا عهدة علي .

■ سادساً

قد يكون سبب الغلط دعوة مذهبية أو نزعة سياسية مع العلم بالحق وانكاره ، وهذا أشنع أنواع الغلط عصمنا الله منه .

■ سابعاً

قد يكون منشأ الغلط من سهو سهاه المؤلف ، او نسيان في قصة نقلها من هو أحفظ منه على حقيقتها ، وهذا ما لا يخلو منه انسان ، وهذا ماأرجح ان يكون السبب الاكثر لكل من وَهَمَ ،الا اصحاب البدع فان بدعتهم دليل لعنادهم .

■ ثامناً

رأيت في عصرنا هذا سبباً آخر في تضليل الحقائق على من يأتي بعد هذا الدور من المؤرخين ، وهو فشو الطباعة وكثرة الصحف اليومية التي تنقل الأخبار بأسرع الأسباب لكل البلاد لتنال الرواج على غيرها من العباد، مع كثرة من ارتاد هذه الصنعة من البشر ومنهم الدخلاء على اختلاف أحوالهم ونزعاتهم وميولهم وتأثير الحكومات عليهم مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، وخاصة أيام الحروب والأزمات الخانقة ، وشدة احتياج الحكومات لهم لترويج ما يوافق سياستها بين البشر وبذل الرشوات الهائلة المغرية في ذلك ، فتراهم يمدحون زيداً وينسبون له أمرا وفعلا وصلاحا ، بينما غيرهم في مقاطعة أخرى يكذب تلك الدعوى وما ينسب له ، بل يكذب الكاتب نفسه بعد قليل ويكيل للممدوح أنواع القدح ، واذا عاد الى الحكم اعاد له لسان المدح ، وهكذا بلا فتور ، وهذا عام في أشخاص الحكام والحكومات بسبب ما رأيناه من سرعة تعاقبها على البلدان وتعاقب الموالين لكل حاكم وانقلابهم مع هذا مرة ومع ذاك أخرى . زد على ذلك تفرق الناس

احزابا وشيعا ولكل شيعة مطبوعات تنتشر بين البشر بسرعة البرق . ثم انقلاب بعض الرجال من شيعة لأخرى . وهذا ما يجعل القارىء بعد هذا الدور يكيل كتاب هذا العصر بما يستحقون على تقلبهم في المدح والذم وسرعة نقلهم لما كان وما يكون من الاخبار ، حتى أصبح الناس لايثقون بشيء مما يقرأون ، وهذا أمر لاشك فيه الآن فكيف بالأجيال التي ستأتي مستطلعة اخبار هذا الزمان ؟ .

نعم ان ما وصفت لم يخل منه دور من ادوار التاريخ فيما يعود لتقلب الأحوال والرجال وتعاقب الدول ، ولكن سرعة انتشار الكتابة والمطبوعات وكثرة روادها لما يجدون فيها من اقبال الحكومات عليها في حمل الامة على ما يريدون بواسطتها ، أمر لم يكن معروفا في ادوار التاريخ ، وانما ترغب الأمة فيما ترغبه الامراء والحكام والدول وتعتني به وتشجع عليه ، والناس على دين ملوكهم ، وقد أصبح هذا الامر سلاحا فوق السلاح ، وقوة فوق قوة لكل حكومة ودولة ، فلا جرم ان تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون . وقد كان قديما ما يشبه ذلك من اذاعة الامور في النوادي العامة والمجتمعات الكبيرة والاسواق الجاهلية على ألسن الشعراء حتى وصل في عصرنا هذا الى صورة ادهى وأمر مما كان، بسبب سهولة المواصلات بالبر والبحر والهواء ، وما يقيمونه من الاسواق التجارية العامة التي يقال عنها معرض ، ثم المؤتمرات الفنية أيضا كالمؤتمر الطبي في كل عام ، والمنظمات الدولية كاليونيسكو ، مع فشو الاذاعة بوسائل لم تكن معروفة كما يقال .

والمؤثر المؤسف في التاريخ انما هو الباقي في بطون الدفاتر من مخازي الاكاذيب المتناقضة التي سوف تكون سبب تضليل التاريخ بعدنا مما لا يمكن تلافيه لأنه سلاح الدول والحكومات في كل الامور فالى الله وحده نكل اصلاح هذا الحال .

■ **تاسعاً**

قال ابن حجر في كتابه لسان الميزان في فصول المقدمة ما نصه : وقال الامام احمد : ثلاثة كتب ليس لها اصول وهي المغازي والتفسير والملاحم.

قلت ينبغي ان يضاف اليها الفضائل. فهذه اودية الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، اذ كانت العمدة في المغازي على مثل الواقدي ، وفي التفسير على مثل مقاتل والكلبي ، وفي الملاحم على الاسرائيليات ، واما الفضائل فلا تحصى. كم وضع الرافضة في فضل أهل البيت وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية ، بدأوا بفضائل الشيخين وقد أغناهم الله وأعلى مرتبتهما عنها أهـ .

قلت ومن جملة ذلك مغازي ابن اسحاق . قال في السيرة الحلبية في ذكر مولده صلى الله عليه وسلم ما نصه : قال ابن المديني وابن معين ان ابن اسحق ليس بحجة ووصفه مالك رضي الله عنه بالكذب. قيل وانما طعن فيه مالك لانه بلغه عنه انه قال: هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله. فعند ذلك قال مالك: وما ابن اسحق ، انما هو رجل من الدجاجلة أخرجناه من المدينة . قال بعضهم وابن اسحق من جملة من يروي عنه شيخ مالك يحيى بن سويد ، وقال بعضهم ابن اسحاق فقيه ثقة لكنه مدلِس أهـ .

■ **عاشراً**

قال ابن خلدون في مقدمته فيما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيئاً من أسبابها ما نصه :

فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس

الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا ، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط اهـ .

ثم ذكر أشياء لا محل لذكرها هنا لانه وَهَمَ كما وهم غيره ، وستأتي الاشارة اليه ان شاء الله تعالى .

## ■ أحد عشر

بما أن القرآن العظيم فيه ذكر كل شيء من أحكام الدنيا والآخرة تصريحا او تلويحا ومن جملتها سير الامم السابقة وأحوالهم لنعتبر بها ، فمن هنا يدخل المفسرون بسرد قصص وحكايات ككتب التاريخ سواء بسواء فأردنا أن نبين مايعتمدعليه وما لا يعتمد ، على سبيل الاشارة والاختصار.

وقد روي عن ابن عباس رضي‌الله عنه في التفسير مالا يحصى، وأحسن الطرق عنه طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفي سنة ١٤٣ هـ ثلاث واربعين ومئة ، واعتمد على هذه الرواية البخاري في صحيحه . ومن جيد الطرق عنه طريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفي سنة ١٢٠ هـ عشرين ومئة عن عطاء بن السائب ، وطريق ابن اسحق صاحب السير . وأوهى طرقه طريق أبي النصر محمد بن السائب الكلبي المتوفي بالكوفة سنة ١٤٦ ست واربعين ومئة، فان انضم اليه رواية محمد بن مروان السدّي الصغير المتوفي سنة ١٨٦ ست وثمانين ومئة فهي سلسلة الكذب . وكذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بشر الازدي المتوفي سنة ١٥٠ خمسين ومئة . الا ان الكلبي يفضل عليه لما في مقاتل من المذاهب الرديئة . وطرق الضحاك بن

مزاحم الكوفي المتوفي سنة ١٠٢ اثنين ومئة عن ابن عباس منقطعة ، فان الضحاك لم يلقه ، وان انضم الى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة ، وقد اخرج عنه ابن جرير وابن ابي حاتم ، وان كان برواية جرير عن الضحاك فأشد ضعفاً لان جريرا شديد الضعف متروك . وانما اخرج عنه بن مردويه وابو الشيخ بن حبان دون ابن جرير ، وأما أبي بن كعب رضي الله عنه المتوفي سنة ٢٠ عشرين على خلاف فيه فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن ابي العالية عنه ، وهذا اسناد صحيح . ثم الف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الاسانيد ونقلوا الاقوال بترا ، فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من سنح له قول يورده ومن خطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك خلف عن سلف ظانا ان له أصلا غير ملتفت الى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن هم القدوة في هذا أهـ . — من كشف الظنون وتمامه فيه — .

## ■ اثنا عشر

أذكر فيه أنواع الخبر وكيفية اتصاله ليكون قارىء كتابنا على المام فيما يجب ملاحظته في نقل الاخبار ، ويقيس على ما نذكر اخبار المؤرخين وحوادثهم ، فيعلم عندئذ مبلغ صدقها والاعتماد عليها .

ولا بأس ان نذكر هنا بعض ما ذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره عن رواية اسماعيل بن عبد الرحمن السدي في تفسيره عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما قال : لكن في بعض الاحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « **بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » . رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو . ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين

من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الاذن في ذلك .

ولكن هذه الاحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فانها على ثلاثة اقسام :

( احدها ) ما علمنا صحته مما بايدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

( والثاني ) ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

( والثالث ) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ، ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر ديني .

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، الى غير ذلك مما ابهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا في دنياهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى : **( سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل . فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا )** الكهف. فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الادب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا . فانه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعف القولين الاولين وسكت عن الثالث ، فدل

على صحته اذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم ارشد على ان الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا **( قل ربي اعلم بعدتهم )** . فانه ما يعلم ذلك الا قليل من الناس ممن اطلعه الله عليه فلهذا قال : **( فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهراً )** . أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فانهم لا يعلمون من ذلك الا رجم الغيب ا هـ .

وذكر ابن كثير اول سورة ( ق ) قال : وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا ( ق ) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف . وكان هذا والله أعلم من خرافات بني اسرائيل التي اخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم بما لا يصدق ولا يكذب .

وعندي ان هذا وامثاله واشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمور دينهم ، كما افتري في هذه الامة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بني اسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته .

وانما اباح الشارع الرواية عنهم في قوله وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج الى اخبارهم ولله الحمد والمنة أ هـ .

ثم ذكر اثرا غريبا عن ابن عباس ، وقال : فاسناد هذا الاثر فيه انقطاع ، والذي رواه علي بن ابي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل ( ق ) هو اسم من أسماء الله عز وجل ، والذي ثبت عن مجاهد أنه

حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى ص ـ ن ـ حم ـ طس ـ ألم . ونحو ذلك . فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما ا هـ .

ثم اعلم ان الاصوليين ذكروا في طرق اتصال الاخبار شروطا ، وسموا كل خبر اسمـا على حسب ما يعرض له من القوة والصحـة ، والحسن والضعف ، والشذوذ والعلة ، والارسال والانقطاع ، وذلك دفعا للشبهة التي تعرض في نقل الاخبار النبوية والدينية لتكون سليمة من كل طعن ، وليأخذ كل خبر مأخذه من الحكم ، كما ستعرفه من اقسامها وامثلتهـا مجملة ، وهذه الاقسام ليست خاصة بالاحكام الدينية التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل يمكن اعتبارها في كل خبر وصل الينا ، لان الله تعالى يقول : **( يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين )** الحجرات .

قال السيوطي في كتاب المزهر في النوع الثالث في معرفة المتواتر والاحاد:
اعلم ان النقل ينقسم الى قسمين : تواترا وآحادا .

فأما المتواتر فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب ، وهـذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم .

وأما الآحاد : فما تفرد بنقله بعض أهل اللغـة ولم يوجد فيه شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به .

ثم نقل عن الامام فخر الدين الرازي اعتراضات على القسمين المذكورين والاجوبة عنها ، وقال : ان أهل اللغة والاخبار لم يهملوا البحث عن احوال اللغة ورواتها جرحا وتعديلا ، بل فحصوا عن ذلك وبينوه كما بينوا ذلك في رواة الاخبار ، ومن طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين والنحـاة واخبارهم وجد ذلك .

وقد الف ابو الطيب اللغوي كتاب مراتب النحويين بين فيه ذلك ،

وميز أهل الصدق من أهل الكذب والوضع . وسيمر في هذا الكتاب كثير من ذلك في نوع الموضوع ونوع معرفة الطبقات والثقاة ، وغيرهما من الانواع ا هـ .

فأنت ترى أن التحري في نقل الاخبار واجب في كل ما يترتب عليه أمر ذو بال . وان كثرة الدس على كبار الرجال المتقدمين نشأ عنه تفرقة بين البشر دينية وسياسية يجل الوصف عن ذكرها وسردها . فما على الانسان الا ان يترك النزعات المذهبية والحزبية ويسرد الاخبار على حسب ما ذكره العلماء في شروط الرواية ، فيقف حينئذ على صحيح الاخبار ويميز الحق من الباطل . ولنذكر شيئا مما ذكره الاصوليون في ذلك فنقول :

## ■ بحث الخبر

قال السيد الامام فخر الاسلام أبو الحسن بن علي بن محمد بن حسين البزدوي المتوفي سنة ٤٨٤ هجرية في كتابه الاصول في كيفية تلقي الاخبار النبوية ، أول بحث السنة ، مانصه : وذلك أربعة أقسام :

قسم في كيفية الاتصال بنا من رسول الله عليه السلام .

وقسم في الانقطاع .

وقسم في بيان محل الخبر الذي جعل حجة فيه .

وقسم في بيان نفس الخبر .

## ■ بحث اتصال الخبر

فأما الاتصال برسول الله عليه السلام . فعلى مراتب : كامل بلا شبهة ، واتصال فيه شبهة صورة ، واتصال فيه شبهة صورة ومعنى .

أما المرتبة الاولى : فهو المتواتر الذي اتصل بك من رسول الله صلى الله عليه وسلم اتصالا بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه ، وذلك أن يرويه قوم لايحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم

وتباين أماكنهم ، ويدوم هذا الحد فيكون آخره وأوسطه كطرفيه أ هـ .

وهنا شرط الشيخ العدالة وتباين الأماكن في ناقل خبر التواتر ، مع ان هذه الكثرة لايشترط فيها هذان الشرطان، كما قاله عبدالعزيز البخاري في شرحه . قال : للقطع بأن اهل قسطنطينية لو اخبروا بقتل ملكهم حصل العلم بخبرهم وان كانوا كفارا فجاراً .

ومثال المتواتر نقل القرآن العظيم والاخبار القطعية . وهو يوجب علم الطمأنينة كالعلم بوجود بغداد وبأن فلانا ابن فلان ، وفلانا ابو فلان ، وهكذا .

واما الخبر الذي فيه شبهة صورة لا معنى ، فهو المشهور . قال عبد العزيز البخاري : وهو اسم لخبر كان من الاحاد في الاصل أي في الابتداء ، ثم انتشر في القرن الثاني حتى روته جماعة لا يتصور تواطؤهم على الكذب اهـ .

قال البزدوي وذلك مثل زيادة الرجم والمسح على الخفين والتتابع في صيام كفارة اليمين ، لكنه لما كان في الاصل من الاحاد ثبت به شبهة فسقط به علم اليقين اهـ .

ولكن لا يعتبر العلماء كل ما كان أصله واحدا ثم انتشر بهذه المنزلة ، الا ما كان من الصحابة فقط لشدة تحريهم في نقل أخبار الدين وتورعهم من الكذب على سيد المرسلين وثبوت نزاهتهم وعدالتهم . قال الشارح : والاعتبار للاشتهار في القرن الثاني والثالث ، ولا عبرة للاشتهار في القرون التي بعد القرون الثلاثة ، فان عامة اخبار الاحاد اشتهرت في هذه القرون ولا تسمى مشهورة ، فلا يجوز الزيادة على الكتاب بها مثل خبر الفاتحة والتسمية في الوضوء وغيرهما أهـ .

واما الخبر الذي فيه شبهة صورة ومعنى. فقال فخر الاسلام: هو كل

خبر يرويه الواحد أو الاثنان فصاعدا لا عبرة للعدد فيه بعد ان يكون دون المشهور والمتواتر ، وهذا يوجب العمل ولا يوجب العلم يقينا عندنا ، وقال بعض الناس لا يوجب العمل لانه لا يوجب العلم ا هـ .

واخبار المؤرخين بل والبشر عامة لاتخرج عن هذه الاقسام الثلاثة ، ويمكن تطبيقها عليها حرفا بحرف .

فالمتواتر من اخبارهم ، كالعلم بوجود قسطنطين الاول والثاني، والعلم بوجود البلاد المشهورة ، وغير ذلك مما لا يتطرا الشك اليه .

والمشهور : مثل صدور الارادات والاوامر الملكيةوالجمهورية، فيفرض الصدق وتمام الصدق بمن يحملها عن مرجعها الاول ، ثم تشتهر عنه . وان قلنا بعدم وجود هذا القسم يكون أصوب ، لان حياة المنقول عنه ووجوده بين اظهر الناقلين تجعله من قسم المتواتر ، بخلاف المشهور الذي لم ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم الا عمر رضي الله عنه مثلا ،ثم توفي الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ونقل عن عمر رضي الله عنه انه قال : **انما الاعمال بالنيات** ، ثم أشتهر هذا الحديث عن عمر رضي الله عنه . فهذا القسم لا يفرض وجوده لعدم وجود من هم بمنزلة الصحابة من شروط النقل والعدالة .

وبقي القسم الاخير وهو خبر الاحاد ، وهو الغالب على سائر اخبارنا اليوم وأخبار المؤرخين بالامس . وهذا القسم من الاخبار الذي يقول فيه الاصوليون انه حاو لنوعي الشبهة صورة ومعنى . أما الشبهة صورة : فلان الاتصال بقائله لم يثبت قطعا . وأما الشبهة معنى: فانها لاتنتفي الا ان تتلقى الامة هذا الخبر بالقبول . وهذا بعيد في خبر الاحاد .

ولكن خبر الواحد مقبول على الصحيح في وجوب العمل بدلائل عقلية ونقلية ذكرها الأصوليون لا سبيل لسردها هنا ، ولأنه اذا لم يقبل لبطلت

وتعطلت سائر معاملات الامم لعدم امكان التواتر في كل خبر ، لكن بالنظر لتمكن الشبهة فيه اختلفت آراء المجتهدين حوله بالنظر للشروط التي شرطوها .

فمن كان راويه معروفا بالتقدم والاجتهاد والرواية فخبره حجة عند ابي حنيفة ، يترك فيه القياس . واما مالك فذكر فخر الاسلام البزدوي عنه ما نصه : وقال مالك رحمه الله فيما يحكى عنه ان القياس مقدم عليه ، لان القياس حجة باجماع السلف ، وفي اتصال هذا الحديث شبهة اﻫ .

واماإذا كان راويه مجهولا ، فالجهالة على خمسة اقسام ذكرهاالبزدوي مع احكامها .

وفي اللمع وهو لأبي اسحق ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزاباذي الشافعي المتوفي سنة ٤٧٦ﻫ . قال فيما نحن بصدده من احاديث الاحاد المسندة : انه يوجب العمل ولا يوجب العلم ، وذلك مثل الاخبار المروية في السنن والصحاح وما أشبهها . وقال القاشاني وابن داود لايوجب العلم وهو مذهب الرافضة . ثم اختلف هؤلاء فمنهم من قال العقل يمنع العمل به ، ومنهم من قال العقل لا يمنع ، الا ان الشرع لم يرد به . قال ويقبل ان خالف القياس ويقدم عليه . وقال بعض أصحاب مالك رحمه الله اذا خالف القياس لم يقبل اﻫ .

وما نقله الشيرازي الفيروزأباذي في لمعه عن الشيعة انه : لا يوجب العلم عندهم . رأيته في كتبهم ككتاب عدة الاصول لابي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي المولود سنة ٣٨٥ والمتوفي سنة ٤٦٠ . وقد ساق المذاهب والاقوال في حكم خبر الواحد الى ان قال : وأما من أوجب العمل به على ما يذهب اليه مخالفونا في الاحكام ، فالذي يبطله أن نقول اذا لم يكن في العقل ما يدل على ذلك فالطريق الى ايجابه السمع ، وليس في السمع

دليل على وجوب العمل بخبر الواحد على ما يذهبون اليه ، لان جميع ما يدعونه دليلا ليس في شيء منه دليل على وجه . ونحن نذكر شبهتهم في ذلك ونتكلم عليها بموجز من القول .

ثم ساق أدلة من خالفه وأطال في ردها اطالة مملة الى أن قال : فاما ما أخترته من المذهب وهو أن خبر الواحد ، اذا كان واردا من طريق أصحابنا القائلين بالامامة ، وكان ذلك مرويا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن الواحد من الأئمة ، وكان ممن لا يطعن في روايته ويكون سديدا في نقله ، ولم يكن هناك قرينة تدل على صحة ما تضمنه الخبر ، لانه اذا كان هناك قرينة تدل على صحة ذلك ، كان الاعتبار بالقرينة وكان ذلك موجبا للعلم أ هـ .

أما شرائط الرواية فقال البزدوي في أصوله في باب شرائط الراوي هي أربعة : العقل ، والعدالة ، والضبط ، والاسلام .

قال العلامة البهاري في كتابه مسلم الثبوت ما نصه : فمنها التعقل للتحمل ، والأصح عدم التقدير بسن ، بل بفهم الخطاب ورد الجواب ، وللاداء الكمال ، ومعياره البلوغ سالما ، قياسا على الشهادة ، ولقبولهم ابن عباس وابن الزبير والنعمان وأنسا بلا استفسار أ هـ .

وحيث تكلمنا على كيفية اتصال الاخبار وتقسيمها الى متواتر ومشهور وآحاد ، وذكرنا أن الاحاد يوجب العمل بخبره دون اعتقاد مرويه ، وأن الشيعة لا يقبلون الا حديث من كان منهم ، وقدمنا ما يشترط في الآحاد من الشروط .

فالآن نتكلم على كيفية الانقطاع

## ■ بحث انقطاع الخبر

قال البزدوي : وهو نوعان ظاهر وباطن .

اما الظاهر فالمرسل من الاخبار . وذلك على اربعة انواع :

الاول : ما ارسله الصحابي .

والثاني : ما ارسله القرن الثاني .

والثالث : ما ارسله العدل في كل عصر .

والرابع : ما ارسل من وجه واتصل من وجه آخر .

– اما القسم الاول فمقبول بالاجماع .

– واما القسم الثاني والثالث فحجة عندنا وهو فوق المسند . كذلك ذكره عيسى بن ابان . وقال الشافعي رحمه الله ، لا يقبل المرسل الا اذا ثبت اتصاله من وجه آخر ، ولهذا قبلت مراسيل سعيد بن المسيب لاني وجدتها مسانيد .

وحكى اصحاب مالك بن انس عنه انه كان يقبل المراسيل ويعمل بها مثل قولنا .

واما ارسال من دون القرون الثلاثة فقد اختلف فيه . فقال بعض مشايخنا ، يقبل ارسال كل عدل ، وقال بعضهم لا يقبل اهـ . بزدوي مختصرا .

قال شارحه : الارسال ضد التقييد لغة ، وكان هذا النوع الذي نحن بصدده سمي مرسلا لعدم تقييده بذكر الواسطة التي بين الراوي والمروي عنه . وفي المغرب : المراسيل اسم جمع للمرسل كالمناكير للمنكر . وفي غيره المراسيل جمع المرسل والياء فيها للاشباع كما في الدراهيم والصياريف . وهو في اصطلاح المحدثين ان يترك التابعي الواسطة التي بينه وبين الرسول عليه السلام ، فيقول : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، كذا كما كان يفعله سعيد بن المسيب ومكحول الدمشقي وابراهيم النخعي والحسن البصري وغيرهم . فان ترك الراوي واسطة بين الراويين مثل أن يقول من لم يعاصر ابا هريرة ، قال ابو هريرة . فهذا يسمى منقطعا عندهم . هذا اذا كان المتروك واسطة واحدة ، فان كان أكثر من واحدة ، فهو المسمى بالمعضل عندهم ، والكل يسمى ارسالا عند الفقهاء والاصوليين .

فالقسم الاول وهو مرسل الصحابة مقبول بالاجماع . واما ارسال القرن الثاني والثالث فحجة عندنا وهو مذهب مالك واحدى الروايتين عن احمد بن حنبل ، واكثر المتكلمين . وعند اهل الظاهر وجماعة من أئمة الحديث لا يقبل المرسل اصلا . وقال الشافعي رحمه الله : لا يقبل الا اذا اقترن به ما يتقوى به فحينئذ يقبل .

وأما ارسال من دون القرون الثلاثة فقد اختلف فيه .

قال الشيخ ابو الحسن الكرخي : يقبل ارسال كل عدل في كل عصر لان العلة التي توجب قبول مراسيل القرون الثلاثة وهي ، العدالة والضبط ، تشمل سائر القرون .

وقال عيسى بن أبان : لا يقبل الا مراسيل من كان من أئمة النقل مشهورا بأخذ العلم منه ، فان لم يكن كذلك وكان عدلا ، لايقبل مسنده ويوقف مرسله الى أن يعرض على أهل العلم .

وقال ابو بكر الرازي : لا يقبل ارسال من بعد القرون الثلاثة ، الا اذا اشتهر بأنه لا يروي الا عمن هو عدل ثقة لشهادة النبي عليه السلام على من بعد القرون الثلاثة بالكذب بقوله : ثم يفشو الكذب . فلا يثبت عدالة من كان في زمن شهد النبي عليه السلام على أهله بالكذب ، الا برواية من كان معلوم العدالة يعلم انه لا يروي الا عن عدل كذا ذكر شمس الأئمة ا هـ .

وهي مراسيل الصحابة،

وبما ذكرنا من النقل علِم حكم الانواع الثلاثة، وهي مراسيل الصحابة، ومراسيل القرون الثلاثة التي شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهم بالخبرية، ومراسيل من بعد القرون الثلاثة وهي الى زمننا هذا، وهو الزمن الذي فيه يفشو الكذب، فكيف تقبل رواية المؤرخين وكلها من المراسيل وفي جماعتهم الغث والسمين كما هي الحالة فيمن ينقلون عنهم. ومن هذه الجهة اتى طعن عظيم في روايات المؤرخين المرسلة مع العلم بأن جميع اخبارهم في هذه الصورة مرسلة بحتة لا يعني احد منهم بسند ولا اسناد.

ـ اما النوع الرابع وهو الذي ارسل من وجه وأسند من وجه، فقال فيه فخر الاسلام البزدوي: رد بعض اهل الحديث الاتصال بالانقطاع، وعامتهم على ان الانقطاع يجعل عفوا بالاتصال من وجه آخر اهـ.

قال شارحه: وأما الفصل الاخير ما ارسل من وجه واتصل من وجه آخر، وهو على وجهين. اما أن أسندَ هذا المرسِلَ أو غيره.

ففي الوجه الأول بعض من لم يقبل المراسيل لا يقبل هذا الخبر، وان اسنده هذا الراوي لان ارساله يرد على أنه انما لم يذكر الراوي لضعف فيه فستره له والحال هذه خيانة منه فلم يقبل. ولهذا لم يقبل بعض اهل الحديث سائر مسانيد هذا المرسل وجعلوه بالارسال ساقط الحديث، وعامتهم على انه يقبل منه هذا المسند وغيره من المسانيد لانه يجوز ان يكون سمع الحديث مسندا ونسي من يروى عنه وقد علم انه سمعه مسندا متصلا فأرسله اعتمادا عليه ثم تذكره فأسنده ثانيا، أو كان ذاكرا للاسناد فأسنده ثم نسي من يروي عنه فأرسله ثانيا، فلا يقدح ارساله في اسناده. ولكن انما يقبل اسناده عندهم اذا أتى بلفظ صريح مثل أن يقول: حدثني فلان او سمعت فلانا، ولا يقبل اذا أتى بلفظ موهم مثل أن يقول: عن

فلان ، ونحوه . هكذا نقل عن الشافعي رحمه الله ايضا . اليه اشير في المعتمـد .

وأما في الوجه الثاني وهو ان يسنده غير المرسل ، فقد ذكر الشارح فيه ثلاثة اقوال : الثالث ان الحكم لمن اسنده اذا كان ضابطا عدلا فيقبل خبره وان خالفه غيره سواء كان المخالف له واحدا أو جماعة . قال وهذا القول هو الصحيح، وهو المأخوذ في الفقه واصوله ، ويلتحق بهذا ما اذا كان الذي وصله هو الذي ارسله ، وهكذااذا رفع بعضهم الحديث الى النبي صلى الله عليه وسلم ووقفه بعضهم على الصحابي ، أو رفعه واحدفي وقت ووقفه هو ايضا في وقت آخر ، فالحكم على الأصح لما زاده الثقة من الوصل والرفع اهـ .

قلت ومثله حديث الفاتحة الذي رواه محمد بن الحسن قال : اخبرنا ابو حنيفة ، قال حدثنا ابو الحسن موسى بن أبي عائشة ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (( **من صلى خلف الامام فقراءة الامام له قراءة** )) .

وأسنده غير أبي حنيفة أيضا وارسله بعضهم . فعمل به الحنفية ولم يعمل به الشافعية وقدموا عليه غيره من الاحاديث . وقد استوفينا بحثه في رسالتنا ( تحرير الميسور في الحديث المشهور ) .

وفي جمع الجوامع للسبكي وشرحه للجلال المحلي : أنه لو انفرد واحد عن واحد فما رواه عن شيخ بزيادة ، قبل المنفرد بها عند الأكثر ولو أسند وارسلوا ، أو رفع ووقفوا ، فكالزيادة . فيقال ان علم تعدد مجلس السماع من الشيخ فيقبل الاسناد أو الرفع لجواز ان يفعل الشيخ ذلك مرة دون أخرى ، وحكمه في ذلك القبول على الراجح ، وكذا ان لم يعلم تعدد المجلس ولا اتحاده لأن الغالب في مثل ذلك التعدد أ هـ .

وحيث ذكرنا حكم انقطاع الخبر الظاهر ، فلنذكر حكم انقطاعه الباطني لما له من شديد المساس في بحثنا فنقول :

الانقطاع الباطني قسمان : انقطاع بالمعارضة ، وانقطاع لنقص وقصور في الناقل .

اما الاول فهو ان يعارض الخبر دليل اقوى منه يمنع ثبوت حكمه .

واما الثاني فأربعة انواع : الاول خبر المستور . والثاني خبر الفاسق . والثالث خبر الصبي العاقل، وخبر المعتوه، وخبر المغفل، وخبر المساهل . والرابع خبر صاحب الهوى .

وقد ذكر البزدوي وشارحه أحكام كل واحد في الديانات وغيرها ، الى ان قال فخر الاسلام : وأما المساهل فانما نعني به المجازف الذي لا يبالي من السهو والخطأ والتزوير ، وهذا مثل المغفل اذا اعتاد ذلك أ هـ .

وقال صدر الشريعة في التوضيح : وهذان القسمان وان كانا متصلين ظاهرا لوجود الاسناد ، لكنهما منقطعان باطنا وحقيقة .

أما القسم الاول : فلقوله عليه السلام : **((يكثر لكم الاحاديث من بعدي، فاذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتاب الله فاقبلوه ، وما خالف فردوه))** . فدل هذا الحديث على ان كل حديث يخالف كتاب الله فانه ليس بحديث الرسول عليه السلام . وانما هو مفترى . وكذلك كل حديث يعارض دليلا أقوى منه فانه منقطع عنه عليه السلام ، لأن الادلة الشرعية لايناقض بعضها بعضاً ، وانما التناقض من الجهل المحض .

واما القسم الثاني : فلأنه لما كان الاتصال بوجود الشرائط التي ذكرناها في الراوي ، وحيث عدم بعضها لا يثبت الاتصال . ثم مثّل بخبر المستور والفاسق والمعتوه والصبي العاقل والمغفل الشديد الغفلة والمساهل اي

المجازف الذي لا يبالي من السهو والخطأ والتزوير ، وصاحب الهوى ، فانه لا يقبل روايتهم للشرائط المذكورة أ هـ .

واستثنوا المستور في الصدر الاول حيث انهم قبلوا خبره ، قال في التلويح : لان العدالة فيهم أصل بشهادة النبي عليه السلام، وفي غير الصدر الاول المستور بمنزلة الفاسق ، لان الفسق في اهل هذا الزمان غالب فلا بد من العدالة المرجحة جانب الصدق . وقال الفزي محشي التلويح : قال سراج الدين الهندي ، المستور كالفاسق بلا خلاف بين أصحابنـا في باب الحديث ، فلا يكون خبره حجة احتياطاً لأمر الدين أ هـ .

فانظر يارعاك الله كم اعتنى المتقـدمون في شـروط الراوي والرواية وضبطهم بحيث لا يمكن أن ينفذ خبر كاذب في الدين الا وأمكن اكتشافه ، وكم تساهل المؤرخون بالنقل عن المعروف والمجهول والاخبار الكاذبة ، ثم يتناقلونها ويطعنون بها على فلان وفلان ويلصقون بهـم فريات هم أولى بهـا وأولى ..

## ■ بحث محل الخبر

ثم لنذكر لك التقسيم الثالث الذي ذكره الاصوليون في محل الخبر أي المحل الذي يقبل فيه الخبر . وقسموه الى خمسة أقسام :

القسم الاول ـ ما كان حقاً خالصاً لله تعالى .

والثـاني ـ ما هو عقوبة .

والثـالث ـ ما فيه الزام من حقوق العباد .

والرابع ـ ما ليس فيه الزام .

والخامس ـ ما فيه الزام من وجه دون وجه .

فالنوع الاول وهو العبادات يثبت بخبر الواحد عندالجمهور . قال شارح البزدوي : اي بشرط رعاية ما قلنا من شرائطه من العدالة وعدم مخالفته الكتاب الى آخر ما ذكرنا من غير اشتراط شيء آخر اهـ .

واما الرابع فيقبل فيه ايضاً خبر الواحد بشرط التمييز دون العدالة مثل الرسالات في الهدايا ، والاذن في التجارات اذا وقع في قلبه صدقه . قال شارح البزدوي : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل هدية الطعام من البر النقي وغيره ، وكان يشتري من الكافر . والمعاملات بين الناس في الاسواق من لدن رسول الله عليه السلام الى يومنا هذا ظاهرة لا يخفى على احد انهم لا يشترطون العدالة فيمن يعاملونه . وانهم يعتمدون خبر كل مميز يخبرهم بذلك لما في اشتراط العدالة فيه من الحرج . كذا ذكره شمس الائمة رحمه الله .

ثم هذا القيد وهو قوله : فوقع في قلبه صدقه لازم ، فان الشيخ ذكره في شرح المبسوط فيمن علم بجارية لرجل ورأى آخر يبيعها مدعيا الوكالة في ذلك . ان القائل ان كان عدلاً لا بأس بأن يصدقه على ذلك ويشتريها منه . وان كان غير ثقة ، ان اكبر رأيه انه صادق فكذا الجواب ، وان كان اكبر رأيه انه كاذب يمتنع عنه . وان استوى الوجهان ، يمتنع أيضا لانه لم يثبت ما يقول ، وهكذا ذكر شمس الأئمة أيضاً فقال في هذه المسألة : ان سأل ذا اليد ، فقال اني اشتريتها منه أو وهبها لي أو تصدق بها علي أو وكلني ببيعها فان كان ثقة فلا بأس أن يصدقه على ذلك ويشتريها منه ويطاها .

وان كان غير ثقة الا أن أكبر رأيه أنه فيه صادق فكذلك لأن أكبر الرأي اذا انضم الى خبر الفاسق يتأيد به . وان كان أكبر رأيه أنه كاذب لم ينبغ له أن يعرض لشيء من ذلك لان اكبر الراي فيما لا يوقف على حقيقته كاليقين اهـ .
وفي بقية الاقسام الثلاثة تفصيل لا لزوم لذكره .

ونأتي هنـا على القسم الرابـع من الاقسـام الاربعـة الاساسيـة للسنة وهو :

## ■ الخبـــر

وتقدم الكلام على كيفية الاتصال ، وكيفية الانقطاع وعلى محل الخبر ، وهذا البحث الرابع نفس الخبر .

وذكرنا في بحث الاتصال : المتواتر والمشهور والاحاد .

وذكرنا في بحث كيفية الانقطاع :

الانقطاع الظاهر والباطن وان من الظاهر المرسل من الاخبار .

وفي بحث محل الخبر : ما كان الاخبار فيه عما هو من حقوق الله تعالى وما كان من الحقوق ولا الزام فيه اصلا .

وآثرنا هذين القسمين بالذكر من بقية الاقسام لما ان فيهما يقبل خبر الواحد ونحن بصدد ذلك .

وهذا البحث الرابع في نفس الخبر وهو اربعة اقسام :

فقسم يحيط العلم بصدقه كخبر الانبياء .

وقسم يحيط العلم بكذبه من آحاد الناس .

وقسم يحتمل الصدق والكذب كخبر الفاسق .

والرابع يرجح احد احتماليه على الآخر كخبر العدل المستجمع لشروط الرواية . وهنا نفيض في البحث وعليه مدار معرفة نقل المؤلفات والكتب والمصنفات .

اعلم ان الخبر العدل المستجمع شرائط الرواية اطرافا ثلاثة :

طرف السماع . وطرف الحفظ . وطرف الاداء .

فأما طرف السماع فله نوعان : عزيمة ورخصة .

أما العزيمة فلها أربعة أقسام ، ذكرها فخر الاسلام في أصوله :

تسمعه .

الاول ما يقرؤه عليك من كتاب أو حفظ وانت تسمعه فتقول له اهو

والثاني ما تقرؤه عليه من كتاب او حفظ وهو يسمع فتقول له اهو كما قرات عليك فيقول نعم . وبهذين القسمين يقول السامع حدثنا .

والثالث الكتاب ، والرابع الرسالة .

اما الكتاب فعلى رسم الكتب ، ويقول فيه حدثنا فلان الى ان يذكرمتن الحديث ثم يقول : فاذا بلغك كتابي هذا وفهمته فحدث به عني ، وهذا من الكتاب تبليغا تقوم به الحجة وكتاب الله تعالى اصل الدين . الغائب مثل الخطاب ، الا ترى ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى

وكذلك الرسالة على هذا الوجه . الا ترى ان تبليغ الرسول عليه السلام كان الارسال ايضا وذلك بعد ان يثبتا بالحجة .

وفي هذين القسمين الآخرين المختار أن يقول :

اخبرنا ، لان الكتاب والرسالة ليسا بمشافهة الا ترى انّا نقول اخبرنا الله وانبانا ونبانا بالكتاب والرسالة ، ولا نقول حدثنا ولا كلمنا انما ذلك خاص لموسى صلوات الله عليه ، قال الله تعالى : **( وكلم الله موسى تكليماً )**.

ولهذا قلنا فيمن حلف لا يحدث بكذا ولا يكلم به ، انه لا يحنث بالكتاب والرسالة ، بخلاف ما لو حلف لا يخبر بكذا ، انه يحنث بذلك . فهذه اقسام العزيمة من طرف السماع .

قال فخر الاسلام : وأما الرخصة فما لا اسماع فيه وهو الاجازة والمناولة ، وكل ذلك على وجهين : اما ان يكون المجاز له عالما بما في الكتاب او جاهلا به ، فان كان عالما به قد نظر فيه وفهم مافيه فقال له المجيز ان فلانا قد حدثنا بما في هذا الكتاب على مافهمته باسانيده هذه فاني احدثك منه واجزت لك الحديث به ، فتصح الاجازة على هذا الوجه اذا كان المستجيز مأمونا بالضبط والفهم .

ثم المستحب في ذلك ان يقول أجاز لي فلان ، ويجوز أن يقول حدثني او اخبرني . والاولى ان يقول اجاز لي ، ويجوز اخبرني لان ذلك دون المشافهة .

واذا لم يعلم ما فيه بطلت الاجازة عند ابي حنيفة ومحمد رحمهما الله، وصح في قياس قول ابي يوسف رحمه الله ا هـ . عبارة فخر الاسلام .

قال شارحه عبد العزيز البخاري :

ثم الاجازة ان كانت لموجود معين ، وكان المجاز له عالماً بما في الكتاب الذي اجازه بروايته على ما ذكره الشيخ ، صحت الاجازة عند القائلين بجوازها وحلت الرواية لان الشهادة تصح بهذه الصفة ، فان الشاهد اذا وقف على جميع مافي الصك وكان ذلك معلوما لمن عليه الحق قال : اجزت لك ان تشهد عليّ بجميع ما في هذا الكتاب ، كان صحيحاً فكذا رواية الخبر ا هـ .

وعلى هذا النمط قس راوية كتب زماننا لمؤلفيها ، انك هل ترى كتابا وصل الينا على هذه الشروط الاربعة في العزيمة بالنقل بأن قرأه احد على مؤلفه ، ومن قرأه أقرأه لغيره ، وهكذا حتى وصل الينا .

او كتب به مؤلفه لاحد ، ثم من وصل اليه كتب به لغيره ، وهكذا على شروط العزيمة المذكورة .

أو أجاز مؤلفه به لأحد أو ناوله اياه على شروط الرخصة الا ما كان في كتب الحديث المعتمدة ، كالبخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وسائر كتب المذاهب الاربعة المتداولة التي يقرؤها الخلف عن السلف التي روعيت فيها تلك الشروط كلها .

ومن أين لنا أن نحكم بصحة ما ينسب للشيخ الاكبر وابن تيمية وامثالهما من الكتب والمصنفات ، والعهد بعيد ، والنقل عسير ، وكثير من ائمة زمانهم كانوا يجافونهم ويطعنون بهم ويأبون النقل عنهم .

لكن الشيخ الاكبر تواتر النقل عن اقواله في كتب الثقاة ردا وتأييدا في ما نسب اليه ، حتى امكن الاطمئنان بان هذا القول قاله وسلم له أو قاله ورد عليه . ولكن ابن تيمية لم نر في كتب المتقدمين من نقل اقواله ردا ولا تأييدا الا القليل مما لا نرى بأسا في تقليده بما صح عنه وثبت .

وهكذا سائر مطبوعات زماننا فليحذر الناقلون في هذا الزمان ، وليتحروا في نقل ما كان فيه ثلب عرض أحد من الاقدمين او اثبات حكم شرعي لم ينقل في الكتب المعروفة ، كي لاتصبح الشريعة ألعوبة بيد الناقلين والمؤلفين الجاهلين لشروط الرواية .

أما ما ذكرنا من قانون الاصول والحديث في نقل الكتب والاخبار وسير افذاذ الرجال ، فلا نراهم يراعون شيئا منها بل نراهم يجمعون الآن ما يجدون كحاطب ليل ، وكلما وجدوا كتابا في أحد دور الكتب كتب عليه انه تأليف فلان أو تصنيف فلان نشروه باسمه واعتمدوا ما فيه من الروايات واستدلوا بكلامه بما يوافق هواهم وردوا ما لم يوافقهم بدون تثبت في شروط الرواية ، ولو كان الامر متعلقا بفتوى دينية أو مسألة شرعية .

وانما يجب ان يقال في النقل عن امثال هذه الكتب ، كذا في الكتاب الذي نسب الى فلان بدون قطع بأنه كتابه على التحقيق ، فان وجد فيه مايخالف ماهو اصح منه ، يعلم قطعا انه ليس منه وانما هو مدسوس عليه كله ، وما فيه مخالفة فلأغراض الله أعلم بها .

حتى شرط بعضهم التواتر فيما ينقل عن المجتهد في الاحكام الشرعية

كما نقله ابن عابدين في كتاب القضاء واعترض عليه ، قال : بل الظاهر انه لا يلزم التواتر ، بل يكفي غلبة الظن بكون ذلك الكتاب هـو المسمى بذلك الاسم ، بأن وجد العلماء ينقلون عنه ، ورأى ما نقلوه عنه موجودا فيه أو وجد منه اكثر من نسخة فانه يغلب على الظن انه هو ا هـ .

وبعد ان ذكرنا طرف السماع في خبر العدل المستجمع لشروط الرواية ننقل طرف الحفظ ، اي كيف يحفظ ما تلقاه من مشايخـه الى ان يؤدي امانته لناقليه .

قال فخر الاسلام : واذا صح السماع وجب الحفظ الى وقت الاداء وذلك نوعان ايضا :

تام وما دونه عنـد المقابلة : فالأول عزيمة مطلقـة . والثـاني رخصة انقلبت عزيمة .

اما الاول : فالحفظ من غير واسطة الخط . وهذا فضل خص بهرسول الله عليه السلام لقوة نور القلب استغنى عن الخط وكانوا لا يكتبون من قبل ، ثم صارت الكتابة سنة في الكتاب والحديث صيانةللعلم لفقدالعصمة من النسيان أ هـ .

قال في مرقاة الوصول وشرحها المرآة ما نصه : ورخصته الكتابة ، فان نظر في الكتاب وتذكر الحادثة فحجة ، سواء خطه هو أو رجل معروف أو مجهول . وهذا القسم من الكتاب الآن عزيمة ، وان كان في اول الزمـان رخصة . والا : أي وان لم يكن متذكرا ، فلا يكون حجة عند أبي حنيفة أصلا ، فلا يعمل به راوي الحديث ولا قاض يجد في خريطته سجلامخطوطاً بخطه ولا شاهد يرى خطه في الصك لان الخط يشبه الخط فلا يستفـاد العلم بصورة الخط من غير تذكر .

قال ابو يوسف : الكتاب يقبل في الحديث ، والسجل ان كان في يده للأمن من التزوير سواء كان بخطه او بخط رجل معروف . اما في الحديث فلأن التبديل فيه غير متعارف ، فلو شرطنا التذكر لصحة الراوية ادي الى تعطيل الاحاديث . واما في السجل فلأن القاضي لكثرة اشتغاله يعجز عن ان يحفظ كل حادثة ، فلو كان في يده امن من التزوير فيقبل والا — اي ان لم يكن في يده — فلا يقبل في السجل ، ولا يحل العمل به لان التزوير فيه غالب ، ولا في صك في يد الخصم لغلبة التزوير فيه ايضا ، حتى اذا كان في يد الشاهد يقبل ، بل يقبل في الحديث اذا عرف — اي اذا كان خطا معروفا مأمونا من التبديل والغلط في غالب العادة — لانه من امور الدين ولا يعود بتغييره نفع الى من يغيره ، ومحمد وافق ابا يوسف فيما ذكر لكنه قبله في صك معلوم أي جوّز العمل به وان لم يكن في يده اذا علم أن المكتوب خطه على وجه لم يبق فيه شبهة استحسانا ، توسعة للامر على الناس اهـ . ما في المرآة والمرقاة .

وفي شرح البزدوي لعبد العزيز البخاري ما نصه : ذكر ابو عمرو رحمه الله أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا مختلفين في جواز كتابة الحديث ، فكرهها عمرو ابن مسعود وزيد بن ثابت وابو موسى وابو سعيد الخدري في جماعة آخرين من الصحابة والتابعين ، واباحها علي وابنه الحسن وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم . فالحجة للفريق الاول ماروى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : **«لاتكتبوا عني شيئاً الا القرآن ، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه»** . اخرجه مسلم في صحيحه . والحجة للفريق الثاني حجة أبي شاه اليمني في التماسه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام فتح مكة ، وقوله صلى الله عليه وسلم **« اكتبوا لأبي شاه »** ولعله صلى الله عليه وسلم اذن في الكتابة لمن خشي عليه النسيان ، ونهى عن

الكتابة عنه من وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب ، او نهى عن كتابة ذلك حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن ، واذن في كتابته حين امن من ذلك . ثم انه زال ذلك الخلاف واجمع المسلمون على تسويغ ذلك واباحته ، ولولا تدوينه لدرس في الأعصر الأخيرة اه .

ويتصل بهذا المبحث ، مبحث الكتابة والخط ، لان الكتابة والخط من انواع الحفظ . فاعلم أن الحفظ هو العزيمة ، والكتابة هي الرخصة عند ابي حنيفة ، ولذلك قلت روايته لعدم تدوينه ما حفظ من الاحاديث والسنن ، فاذا رأى الخط وتذكر جاز له ان يشهد وان يروي ، لان القصد التذكر ، ومتى تذكر حصل المقصود سواء كان بخطه او خط رجل معروف أو مجهول .

قال عبد العزيز البخاري شارح اصول فخر الاسلام: وذكر ابوالحسين في المعتمد اذا روى الراوي الحديث من كتابه ، فان علم أنه قرأه على نهجه او حدثه به وتذكر الفاظ قراءته ووقتها أو لم يتذكر ، جازت الرواية والاخذ بها لانه عالم في الحال انه قرأ جميع ما في الكتاب أو سمعه . وان علم أنه لم يسمع ذلك الكتاب أو يظن ذلك أو يجوز الأمرين تجويزاً على السوية فلا يجوز له روايته ، لانه ليس له ان يخبر بما يعلم انه كاذب فيه او ظان او شاك .

وان لم يتذكر سماعه لما في الكتاب ولا قراءته، ولكن يغلب على ظنه ذلك لما يرى من خطه، فهذا هو الذي ينبغي أن يكون محل الخلاف. فعند أبي حنيفة رحمه الله لا يجوز له ان يروي ولا يجوز العمل بروايته . وعند ابي يوسف ومحمد والشافعي رحمهم الله يجوز له الرواية ويجب العمل بها ، لان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون على كتب النبي عليه السلام ، نحو كتابه لعمرو بن حزم من غير ان راويا روى ذلك الكتاب لهم، بل عملوا لاجل

الخط وانه منسوب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاز مثله

لغيرهم اه .

وقال فخر الاسلام : وانما يدخل الخط في ثلاثة فصول : فيما يجد

القاضي في ديوانه مما لا يذكره . وما يكون في السنن والاحاديث . وما

يكون في الصكوك . وروى بشير بن الوليد عن ابي حنيفة رحمهما الله عن

ابي يوسف انه لم يعمل به في ذلك كله . وروى عن أبي يوسف انه يعمل

به في ديوان القاضي، وروى ابن رستم عن محمد انه يعمل بالخط في الكل.

والعزيمة في هذا كله ما قاله ابو حنيفة ولهذا قلت رواياته والرخصة

فيما قالا .

اما ابو يوسف ، فقد عمل به في ديوان القاضي اذا كان تحت يده للأمن

عن التزوير ، وعمل به في الاحاديث ان كان بهذا الشرط .

واما اذا لم يكن في يده ، لم يحل العمل به في الديوان ، لان التزوير في

بابه غالب لما يتصل بالمظالم او حقوق الناس .

واما في باب الحديث فان العمل به جائز اذا كان خطا معروفا لا يخاف

عليه التبديل في غالب العادة ويؤمن فيه الغلط ، لان التبديل فيه غير

متعارف والمحفوظ بيد الامين مثل المحفوظ بيده .

واما في الصكوك ، فلا يحل العمل به لانه تحت يد الخصم ، الا ان يكون

في يد الشاهد اه .

## ■ الوجـادة

تحت هذا العنوان نأتي بطريقة اخرى مما هو بالكتابة والخط .

قال البخاري في شرح اصول فخر الاسلام : الفرق بين هذا القسم وبين ماتقدم ، ان ذلك في وجدان سماع نفسه بخطه أو بخط غيره ، وهذا في وجدان سماع الغير اهـ .

قال فخرالاسلام : وهو ما يجده بخط ابيه او خط رجل معروف في كتاب معروف فيجوز أن تقول وجـدت بخط أبي أو بخط فلان لا يزيـد عليه . فأما الخط المجهول فعلى وجهين : اما ان يكون مفردا وذلك باطل، واما أن يكون مضموما الى جماعة لايتوهم التزوير في مثله ، والنسبة تامة يقع بها التعريف فيكون كالمعروف والله أعلم اهـ .

قال شارحه البخاري : قوله واما ان يكون مضموما الى جماعـة ، يحتمل ان يكون معناه انه وجد سماعه مكتوبا بخط لا يعرف كاتبه في طبقة سماع ، فان من دأب أهل الحديث انهم يكتبون في آخر ماسمعوه من كتاب على شيخ : سمع هذا الكتاب من الشيخ فلان أو على الشيخ فلان ، فلان ابن فلان ، وفلان ابن فلان ، الى أن يأتوا على اسماء السامعين اجمع . فاذا وجد سماعه مكتوبا بخط مجهول مضموما الى سماع جماعة حل له أن يروي لانتفاء تهمة التزوير عنه ، لان الكاتب يخاف في مثله ان المكتوب لو عرض عليهم لانكروا عليه ولظهر كذبه ، اذ النسيان وعدم التـذكر على الجماعة نادر فيحترز عنه بخلاف ما اذا وجد مفردا .

ويجوز ان يكون معناه انه وجد سماعه مكتوبا بخطوط مختلفة مجهولة بأن وجده مكتوبا بخط لا يعرف كاتبه وقد انضم اليه خطوط اخر تشهد بصدق ماتضمنه ذلك الخط .

ويؤيد هذا الوجه ماذكر الشيخ في بعض مصنفاته: فيما اظن ان الراوي اذا وجد سماعه مكتوبا مجهولا مفردا لا يحل له ان يروي الا اذا كان مكتوباً بخطوط كثيرة فانه يحل له ان يروي وان كانت الخطوط مجهولة لانهم لايجتمعون ههنا على الزور والكذب ، فقلنا بانه يحل له ان يروي . فأما اذا كان منفردا فقد تمكنت فيه شبهة فلا يحل . قال شمس الائمة رحمه الله وهذا في الاخبار خاصة ، فاما في الشهادة والقضاء فلا ، لان ذلك من مظالم العباد ، ويعتبر فيه من استقصاء ما لا يعتبر في رواية الاخبار . واشتراط العلم منصوص عليه ، قال تعالى : **( الا من شهد بالحق وهم يعلمون )** . وقال عليه السلام : **« اذا رأيت مثل الشمس فاشهد والا فدع »**. والنسبة تامة ان كتب اسمه واسم ابيه وجده والله اعلم أهـ .

فانظر يارعاك الله في مطبوعات عصرنا الحاضر من كل ما وجد بخطوط قديمة غير معروفة ولا مكتوب عليها سماع احد ولم ترد بالتسلسل المعروف . فما هي الا من نوع الوجادة المجهولة التي لا يجوز الاعتماد عليها ولا نسبتها على سبيل القطع أو الظن لمن نسبت اليه وفي نسبتها شك يكاد يكون شبهة قوية ، لاسيما اذا لم يوجد قول منها مذكور في كتاب آخر فكيف يجوز الاعتماد عليها والافتاء بها في الدين ، سبحانك هذا بهتان عظيم . ومن هذا الباب دخل الكذب في روايات المؤرخين ، وقصص القصاص الظالمين الذين يروون الاقاصيص المشوهة لسمعة الاقدمين .

اما رواية الاحاديث بهذه الصفة فانه يضرب بها وجه الناقل ، ولو كانت في فضائل الاعمال أو الاخلاق والعادات ولا يجوز نسبتها الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد تكفل المحدثون ببيان ذلك بكل وضوح فجزاهم الله خيرا واثابهم الثواب الجميل والفضل الجزيل .

ولقد رايت في عصرنا هـذا اناساً ليسوا على شيء من العلم ولا الفقه

ولا العربية ، وليس لهم قيمة بين العلماء تذكر وهم يجهلون كل شيء الا الجدل الفارغ الذي لايبتني على فن الجدل والمنطق، يدّعون الاجتهاد المطلق. ويظنون ان النظر في كتب الاحاديث فقط يكسبهم هذا الحظ وهذه المنزلة.

ويقولون ان الاقدمين كانوا يضربون اكباد الابل الايام الطويلة لتلقي حديث او اتصال سند ، ونحن في ايامنا هذه بفضل فشو الطباعة قد سهل الامر علينا ، واطلعنا على ما لو أراد أسلافنا الاطلاع عليه لكلفهم من المشاق ما لا يطـاق .

هذه كل حجتهم التي اوصلتهم الى الاجتهاد المطلق ، ليس لهم سواها، ولو سألتهم عن تفسير كلمة من كلام الله أو كلام رسوله لكان ذلك عليهم اكبر من كلمة اعجمية ، واذا قرأوا عبارة لا يستطيعون ان يعرفوا فاعلها من مفعولها ، ولو سألتهم عن حكم شرعي يقولون نبحث عنه ، ويستجهلون سواهم ، ويلصقون انفسهم بكبار الائمة السابقين ، ويفتون بأقوال تنسب اليهم لا على وجه الثبوت ، ويشوهون سمعتهم بها عند من لايعرف قدرهم في العلم ولا منزلتهم فيطعن بهم .

ومن هذا القسم الذين شوهوا سمعة الامام ابن تيمية رضي الله عنه بما الصقوه به من الاقوال المكذوبة ، فاني لم أر من الاقوال المنسوبة اليه على وجـه الصحة الا قليلا مما نسب اليه وشهر به ، كمنعه الزيارة التي طال فيها النقاش بينه وبين اخصامه ومن رد عليهم . وحبذا لو صح عنه ما اشتهر في هـذه الايام نسبته اليه في مسائل الطلاق وغيرها ، لكان فيها فسحة عظيمة للناس بتقليده وحسبنا به من إمام .

واعجب من ذلك ان بعض من يتزعم لابن تيمية من ادعياء الاجتهاد الجهلاء لا يقبل الحديث المنقطع ولا الضعيف ، ومع هـذا لو رأى قولا

منسوباً لابن تيمية على هامش كتاب او مأخوذاً من مكتبة كافر يفتي به .

فهل هذه هي الوجادة المقبولة التي نوهنا بذكرها فيما سبق . ولقد أغلظت القول على بعضهم في هذا الامر واعظمته منه فحجني بما ذكره الحافظ ابو عمرو بن الصلاح في مقدمته حيث قال : وأما جواز العمل اعتماداً على ما يوثق به منها فقد روينا عن بعض المالكية ان معظم المحدثين والفقهاء من المالكيين وغيرهم لا يرون العمل بذلك ، وحكي عن الشافعي وطائفة من نظار اصحابه جواز العمل به .

قلت قطع بعض المحققين من اصحابه في اصول الفقه بوجوب العمل به عند حصول الثقة . وقال لو عرض ما ذكرناه على جملة المحدثين لأبَوه ، وما قطع به هو الذي لايتجه غيره في هذه الاعصار المتأخرة ، فانه لو توقف فيها على الرواية لانسد باب العلم بالمنقول لتعذر شروط الرواية فيها على ما تقدم في النوع الاول والله أعلم اهـ .

فان قلت اذا كانت هذه الكتب الموجودة في المكاتب بالخطوط القديمة ، والتي لم ينقلها عن مؤلفها النقلة ، ولم يحصل بها سماع منه ، ولم يأخذها عنه آخذ باجازة أو سواها مما تقدم ، فهل تهمل ولا ينظر اليها اصلا . فجواب ذلك سهل لان الاصوليين وأئمة الحديث لم يتركوا شيئاً مما يلزم بيانه الا ذكروا فيه الوجه المنقول أو الوجه المقبول والمعقول.

قال عبد العزيز البخاري شارح أصول فخر الاسلام ما نصه : وذكر الغزالي رحمه الله في ـ المستصفى ـ : اذا رأى مكتوبا بخط ثقة اني سمعت عن فلان كذا ، لا يجوز له أن يروي عنه لان روايته شهادة عليه بأنه قاله ، والخط لا يعرفه هذا . نعم يجوز ان يقول رأيت مكتوبا في كتاب بخط طبيب انه خط فلان فان الخط قد يشبه الخط ، اما اذا قال هذا خطي

فيقبل قوله ولكن لا يروى عنه ما لم يسلطه على الرواية بصريح قوله او بقرينة حاله كالجلوس لرواية الحديث اهـ .

فانظر ما حوت هذه العبارة الجامعة المانعة للامام الغزالي رحمه الله ، حيث لم يجوز الرواية عن صاحب الخط اذا لم يسلطه الكاتب على الرواية عنه ، فكيف بكتابة لم تعرف انها خط فلان . ويفهم منه انه لا يجوز نسبة شيء من ذلك الى هؤلاء المؤلفين ، وانما يمكن أن يقال وجد كتاب بخط قديم منسوب الى فلان يحوي ما هو كذا وكذا .

هذا ماتضافر عليه كلام الاصوليين والعلماء ولا نقول بغير ذلك .

بقي معنا من اطراف خبر العدل المستجمع لشروط الرواية ، طرف الاداء ، وبما ان ابحاث هذا الطرف تهم المحدثين اكثر مما نحن فيه لذا نضرب عن ذكرها صفحاً ، والله أعلم .

* * *

# في ذكر بعض ما يبتني على المقدّمة

## ممّا وقع في التوراة الموجودة من الخبط والتكذيب

من ذلك ما وقع في التوراة من ذكر أنساب الخليقة الاولى من عهد آدم الى زمن نوح عليهما السلام ، ومن زمن نوح الى زمن توفرت فيه وسائط النقل والضبط ، ومدد ذلك واعمارهم فهذا ما يغلب على الظن كذبه . وقد بينا في بعضها أدلة قطعية من نقلية وعقلية بحيث يستحيل على العاقل التصديق به .

وقد أورد ابن خلدون في أول تاريخه بعض تمسكات الفريقين ونحن نورد بعض كلامه قال : سئل مالك رحمه الله تعالى عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من اين يعلم ذلك ، فقيل له فالى اسماعيل فأنكر ذلك وقال من يخبره به . وعلى هذا درج كثير من علماء السلف . وكره ايضا ان يرفع في انساب الانبياء مثل ان يقال ان ابراهيم بن فلان بن فلان ، وقال من يخبره به . وكان بعضهم اذا تلا قوله تعالى : **( والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله )** . قال كذب النسابون . واحتج ايضا بحديث ابن عباس

قال : (( **من ههنـا** أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الكريم الى عدنان قال : (( **من ههنـا كذب النسابون** )) . واحتجوا ايضا بما ثبت فيه انه علم لاينفع ، وجهالة لاتضر الى غير ذلك من الاستدلالات . وذهب كثير من ائمة المحدثين والفقهاء مثل ابن اسحق والطبري والبخاري الى جواز الرفع في الانساب ولم يكرهوه محتجين بعمل السلف ، فقد كان ابو بكر رضي الله عنـه انسب قريش لقريش ومضر بل ولسائر العرب ، وكذا ابن عباس وجبير بن مطعم وعقيل ابن ابي طالب ، وكان من بعدهم ابن شهاب والزهري وابن سيرين وكثير من التابعين . قال واما حديث ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الى عدنان قال : (( **من ههنا كذب النسابون** )) — يعني من عدنان — فقد انكر السهيلي روايته من طريق ابن عباس مرفوعا ، وقال الاصح انه موقوف على ابن مسعود ، قال وأما ما رواه من ان النسب علم لاينفـع وجهالة لاتضر فقد ضعّف الائمة رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم مثل الجرجاني وابي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر ، والحق في الباب ان كل واحد من المذهبين ليس على أطلاقه ، فان الانساب القريبة التي يمكن التوصل الى معرفتها لا يضر الاشتغال بها لدعوى الحاجة اليها في الامور الشرعية من التعصيب والولاية والعاقلة وفرض الايمان بمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم ونسب الخلافة والتفرقة بين العرب والعجم في الحرية والاسترقاق عند من يشترط ذلك كما مر كله .

وفي الامور العادية ايضا تثبت به اللحمة الطبيعيـة التي تكون بهـا المدافعة والمطالبة ، ومنفعة ذلك في اقامة الملك والدين ظاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم واصحابه ينتسبون الى مضر ويتساءلون عن ذلك ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : (( **تعلموا من أنسابكم ماتصلون به ارحامكم** )) .

وهذا كله ظاهر في النسب القريب ، وأما الانساب البعيدة العسرة المدرك التي لا يوقف عليها الا بالشواهد والمقارنات لبعد الزمان وطول الاحقاب، أو لا يوقف عليها رأساً لدروس الاجيال ، فهذا قد ينبغي أن يكون له وجه في الكراهة كما ذهب اليه من ذهب من أهل العلم مثل مالك وغيره لأنه شغل الانسان بما لا يعنيه ، وهذا وجه قوله صلى الله عليه وسلم فيما بعد عدنان : (( **ومن ههنا كذب النسابون** )) ، لأنه أحقاب متطاولة ومعالم دارسة لا تثلج الصدور باليقين في شيء منها مع أن علمها لا ينفع وجهلها لا يضر كما نقل والله الهادي الى الصواب .

انتهى ما أردت نقله من طالعة كلامه في التاريخ، وليكن خلاصة ما أردت ان أقوله في هذا الباب .

وقال أيضاً : واتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الأرض أجمع بما كان من خراب المعمور ومهلك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أصل الأرض كلهم من نسله وعاد أباً ثانياً للخليقة .

قلت ودعواه اتفاق المؤرخين على ان الطوفان كان عاماً لجميع أمم الأرض كأنه لم يعبأ بما خالفه .

نعم ان المرجح ما ذكره من عموم الطوفان وعموم الخراب ، لكن لا على سبيل الاتفاق بل على سبيل الارجحية، ونصوص التوراة صريحة بعمومه، وظواهر آيات القرآن تؤيدها كما سيأتي ، ويعارض ماذكره من دعوى الاتفاق ما ذكره بعده بقليل ونصه : وكذلك يقال أن الصابئة من ولد صابيء بن لامك وهو أخو نوح عليه السلام ، وقيل أن صابيء متوشلح جده أ هـ .

فأين الاتفاق على أن نوحاً هو الأب الثاني للبشر بعد أن كان أخوه أبا الصابيء على هذا القول ، ثم بعد ان ذكر نسب نوح عليه السلام لآدم قال : وقد تترجح صحة هذه الأنساب من التوراة ، وكذلك قصص الأنبياء الأقدمين اذا اخذت عن مسلمي يهود أو من نسخ صحيحه من التوراة يغلب على الظن صحتها ، وقد وقعت العناية في التوراة بنسب موسى عليه السلام واسرائيل وشعوب الأسباط ونسب ما بينهم وبين آدم صلوات الله عليه .

والنسب والقصص أمر لا يدخله النسخ فلم يبق الا تحري النسخ الصحيحة والنقل المعتبر ، وأما ما يقال من أن علماءهم بدلوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم في ديانتهم فقد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخاري في صحيحه أن ذلك بعيد ، وقال : معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم الى كتاب منزل على نبيها فتبدله ، أو مافي معناه قال : وانما بدلوه وحرفوه بالتأويل ، ويشهد بذلك قوله تعالى : ( **وعندهم التوراة فيها حكم الله** ) . وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها اليهم فانما المعني به التأويل ، اللهم الا أن يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها . فذلك يمكن في العادة لا سيما وملكهم قد ذهب وجماعتهم انتشرت في الآفاق واستوى الضابط منهم وغير الضابط والعالم والجاهل ولم يكن لهم وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك ، فتطرق من أجل ذلك الى صحف التوراة في العالم ، تبديل وتحريف غير معتمد من علمائهم واحبارهم ، ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها اذا تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه اهـ . كلام ابن خلدون .

قلت : وهو كلام عجيب في بابه من مثل هذا العلامة المؤرخ الذي يبعد عنه الجهل بوقائع أيام اليهود وذهاب ملكهم واندثاره وفقد التوراة منهم

وضياعها ونسيانها بتقادم العهد على خراب ملكهم واستئصال شأفتهم ، حتى صنف علماؤهم هذا الكتاب الذي دعوه بالتوراة ، كما اسرد عليك بعض ذلك ان شاء الله تعالى على وجه يزيح كل صحة تنسب لهذا الكتاب الباطل الذي لا يجوز الاعتماد عليه الا بما ورد مؤيداً في شريعتنا الاسلامية بآية أو حديث ، وكأن ابن خلدون أراد التماس عذر له ولسائر من نحا نحوه من المؤرخين في اعتمادهم على التوراة في ذكر خرافات الانتساب لآدم ونوح، كي لا يكون كلامهم وما يكتبونه في هذا الصدد مقطوعاً بكذبه ، ولو جعل الأمر الى الشك الذي يستوي طرفاه لكان الخطب أسهل ، ولكن أوصله لدرجة غلبة الظن التي هي مدار سائر الأمور الدينية غير الاعتقـادية ، وأيده بما نقله البخاري عن ابن عبـاس ، وادعى تأويل الدلائل القطعيـة المنادية بالتحريف واستدل بقوله تعالى : **( وعندهم التوراة فيها حكم الله )** وهي لا تدل لمدعاه ، لأن حكم الله ببعض المسائل لم يزل موجوداً فيهـا ، كالنفس بالنفس والعين بالعين ، ولكن أكثر الأحكام التي كانت موجودة تحرفت وذهبت ، والعيان أكبر شاهد على ذلك ، وان التوراة مترجمـة موجودة تتلى كما يتلى غيرها من الكتب ، وقد أجمع يهود العـالم على الموجود منها بين أيدينا ، وسأتلو عليك من أقاصيصها ما لو كان ابن خلدون حياً لأصلح كلامه واعترض على من نهج نهجه ، وفيها من قذف الانبيـاء بالزنى شناعة لاتنكر ، ونادي بكل صراحة انهم عمدوا الى كتابهم فحرفوه وان لزم من ذلك مخالفة رأي ابن عباس اذ مخالفة روايته خير من نسبة قذف الأنبياء الى كلام الله وخير من الكفر الصريح . على أن رواية البخاري انما هي تعليقة عن ابن عباس ونصه :

وقال ابن عباس : يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتـاب من كتاب الله عز وجل ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله ا هـ .

قال القسطلاني : يحتمل أن يكون هذا من كلام المؤلف ذيل به على تفسير ابن عباس ، وان يكون من بقية كلام ابن عباس في تفسير الآيـة ، وقد صرح كثير بأن اليهود والنصارى بدلوا الفاظاً كثيرة من التوراة والانجيل وأتوا بغيرها من قبل انفسهم ، وحرفوا أيضاً كثيراً من المعاني بتأويلها على غير الوجه ، ومنهم من قال انهم بدلوهما كليهما ، ومن ثَمَّ قيـل بامتهانهما وفيه نظر ، اذ الآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منهما أشياء كثيرة لم تبدل ، منها آية الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، وقصة رجم اليهوديين ، وقيل التبديل وقع في اليسير منهما وقيل وقع في المعاني لا في الألفاظ وهو الذي ذكره هنا ، وفيه نظر فقد وجد في الكتابين مالا يجوز أن يكون بهذه الألفاظ من عند الله أصلا ، وقد نقل بعضهم الاجماع على انـه لا يجوز الاشتغال بالتوراة والانجيل ولا كتابتهما ولا نظرهما .

قال ابن حجر في الفتح : ومنه لخصت ما أذكره ، والذي يظهر أن كراهة ذلك للتنزيه لا للتحريم ، والاولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الايمان فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك ، بخلاف الراسخ فيه ولا سيما عند الاحتياج الى الرد على المخالف أ هـ . وتمامه فيه . أواخر كتاب التوحيد وأواخر البخاري الشريف .

وما تقدم في البخاري يبعد أن يكون من كلام ابن عباس لأنه معارض بما رواه البخاري عنه في صحيحه في كتاب الاعتصام قبيل كتاب التوحيد ان ابن عباس رضي الله عنهما قال :

**« كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحْدَثُ تقرؤنه محضاً لم يُشَبْ ، وقد حدثكم ان أهـل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيَّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكـم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم » .**

ورواه البخاري أيضاً في الشهادات كما في القسطلاني ، وكفى هذا الحديث الصريح عمدة في الأخذ به ودفع ماسواه مما نسب لابن عباس ، بل هو كلام الامام البخاري الذي ذيل به قول ابن عباس .

اما بعض أسفار التوراة الظاهرة الكذب ، فقد قال في سفر التكوين الاصحاح التاسع عشر ، بعد أن ساق قصة الملائكة مع لوط عليه السلام وخراب قرى سدوم ما نصه :

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة ابونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا فسقتا اباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة أني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعهما ولا بقيامهما فحبلت ابنتا لوط من ابيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو ابو الموآبيين الى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابنا ودعت اسمه بَن عمِّي وهو أبو بني عمون الى اليوم أهـ .

وقد جاء في سفر التكوين أيضاً في الاصحاح الثامن والثلاثين ، اتهام يهوذا اخي يوسف بالزنى ، حيث واقع زوجة ابنه المتوفي غير عالم بأنها زوجة ابنه ، بل ظنها زانية ، ونص محل الشاهد من التوراة بالحرف الواحد :

فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها فمال اليها على الطريق وقال هاتي ادخل عليك لأنه لم يعلم انها كنته فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل علي فقال اني أرسل جدي معزي من الغنم فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله فقال ما الرهن الذي أعطيك فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها ولما كان نحو ثلثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كنتك وها هي حبلى أيضاً من الزنا فقال يهوذا أخرجوها فتحرق أما هي فلما اخرجت ارسلت الى حميها قائلة مِنَ الرجل الذي هذه له أنا حبلى وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه فتحققها يهوذا وقال هي ابرّ مني لأني لم أعطها لشيلة ابني فلم يعد يعرفها أيضاً أهـ .

وشيلة هو ابن يهوذا الذي مات وزوجته ثامار التي حبلت من أبيه حسب كذب القصة .

وقد وقع في سفر صموئيل الثاني في الاصحاح الحادي عشر ، اتهام سيدنا داود عليه الصلاة والسلام بالزنا ، حيث قال ما نصه :

وكان في وقت المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة اوريا الحثي فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت اني حبلى فأرسل داود الى يوآب يقول ارسل اليّ اوريا الحثي فأرسل يوآب

اوريا الى داود ... وفي الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وارسله بيد اوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت وكان في محاصرة يوآب المدينة انه جعل اوريا في الموضع الذي علم ان رجال البأس فيه فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات اوريا الحثي أيضاً ... فلما سمعت امراة اوريا انه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امراة وولدت له ابناً واما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب اهـ .

وقد أسقطت من العبارة ما تتجلى بها أقبح المظالم والشناعات التي لا تليق الا بابليس ومن وضع هذه القصة .

وذكر في سفر الملوك الأول في الاصحاح الحادي عشر في حق سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، مادنس بذكره قلم كاتبها ومما قال مانصه :

وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورث الاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه حينئذ بنى

سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه اورشليم ولمولك رجس بني عمون وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن ففضب الرب على سليمان لان قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذي تراءى له مرتين اهـ.

وفي سفرهوشع في الاصحاح الأول ما نصه :

اول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع اذهب خذ لنفسك امراة زنى واولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب .

وقال في الاصحاح الثالث :

وقال الرب لي اذهب أيضاً أحبب امراة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب .

وقال في الاصحاح الرابع :

ولكن لا يحاكم أحد ولا يعاتب أحد . وشعبك كمن يخاصم كاهناً فتتعثر في النهار ويتعثر أيضاً النبي معك في الليل .

وقال في الاصحاح السادس : هناك زنى افرايم . تنجس اسرائيل .

وقال في الاصحاح التاسع : جاءت أيام العقاب . جاءت أيام الجزاء . سيعرف اسرائيل . النبي احمق . انسان الروح مجنون من كثرة اثمك وكثرة الحقد افرايم منتظر عند الهي النبي فخ صياد على جميع طرقه. حقد في بيت الهه. قدتوغلوا فسدوا كأيام جبعة. سيذكر اثمهم. سيعاقب خطاياهم اهـ .

فهل يغلب على الظن يا ابن خلدون صحة هذه التوراة التي الصقت بالأنبياء أقبح التهم وقذفتهم بالزنا ، وكأن هذه اللفظة عندهم من اقل ما يقولون ، وهذا الفعل بينهم من أسهل الامور ، ومن أين لنا ان نفتش على نسخة صحيحة يغلب على الظن صحتها مع ان اهلها لايقرون بغير هذه المنقول عنها ، لأنها شائعة بأيدي الخلائق يتداولونها ويقرؤها العام والخاص ، مقدسة لديهم ، وقد طبعتها جمعية التوراة الاميركية في المطبعة الاميركية في بيروت عام ١٩١٢ اثنتي عشرة وتسع مائة وألف كما هو محرر على ظهرها ، وانها مترجمة من اللغات الاصلية وهي : العبرانية ، واللغة الكلدانية ، واللغة اليونانية ، وقد قابلتها على نسخة اخرى طبع ويليم وطس في لندن سنة ١٨٦٠ ستين وثمانماية وألف ، عن النسخة المطبوعة في رومية ، فلم أجد بينهما فرقاً الا في بعض كلمات قليلة لا قيمة لها .

وأمثال هذه الترهات والافتراءات مما لو أردنا تعدادها لاحتجنا لنقل أغلب عباراتها الركيكة التي تمجها الأسماع وخرافاتها التي تخالف الطباع الا النزر اليسير مما فيه بعض الاحكام والوصايا .

وقد ذكر أبو الفداء في تاريخه ان نسخ التوراة ثلاث : السامرية ، والعبرانية ، واليونانية ، وأثبت فساد الاوليين واعتمد النقل على الثالثة، بالرغم من أن الثانية هي المتداولة الى الآن . واني لم اطلع على غير المتداولة حتى سنة ١٩٥٩ وهي العبرانية المطبوعة الشائعة، وقد نقل عنها ابو الفداء ان المدة التي بين هبوط آدم وبين الطوفان ١٥٥٦ سنة،وقد تتبعت التوراة فوجدتها ١٦٥٦ ، ولكن أبا الفداء ذكر أن اليهود الغوا هذه المئة وبيّن سبب ذلك فلا مخالفة .

وأما المزامير ، فلولا ركاكة عباراتها وسوء سبكها لكان أكثرها حسن القبول محتمل الصدق .

ويتضح مما ذكرنا انه لاثقة بروايات هذا الكتاب ولا سائر ما ينقل عنه الا اليسير النزر، وانما نرجع الى ماصح من الآثار النبوية والآيات القرآنية، فناخذ بظاهر الآية والحديث الصحيح، ونستأنس ببعض الاحاديث الضعيفة ما لم يعارضها ما هو ارجح ، ثم نرجع الى ماقاله علماء الفنون من طبيعية ورياضية وفلكية لأن لهذه الابحاث علاقة كبرى بمبدأ الخليقة ومنتهاها لا سيما علم طبقات الأرض وعلم الآثار .

نعم قد يقرب من التصديق ماجاء في الاصحاح الأول من انجيل متى ، ان من ابراهيم الى المسيح اثنين واربعين جيلا ومعلوم طول عمر البشر بذلك الزمان ، فلو فرض كل واحد بخمسمائة سنة لصار نحو عشرين الف سنة بينهما ، وهذا ربما يصدقه العقل .

هذا وقد نحا ابن جرير في تاريخه نحوا آخر من الاعتماد على مافي التوراة في مدة الخليقة ومبدأها وعمر الدنيا ، ثم ساق أحاديث لا اعتماد على شيء منها، وأيدها بما ورد عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس** )) . وفي معناه عن انس بن مالك وابي سعيد الخدري وبما عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**بعثت والساعة كهاتين**)) واشار بالسبابة والوسطى . وفي معناه ، عن جابر بن سمرة ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد الساعدي ، وعن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، وبما عن المستورد بن شداد الفهري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : (( **بعثت في نفس الساعة سبقتها كما سبقت هذه هذه** )) . لأصبعيه السبابة والوسطى ، ووصف لنا ابو عبد الله جمعهما . وعن ابي صبرة ، عن اشياخ من الانصار ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بمعناه : (( **فاذا صار ظل كل شيء مثليه على التحري انما يكون قدر نصف سبع اليوم**

**يزيد قليلا وكذلك فضل ما بين الوسطى والسبابة »** . فاذا ضم لذلك ماعن ابي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : **« لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم »** . بلغ المجموع قول ابن عباس : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة .

قال ابن جرير : فهذا الذي قلنا في قدر مدة ازمان الدنيا من مبدأ اولها الى منتهى آخرها ، من اثبت ما قيل في ذلك عندنا من القول للشواهد الدالة التي بنيناها على صحة ذلك اهـ .

قلت وأنت خبير بأن مبدأ الاستناد في ذلك على اخبار التوراة ، ومنتهاه الأحاديث الواهية التي ذكرها هو بنفسه وبيَّن ضعفها ، وأما الشواهد التي استشهد بها من الآثار الصحيحة فهي مجملة لا يعرف معناها ، انقلبت متشابهة ومتوغلة في الابهام بانتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي قالها ، فمن أين لنا الحكم بصحة تفسيرها وحملها على ما قام عندنا من الفكر السقيم .

أما الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل صاحب حماه ، فقد كاد يقترب في تاريخه من حقيقة ما قلنا من نزع ثقته بالتوراة وبالتواريخ القديمة لعدم رجوعها لأصل مضبوط ، حيث اعتمد على النسخة اليونانية وبرهن على فساد السامرية والعبرانية ، لكنه نهج منهج غيره من المؤرخين وخبط كما خبطوا في تقدير المدد والأعمار في متابعتها .

وسنورد لك من الآيات الدالة على تحريفها مافيه مقنع ان شاء الله تعالى .

**أولها ــ** قوله تعالى في سورة البقرة : **( ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون )** . نقوله تعالى : **( من بعد ما عقلوه )** يرد دعوى التحريف خطأ ويثبت التحريف العمد زيادة على كل تحريف .

**ثانيهـا** ـ قوله تعالى في سورة آل عمران : **( وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون )** .

اخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس ما نصه : قوله **( وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب )** وهم اليهود ، كانوا يزيدون في كتاب الله ما لم ينزل الله اهـ .

قال ابن جرير واصل اللي الفتل والقلب ، من قول القائل لوى فلان يد فلان ، اذا فتلها وقلبها ، ومنه قول الشاعر :

لوى يده الله الذي هو غالبه .

يقال منه لوى يده ولسانه يلوي لياً اهـ .

**ثالثها** ـ قوله تعالى في سورة النساء : **( من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه )** .

**رابعها** ـ في سورة المائدة قال تعالى : **( يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير )** .

**خامسها** ـ قال تعالى في سورة المائدة : **( يحرفون الكلم من بعد مواضعه )** .

فثبوت تحريفهم وكتمانهم ينفي غلبة الظن بصحته ، والانساب وان كان لا يدخلها النسخ لكن يدخلها التحريف أيضاً ، ونسبة موسى وان كانوا يعتنون بها لكن لا يعتنون بنسبة غيره ، وأيضاً فقدان التوراة من بين ايديهم كاف لنسيانهم لها . فان اليهود لم يكونوا منتشرين في أقطار الأرض كالمسلمين ، حتى اذا نابتهم نائبة في جهة ما بقيت الجهة الأخرى قائمة سالمة بغير مصيبة ولا أذى . انما كانت اليهود محصورين بجهات مصر وفلسطين فقط ، ثم في فلسطين خاصة ، ذلك لأن دينهم موقت عاقبته

التلاشي ، فلا فائدة في تعميمه . فلا جرم ان قصره الله على تلك الناحية ببني اسرائيل ، ثم سلط عليهم الفرس أولا وثانياً كما اشار تعالى اليه في سورة الاسراء بقوله تعالى :

**( وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ) .**

الى أن قال تعالى : **( فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً )**. وهي سادس آية تدل على المراد .

ففي أول مرة سلط الله عليهم بختنصر ، فخرج في ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطيء الشام وقتل بني اسرائيل حتى أفناهم ، وخرب بيت المقدس ، واختار منهم سبعين ألف صبي قسمهم بين الملوك الذين كانوا معه ، وفرّق من بقي من بني اسرائيل ثلاث فرق ، ثلثاً أقرهم بالشام ، وثلثاً سباهم ، وثلثاً قتلهم . وذهب بأثاث بيت المقدس وبالصبيان السبعين ألفاً حتى أقدمهم بابل ، فكانت هذه الوقعة الأولى المرادة بقوله تعالى : **( فاذا جاء وعد أولاهما )** . وقد ذهبت التوراة واحترقت ولم يبق لها أصل ولا خبر الى أن أهلك الله بختنصر ، ورد قسماً من الصبيان الذين أخذهم الى الشام ، فبنوا فيه وكثروا على أحسن ما كانوا ، وكان منهم العزير ، فقيل ان الله ألهمه التوراة حتى أعادها اليهم ، والله أعلم بصحة ذلك من فساده .

وأما الافساد الثاني فهو لما قتلوا يحيى عليه السلام ، وهموا بقتل عيسى فرفعه الله تعالى اليه ، وارسل لهم خردوش ملك الفرس فأفناهم أو كاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك راية .

وأنتقل الملك بالشام ونواحيها الى الروم واليونانيين ، الا أنّ بقايا بني اسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك ، وكانوا في نعمة الى ان بدّلوا وأحدثوا الاحداث ، فسلط الله عليهم ططوس بن اسبيانوس الرومي، فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبقي بيت المقدس خراباً الى خلافة عمر بن الخطاب حيث عمره المسلمون بأمره أهـ . مختصراً من الخازن .

ونحن اذا رجعنا الى كتب التاريخ نرى اجماعهم على وقوع ما أخبر الله في كتابه من هاتين الواقعتين في بني اسرائيل ، بل لم يقتصر الأمر عليهما ، ولكن التنصيص عليهما لما أنهما أزالتا ملك بني اسرائيل ولم تقم له بعدهما قائمة . والمؤرخون انما اختلفوا بعد ذلك في أسباب الوقائع ، وعلى يد من كانت ، وفي أيام من كانت ، شأن سائر الأخبار المروية ولم يرد قاطع في تفاصيل الأمر حتى نلجأ اليه ، مما يدل على طروء الخلل في التوراة التي هي أعز شيء لديهم ، ومحط نظر أعدائهم لمحاربتها واخفاء أثرها .

قال ابن جرير في تاريخه : فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده ، ثم رد الله لهم الكرة عليهم ، ثم كانت الوقعة الأخيرة خردوش وجنوده ، وهي كانت أعظم الوقعتين ، فيها كان خراب بلادهم ، وقتل رجالهم ، وسبي ذراريهم ونسائهم . يقول الله تعالى : **( وليتبروا ما علوا تتبيراً )** أهـ .

ثم بعد هاتين الوقعتين انتهى الملك من بني اسرائيل ، وبقي لهم بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك ، الى أن سلط الله عليهم ططوس بن اسفيانوس ملك رومية ، وذلك بعد ارتفاع عيسى بن مريم بنحو اربعين سنة كما قال ابن جرير ، فقتل من في مدينة بيت المقدس وسبى ذراريهم ، وامرهم فنسفت مدينة بيت المقدس حتى لم يترك بها حجر على حجر ، وهذا موافق لما لخصناه عن الخازن .

وقد ذكر ابن جرير اخباراً واختلافات شتى في غالب تلك الأحداث ، ولكن نبه ان ما يذكر من ان بختنصر هو الذي غزا بني اسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فهو غلط ، وذلك انهم أجمعوا على ان بختنصر انما غزا اسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا في عهد أرميا بن حلقيا ، وبين عهد أرميا وتخريب بختنصر بيت المقدس الى مولد يحيى بن زكريا اربعماية سنة واحدى وستون سنة في قول اليهود والنصارى ، ويذكرون ان ذلك عندهم في كتبهم وأسفارهم أهـ .

وحاصله ان تخريب بختنصر هو الأول ، وانه متقدم على زمن يحيى بأربعماية سنة ، وما يقال ان تخريب بختنصر هو بسبب يحيى عليه السلام فهو خطأ صريح .

والحاصل أن من تتبع سير الأمم في تواريخها لا يشك بحصول الكوارث التي أذهبت من بني اسرائيل ماعز وهان ، ولا زالت محن الله تتوالى عليهم بوعيد الله لهم مدى الزمان ، فانحصارهم كما كانوا ببقعتهم وعدم فشو دينهم ، ثم تتبع النصارى لهم يوجب غلبة الظن باندثار كتابهم وفقدان معالمهم .

نعم لا تخلو من شيء يغلب على الظن صحته كما ورد في الاصحاح العشرين من سفر الخروج ونصه : أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب الهك لاتقتل لا تزن لا تسرق لاتشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك أهـ .

وفي الاصحاح الحادي والعشرين منه : وان حصلت اذية تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلا برجل وكياً بكي وجرحاً بجرح ورضاً برض أهـ .

فهذا ما يقال فيه وكيف يحكمونك فيما شجر بينهم وعندهم التوراة فيها حكم الله .

**الآية السابعة** : مما يدل على التحريف قوله تعالى في سورة ابراهيم : **( ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ) .**

فحصر علمهم به سبحانه ، ونفيه عمن سواه صريح بكذب سائر من يدعي علمهم .

قال البيضاوي : والمعنى انهم لكثرتهم لا يعلم عددهم الا الله . ولذلك قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كذب النسابون . قال الشهاب لانهم يدعون علم الانساب ، وقد نفى الله علمها عن العباد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : بين عدنان واسماعيل عليه الصلاة والسلام ثلاثون أباً لا يعرفون . وفي الجامع اختلف في نسب النبي صلى الله عليه وسلم بعد اتفاقهم انه من ولد اسمعيل عليه الصلاة والسلام ، وانه من ولد معد بن عدنان ، وانما الاختلاف في الأسماء التي قبل عدنان ولا يكاد يصح لأحد من الرواة رواية ولا ضبط للأسماء أهـ .

— **الآية الثامنة** : قوله تعالى في سورة الانعام : **( قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس . تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ) .**

* * *

# في استعراض الظواهر الطبيعية وتطبيقها

على ما ذكرته التوراة ، وتبعها المؤرخون في تاريخ البشر
ومدة عمره هل يتصادقان أم يتنافران

؟

اعلم أنه يوجد في باطن الأرض آثار تكوينها ، ومن دقق النظر في مجموع طبقاتها استجلى أدوار تقلباتها ، وهذا ما يقال له علم الجيولوجيا ، وقد نشأ في الجيل التاسع عشر كما قاله بعض المتأخرين ، والصحيح ان هذا العلم قديم ولكنه توسع منذ هذا العصر حتى الآن ، وموضوعه كشف النقاب عن مسألة أصل الأرض وأصل مكانها ، فليس في هذا العلم موضع للافتراض بل تأتيك فيه الحوادث صاغرة فتبني عليها أبحاثك بعيدة عن كل شبهة وتخمين ، ولذلك لم أبال بما طرأ من النظريات بعد الاصول التي ذكرتها هنا ، لأن ما طرأ انما هو تفرعات جزئية واختلاف أسماء لا يلبث أن يتغير أيضا ، وتفرعات هذه الأبحاث يرجع فيها لكتب الاختصاص .

ان تاريخ الأرض ومكانها مسطر على صفحات طبقاتها وآثارها التي عثر عليها علماء الجيولوجيا والآثار ، وهذه أصدق من كل كتاب غير منزل وكل مؤلف،لأن المتكلم فيها لسان الطبيعة ذاتها، وليس مخيلة الانسان ونظرياته

المتقلبة ، فحيثما ترى آثاراً للنار أو الماء تحكم بوجود كل منهما ، واذا وجدت آثاراً للحيوان حكمت بوجود اقامته هناك ، كما قال بعضهم البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير .

ان الجيولوجيا علم مبني على البحث والنظر فلا تحكم الا بما ترى ، وما خرج من دائرة الحس تعرض فيه آراء تؤيدها أو تكذبها فيما بعد اكتشافات جديدة ، فلولا الايجادات الفلكية والجيولوجية لبقي تكوين العالم حتى اليوم يغشاه سحابات الجهل وخرافات المؤرخين وتلاعب واضعي الحكايات الاسرائيلية التي لا تستند على أساس متين . وبفضل هذين العلمين وقف الانسان اليوم على شيء من تاريخ مسكنه وبني جنسه، وانقضت عنه الأوهام الصبيانية التي رواها أصحاب الجهل والأضغاث .

في كل شق من الأرض وخصوصاً في مناجم الفحم الحجري نجد طبقات أرضية مرتبة يختلف سمكها من بضع سنتمترات الى مئة متر وأكثر ، وكل طبقة منفصلة عن الاخرى انفصالا حسياً ، والمادة في كل منهما تختلف اختلافا بيّناً عن الأخرى ، وهذا ما يؤيد ترتيبها وتعاقبها وتكوينها في ظروف وعلل شتى ، فالطبقات الأسفلية هي التي تكونت أولا ثم أعقبها ما فوقها ، والأخيرة منها هي الطبقة النباتية القائمة على السطح، وخواصها النباتية متأتية عن صولة المواد العضوية الناتجة من الحيوان والنبات ، أما الطبقات الأسفلية فيتألف بعضها من الرمال والصلصال والحصباء ، وبعضها من الصخور كالمرمر والطباشير وحجر الجص وحجر الرحى والفحم الحجري والحمر وما شاكلها ؛ ويستدل ذلك واضحاً من معاينة هذه الصخور أو الطبقات التي تكوّن بعضها بفعل النار والبعض بفعل الماء ، فالطبقات او الرسوبات المائية أفقية الوضع وانحراف بعضها أو انحداره

منأت عن انقلابات عامة او جزئية طرات عليهـا ، واهم ما في الطبقـات الأرضية من الشواهد الناطقـة الأحافير الحيوانية والنباتيـة ، فبعضها مطمور داخـل الصخور الأشـد صلابة مما يؤيد اسبقية هـذه العوامل الحيوانية والنباتية على تطور هاته الصخور ذاتها ، ومنها ما تشربت في كل أجزاء جوهرها مواد حيوانية فتحجرت دون تغير شكلها .

ويستدل من هـذه الآثار الصامتة الناطقـة على انواع من الحيوانات والنباتات انقرضت بتاتاً وانواع اخرى استبدلت بما جانسها مـع بعض تحسنات طرات عليها في الكم والكيف .

ومن استقصاء طبيعة الطبقات الجيولوجية يعلم جلياً أن كانت البقاع التي تكونت فيها قد تغشت بماء البحر أو النهر أو كانت غابة آهلة بحيوانات ارضية ، واذا وجد في بقعة واحدة طبقات مترادفة حوت أحافير بحرية او نهرية متكررة يعلم أن البحر أو النهر غشياها مراراً مع تعاقب اليابسة عليها . وكم اقتضى من الأجيال والدهور بل الآلاف من الدهور لتراكم هذه الطبقات فـوق بعضها ، أية قوة عظيمة صرفت لزوال الأبحر ورجوعها ، اية انقلابات وزعازع مريعة اقتضت للأرض أن تقاسيها قبل بلوغها الحالة التي نراها . منذ الأزمنة التاريخية لا يوجد تاريخ بشري يدل على حدوث شيء من هذه الزعازع المزعجات سوى هذه الآثار القطعية . لقـد حدث في اواخر عام ١٩٧٠م الموافق لعام ١٣٩٠هـ اعصار رهيب دمّر بلاداً مـن باكستان الشرقية وكاد يزيل معـالم الحيـاة عنهـا بسبب طغيان مياه البحر على جزر بكاملها مع سرعة رياح قدرت بـ ٢٥٠ كيلو مترا في الساعة مما أدى الى مقتل نحو مليون نسمة . وقد اعادت هذه الحادثة الى الأذهان مثيلاتها نشير من بينها الى الاعصار الصيني عام ١٥٥٦م حيث هلك فيـه ٨٥٠ الف نسمة ، وكارثـة سـان فرنسيسكو عـام ١٩٠٤ م التي ذهب

ضحيتها ٥٠ الف نسمة ، وهزة تشيلي الارضية عام ١٩٠٦م أهلكت ٢٠ الف نسمة ، وكارثة الهند عام ١٩٣٥ التي أودت بحياة ٦٠ الف نسمة ، وانخسافات وزلازل تركيا مع أول فصل الربيع من عام ١٩٤٩م في مقاطعة ازربيجــان التي ذهبت بنحــو ١٠٠ الف نسمة وخسف مئــة وخمسين قرية ، وزلازل اغادير بالمغرب عام ١٩٦٠م راح ضحيتها ١٢ ألف نسمة ، وزلازل البيرو المتكررة بألوف الضحايا . ومثل ذلك العديد على توالي السنين لا نزال نسمع به في بلاد اليابان وأمريكا وسائر أنحــاء المعمورة من طغيان ميــاه وتفجر براكين وانخسافات أرضية بما يجعل العالم يضج لهذه الحوادث الجزئية ، فلو كان التاريخ البشري الذي بأيدينا يدرك الزعازع الأرضية القديمة لرواها لنا بكل عناية وتفصيل ، ولكنها اما بليات ونكبات عامة لم تكن تبقي للبشر من أصل سوى من يدوم نسله وهو ذاهل مــع الهموم التي تنسيه تدوين ذلك ، أو أن يكون هــذا قبل الجنس البشري ، لا شيء يرجح لنا أحــد الأمرين الا الأخبار السماوية أو الآثار الأرضية . فأما الأخبار السماوية فتقدم شيء منها ويأتيك التفصيل قريباً .

وأما الآثار الأرضية فان العلماء يقسمون تاريخ تكوين الأرض الى ستة أعصر يقال لها الأعصر الجيولوجية .

الأول : العصر الأصلي . الثاني : العصر الانتقالي .
الثالث : العصر الثانوي . الرابع : العصر الثالثي .
الخامس : العصر الطوفاني . السادس : العصر اللاحق للطوفان أو الحــالي .

ويقال أيضــاً للطبقات التي تكونت في كل عصر : الطبقات الاصلية ، أو الانتقالية ، أو الثانوية والخ .. وعددها ست وعشرون طبقــة عامــة متمايزة . فالأحافير الحيوانية أو النباتية المطمورة داخل الصخور تــدل على وجود الحيوان والنبات بأشكال أخرى في تلك العصور .

قال عبيد الله الأياحي الروحي صاحب كتاب المذهب الروحاني : اجمع اليوم العلماء طراً ان الأرض تولدت كباقي السيارات من منطقة خط الاستواء الشمسي وتكاثفت مادتها فاصبحت كرة نارية اقتلعت من محورها وحول الشمس ، ومما يؤيد سائليتها الاصلية ووجود النار في جوفها تفرطح قطبيها وارتفاع الحرارة على قدر التوغل في باطنها والينابيع المعدنية الحارة والمواد النارية التي تقذفها البراكين وارتفاع الحرارة في كل ثلاثين متراً من العمق درجة واحدة . ويبلغ سمك قشرة الأرض مائة كيلو متر وهي كقشرة التفاحة ذاتها اهـ .

قلت وقوله اجمع العلماء اليوم الخ . . . جرى فيه على عادة المتساهلين بامر الاجماع الذين لا يعرفون شروطه وقيوده الضرورية واهلية من يعتد باجماعهم ، لأن هذا الاصطلاح منطقي بل اصولي واسلامي لضبط الاحكام الشرعية الدينية ، اما غير المتدينين فلا يعرفون لذلك شرطاً ولا يتقيدون باصل صحيح ، ولا ضير في ذلك فان الأمر يكاد يكون حقيقاً لأنه يدل عليه قوله تعالى : **( أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما )** . وقوله تعالى : **( ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين )** . فالمسلمون توصلوا لذلك بارشاد كتابهم واشارته ، وامثال علماء الطبيعة قاسوا المحن حتى وصلوا لما قالوه ، فلا يبقى لنا الا ان ندعوا لهم بتمام الاعتقاد جزاء تصديقهم وبيانهم ما اشار الله له في كتابه الكريم .

وحينما كانت الأرض كتلة نارية عرض لها ما يعرض لكل مادة ذائبة من برودة سطحها كجمرة نار عرضتها الهواء حيث ينطفىء خارجها ويبقى باطنها مشتعلاً ، وكان الهواء ممتداً بفعل الحرارة لبعد شاسع ، والمياه باسرها بحالة بخارية مختلطة بالهواء ، ومثلها جميع المواد الذائبة كالمعادن والكبريت والكربون وما شاكلها يتوع ان الجو كان يومئذ يمتص الكثافة

لا تخترقه اشعة الشمس . ومن ثم ابتدأ العصر الأصلي أو الأولي ، ومن حينها أخذت الارض تبرد وتكتسي قشرتها الصلبة وهو الحجر الصواني الشديد الصلابة . وهذه اول طبقة تكونت على سطح الأرض وتكون عليها ما بعدها . وما زال يحدث في الأرض قلوع وشقوق كبراكين عصرنا وتتبخر بعض المواد وتنزل مطراً فتشكل بحيرات وأنهاراً من الكبريت والحمر والحديد والنحاس والرصاص وتنساب في الشقوق الأرضية فتكون فيه العروق المعدنية المستخرجة اليوم ، ولا زال الدور الأول كذلك حتى بلغت قشرة الأرض درجة من البرودة كافية لقرار المياه على سطحها ، ولا يعلم كم دام هذا الدور الذي ليس فيه للنبات ولا للحيوان أثر ، ولكن قدر بعض علماء الطبيعة ومنهم الاستاذ بيل باستنادهم الى امتحانات عملية في الرسوب أن الارض مضى عليها نحو من ثلاثمائة مليون سنة منذ أخذت القشرة الأولى تجمد على سطحها .

اما العصر الانتقالي ففي بدئه لم تكن الطبقة الصوانية بلغت من السمك ما يقي الأرض عوارض الزعازع والزلازل والانشقاقات ، ولا زالت العصور تتوالى على الأرض وتترك طبقات وآثاراً حتى طرأ تغير فجائي على وضع محور الأرض وقطبيها فاندفعت على أثره الحياة على سطحها اندفاعاً عاماً ، وانقرض في العصر الطوفاني كثير من الحيوانات ولجأ بعضها تخلصاً من الفرق الى شقوق كهوف في أعالي الجبال فهلكت . وقد كشف العلماء كثيراً من تلك الكهوف الحاوية عظاماً عديدة من الوحوش الكواسر التي كانت قبل تلك الفاجعة ، وقد انقرضت أنواع من الحيوان عن بكرة أبيها . وفي هذا العصر اخذ القطبان يكتسيان الجليد مما يدل على تناقص عظيم في حرارة الأرض فجاءة وليس تدريجاً لأن علماء الجيولوجيا استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من — ماموث — كشفوها وسط الجليد

الشمالي فحكموا بحصول برد فجائي ، باغتهـا وقتلهـا قبـل ان تتمكن من الهجرة الى اقطار اخرى اكثر اعتدالا .

ولما استتبت السكينة على وجـه الارض بـدا العصر الحـالي وهـو العصر السادس ، وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاء وارسلت الشمس اشعتها المنعشة وذهب ما كان متكاثفا من الغيوم الهطالة فطابت النباتات وانس الحيوان وظهـر بعدها الانسان ، فمما لا شك فيه وجـود النبات والحيوان قبل وجود الانسان بيقين لتضافر الآثار الدالة على ذلك .

وهل كان الانسان موجوداً قبـل الطوفان ام لا ؟

انهم وجـدوا آثاراً تدل على ذلك ، وان الطوفان كان عامـاً ليكسب الأرض برودة ورسوباً مما كان في الامطار ليجعل القشرة صالحة للحيـاة البشرية وثخينة بحيث تقيهم الزعازع الارضية العامة .

قال عبيد الله الاباحي : انما الامر المحقق الـذي لا يشوبه ريب ان ظهوره ولو في العصر الحالي يستدعي الوفا عديدة من السنين قبل التاريخ المعين في التوراة ، وما الطوفان المذكور في التوراة الا الطوفان الاسيوي الحديث الذي تسبب عن ارتفاع قسم من الجبال بانقلابات ارضية ، ويؤيدون ذلك بوجود بحـر عظيم كان يمتد قديماً من البحـر الأسود الى الاوقيانوس الشمالي ، وما بحر الخزر والآزوف والبحيرات المالحـة العديدة المنتشرة في سهول التتار ومفاوز روسيا الا بقايا ذلك البحر القديم العرمرم ، وقد جـاء ذلك في تقاليد سائر الشعوب السـاكنين هاتيك البقاع ، وجاءت في اسفار الفيدا الهندية التي أثبت علماء التاريخ اقدمية اسفارها على اسفار التوراة اليهودية بآلاف السنين الى آخر ما قاله الإباحي المذكور في كتـابه المذهب الروحاني ، الذي أخذنا بعض نصوصه وان اختلفت اصطلاحات اسماء الادوار المارة حديثاً .

قلت فاذا كان الطوفان الاسيوي الـذي يسمونه حديثاً قبل التوراة بآلاف السنين ، فكيف يكون عمر البشر سبعة آلاف سنة ؟ نعم ليس في التوراة تحديد عمر البشر صراحة بتلك المدة ، ولكنه كالصريح من تسلسل ولادة آدم لابنه وانه عاش كـذا ثم ابنه ولد فلاناً وعاش كذا فبلغت تلك المـدة من عمر آدم والى الآن .

وما المانع اذن ان يكـون الطوفان المذكور بالقـرآن واقرت به الكتب السماوية عصره العصر الطوفاني الذي هو العصر الخامس ؟ وانما حكموا انه الطوفان الاسيوي الخاص بمجرد الظن ، ولا ارى لهم دليلا فنيـاً ولا نقليـاً يؤيده . على ان الطوفان الاسيوي الذي جاء بأسفار الفيدا الهندية التي كانت قبل التوراة بأكثر من عمر البشر المحسوب فيها ، يدل عـلى فساد ما جاء فيها من عمر البشر .

فاذن لا دليل يؤيد مزاعم من يحمل طوفان نوح على الطوفان الاسيوي الحديث والله أعـلم .

وجاء في كتاب عجائب المخلوقات لجرجي زيدان صحيفة ٢٣ ما نصه : وقد بحث علماء الجيولوجيا في طبقات الارض ، فوجدوا أن كثـافة كل ما وصلوا اليه من قشرة الارض المؤلفة بالرسوب المتقدم ذكره ( ١٣٠٠٠٠ ) قدماً وذلك يساوي ٢٥ ميلاً أي جزءاً من مئتي جزء من كثافة الارض بين مركزها وسطحها ، وقد قسموا الطبقة المؤلفة منها تلك القشرة الى مجاميع يشمل كل منها زمناً ، فكان عدد تلك الأزمان أربعة تعدّ من الأسفل الى الأعلى اي من الأقدم الى الأحدث ، فسموا الطبقات التي تكونت في الزمن الأول طبقات الزمن الاول ، وهي تقسم الى دورين ، ويقسم الدور الى مجاميع ، يعرف أقدمهـا بالطبقات اللورنتية وتبلغ كثافتها ( ٣٠٠٠٠ ) قدماً ، والطبقات الكمبرية وكثافتها (١٨٠٠٠) قدماً ، والطبقات السيلورية

وكثافتها ( ٢٢٠٠٠ ) قدماً ، ويقسم الدور الثاني الى ثلاثة مجاميع ، اقدمها الطبقات الديفونية او الحجر الرملي القديم ، ثم الطبقات الفحمية وفيها الفحم الحجري ، ثم الطبقات البرية أو الحجر الرملي الحديث ، وكثافة هذه المجاميع الثلاثة نحو ( ٤٢٠٠٠ ) قدماً .

وطبقات الزمن الثاني تتضمن الطبقات الترياسية والطبقات الجورية والطبقات الكلسية وكثافتها كلها ( ١٥٠٠٠ ) قدماً .

ويلي ذلك طبقات الزمن الثالث وكثافتها ( ٣٠٠٠ ) قدماً .

ثم طبقات الزمن الرابع وهو الأخير ولا يزال آخذاً في التكوين .

والظاهر أنهم لم يضيفوا كثافته الى مقدار كثافة القشرة . وقال في الصحيفة ( ٢٥ ) : وقد قدر الدكتور دوش معدل ما اقتضى لتكوين الطبقات الحجرية قال : ان كل قدم من الفحم الحجري يقتضي أن يكون مؤلفاً من خمسين جيلا من أجيال النبات . وفي بعض مناجم الفحم ما كثافته ( ١٢٠٠٠ ) قدماً من الفحم ، فقدر الاستاذ هكسلي الفيلسوف الانكليزي الشهير أن الطبقات الفحمية وحدها تكونت في مدة لا تقل عن ستة ملايين من السنين . وقال في الصحيفة ( ٢٦ ) : وقد قدر السير شارلس ليل الجيولوجي الشهير الأدوار الجيولوجية التي تكونت الطبقات الأرضية فيها فبلغت / ٢٠٠ / مليون سنة على الأقل أهـ .

وقد ذكر الشيخ طنطاوي جوهري في تفسير سورة الحديد أن علماء الفلك اليوم ظنوا أنه مضى من عمر الشمس حتى الآن خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفي مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها ثلاثمائة مليون سنة ، وأن عمر الانسان عليها نحو ثلاثمائة الف سنة . ويقولون ان الشمس ستبقى مدة تتراوح بين خمسين مليون سنة وخمسمائة مليون مليون سنة ، وأن شمساً من شموس الجوزاء أكبر من

ذلك بالنسبة لضوء شمسنا بخمسة وعشرين مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء الكوكب كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس .

ثم رايت في كتاب تقويم المنهاج القويم لحسن وقفي المطبوع سنة ١٣٤٥ هـ صفحة ١٩٣ ما نصه بالحرف معربة ملخصة من رسالة توتوني ترك نك جاره سي ص ١١ و ١٢ و ١٣ : ان الدنيا ـ الكرة الأرضية ـ قد مضى عليها أزمنة طويلة وصار انقلابات كثيرة ، وأن من الآثار العتيقة ومن المستحاثات القديمة والعلوم الطبيعية والتشكلات المخلوقية يستخرج أن للكرة الأرضية منذ كانت غازية ثم ناراً مائعة الى يومنا هذا! ما ينوف عن ثلاثمائة مليون سنة ، ويخمن عمر الحيوان والنبات الموجود عليها بمائة مليون سنة . وقد صادق على ذلك أكثر أرباب الفن ، وأن من مشاهير الطبيعيين هيكل قد ذهب الى أن عمر الأجسام ذوات الحياة منذ تشكلها الى يومنا هذا أربعمائة مليون سنة والمليون هو ألف ألف أهـ .

وعلى هذا فان هيكل زاد على غيره من الطبيعيين بالمدد التي لا يهم الاختلاف فيها بالزيادة والنقصان شأن النظريات العلمية والفنية ، وانما القصد اثبات الزيادة عما ذكرته التوراة من المدد بأدلة لا تحتمل الرد من نظريات أهل الفنون .

فاذا كان هذا ما يقوله أهل أوربا الذين يدينون للتوراة والانجيل أكثر منا ولكنهم يرجحون الحقائق الفنية على الأصول الدينية ، فما لنا نحن المسلمون نأخذ ترهات التوراة في كتبنا ونرويها سلفاً عن خلف كعقيدة تاريخية ويتناقلها المفسرون عنهم ويعتمدون عليها ، مع أن الأخبار الاسلامية لو أمعنا النظر بها لوجدناها على غاية من البعد منها وعلى غاية من الاتفاق مع ما يقوله علماء الفن .

وقد ذكر الشيخ الأكبر في فتوحاته كلاماً لا بأس من ذكره استئناساً

لما نحن فيه ، قال آخر الباب الثلاثمائة وتسعين ما نصه : ولقد أراني الحق تعالى فيما يراه النائم وانا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا اعرفهم بوجودهم ، فانشدوا بيتين ، ثبت عليّ البيت الواحد ومضى عني الآخر ، فكان الذي ثبت عليه من ذلك :

لقد طفنا كما طفتم سنينا بهذا البيت طرا اجميعا

وخرج عني البيت الأخير من ذلك فقال لي واحد منهم وتسمى لي باسم لا أعرف ذلك الاسم ، ثم قال لي : أنا من أجدادك .

قلت له : كم لك منذ مت .

فقال لي : بضع وأربعون ألف سنة .

فقلت له : فما لآدم هذا القدر من السنين .

فقال لي : عن أي آدم تقول عن هذا الأقرب اليك أو عن غيره .

فتذكرت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« ان الله خلق مائة ألف آدم »** . فقلت قد يكون ذلك الجد الذي نسبني اليه من أولئك والتاريخ في ذلك مجهول أهـ .

وقد حرر الشيخ قبل ذلك بالحساب الفلكي تاريخ اهرام مصر بما لا يضبطه التاريخ فارجع اليه ان أردت .

ومما يؤيد ما ذكرناه ما ورد في النشرة اليومية عن مكتب المعلومات والثقافة الاميركية عدد / ٢١ / السنة الثانية في دمشق ١ شباط ١٩٥٢ تحت عنوان : أعظم الاكتشافات العلمية خلال عام ١٩٥١ : واشنطن في ١ ـ خلال السنة الماضية قامت مئات البعثات العلمية بأبحاث واسعة النطاق ، واكتشفت معلومات جديدة في جهات معروفة من العالم ، وفيما يلي بعض الاكتشافات العلمية التي سجلت عام ١٩٥١ كما نشرت عنها الجمعية الجغرافية الوطنية .

ففي الأجزاء الشمالية من ايران رفعت الأنقاض عن جثث ثلاثة

أشخاص عاشوا في العصور الحجرية بعد أن كان سطح البناء الذي يضم هذه الجثث قد تساقط عليها قبل ٧٥٠٠٠ عام . ويقول العلماء ان هذه الجثث هي جثث أقدم بني الانسان التي اكتشفت حتى هذه الآونة .

ورفع المكتشفون في العراق الأنقاض عن مدينة يعود تاريخها الى ٧٠٠٠ عام وكانت تعرف باسم جارجو ، وهي كما ذكر المؤرخون أقدم قرية مسكونة وجدها علماء الآثار ، وقد عرف عمرها بمقاييس ذرية حساسة وجد العلماء انها مفيدة جداً في معرفة عمر المواد النباتية والحيوانية .

أما الذي نستدل به من كلامهم ،ونجعله كالأمر الثابت هو قدم الطوفان آلافاً من السنين على ما ذكرته التوراة من عمر البشر كله ، سواء قلنا عنه أنه الطوفان الحادث أم كان الطوفان الذي هو في العصر الخامس . ولكن هذا لا شك يرجع لملايين السنين الذي يشك فيه بوجود البشر ، وقد سبق أن ذكرنا في مقدمة البحث ما استدل به العلماء من آثار الأجسام الصحيحة للماموث المتجمدة وسط الجليد الشمالي . وكذا مناجم الفحم الحجري الدال على وجود الغابات بالأقطار الشمالية حيث لاشك فيه أيضا .

بقي ان الطوفان المذكور في الكتب السماوية هل هو الطوفان العام الكائن في العصر الطوفاني الخامس أم هو الطوفان الخاص بآسيا ؟

يقول علماء الجيولوجيا أنه هو الطوفان الخاص بآسيا ، للأدلة المارة التي فيها أن العصر الطوفاني انما كان ليكسب الأرض برودة تصلح لحياة جسم الانسان الضعيف . وقد جاء ذكر الطوفان في أسفار الفيدا الهندية والتوراة اليهودية والقرآن العظيم . فما المانع أن يكون المراد بالطوفان الوارد في الكتب السماوية هو العام ، بما أن الأدلة النقلية تساعده أكثر

والعقلية لا تنافيه . واذا كان الجيولوجيون لا يهتمون بآدم ونوح ، وانما يجمدون على ما يجدون من الآثار ، فهل من الضروري ان نقف حيث وقفوا ؟ كلا ثم كلا ، وانما نبحث بتحفظ واحتراس كي نوفق بين الكلامين كلام الله تعالى وكلامهم . هذا وحيث ثبت وجود آثار للانسان قبل العصر الطوفاني كما مر ونقله الاباحي في كتابه أيضا ، فما المانع اذاً أن يكون هو طوفان نوح الأب الثاني للبشر ؟ اللهم الا ما ذكرته التوراة من عمر البشر القصير الذي ثبت ولا شك كذبه وكذب من حرفها ، وأن كلام الله أجل وأعلى من ذلك فالبشر اذاً قديم وقديم . وعلى فرض ان طوفان نوح هو الثاني الاسيوي الحديث ، فحيث جاء ذكره في أسفار الڤيدا الهندية التي هي قبل التوراة بأكثر من مدة العالم التي ذكرتها التوراة المحرفة ، تكون بهذا قد وصلنا لفرضنا وهو اثبات تلفيقها وعدم صحتها .

اما الأخبار الاسلامية التي تؤيد ان العصر الطوفاني الخامس هو عصر نوح فهي آيات وأحاديث غير قطعية في المراد ، لكن لا تخلو من دليل لمن يستأنس بها . قال الله تعالى حكاية عن دعاء نوح عليه السلام : **( رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً )** . وقد أجاب الله دعاء هذا النبي الكريم . اما احتمال أن المراد بالأرض آسيا فقط فيحتاج لدليل او انه كان مرسلاً لقوم خاص فيحتاج لدليل آخر . بل كلام المفسرين يدل على عموم رسالته لأهل الأرض . وأحتمال أن جميع أهل الأرض مؤمنون فيكونون من الناجين ولا يصيبهم الغرق ما عدا جماعة نوح عليه السلام فيحتاج لدليل آخر . وايضاً اذا قلنا ان الطوفان خاص فما الحكمة في قوله تعالى : **( قلنا اسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل )** . فلو لم يكن الطوفان عاماً لما احتيج الى حمل اثنين من كل زوجين ، وايضاً تضافر اقوال المؤرخين أن نوحاً الأب الثاني للبشر

كما تقدم عن ابن خلدون . وايضا اخبار الكتب السابقة في انحصار البشر باولاد نوح فقط ، ولم نرهم ذكروا نسلاً او ذرية لاحد سواه .

كل ذلك يدل على انقراض البشر عموماً من كل الدنيا وانحصاره في نوح ومن معه ، فلو لم يكن الطوفان عاماً لانتقض كل ما اتيناك به من الدلائل .

اما التوراة فهي صريحة بعموم الطوفان واليك نص المراد من سفر التكوين الاصحاح السادس : فها انا آت بطوفان الماء على الأرض لاهلك كل جسد فيه روح حيوة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت ولكن اقيم عهدي معك . فتدخل الفلك انت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وانثى من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل أليك لاستبقائها اه . ومثله في الاصحاح السابع الذي بعده ، فهذا صريح بعموم الطوفان المؤيد بظواهر من القرآن العظيم والله أعلم .

ومن الآيات الدالة على جهالة التاريخ أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين بعد قصة نوح : ( **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ) . ثم قال تعالى : ( **ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستاخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ثم أرسلنا موسى** ) . فقوله تعالى بعد نوح قرناً ، ثم قوله قروناً ، ثم ارسال الرسل تترى وكلهم بين نوح وموسى ، ليس هذا بأعداد قليلة مع تطاول أعمار تلك الأمم . فهل يعقل ان يكون من موسى حتى الآن ثلاثة آلاف سنة ، ومنه الى آدم الذي هو قبل نوح اربعة آلاف سنة . ان هذا لمن التقدير المضحك . ولقد

رايت بأم عيني من الآثار القديمة في تجولي بأنحـاء المعمورة آثاراً انسانية في روسيا والصين ويوغوسلافيا ما يرجع عهـده الى عشرين الف سنة ، فقلت للعالم بالآثار الموكل عليها ، ما تقول بتقدير التوراة في عمر البشر انه سبعة آلاف سنة ؟ فقال : انا اخاطبك بلسان الفن لا بلسان الدين . ولم يستطع الجواب بأكثر من ذلك .

على أن الحوادث الكونيـة والبشرية التي نراها في عصورنا لا تبعـد انطماس آثـار التاريخ السابق بمثلها ، وقـد رأينا في حرب ١٩١٤ التي دامت أربع سنين بين أكثر سكان الأرض ما كاد يقضي على كثير من الآثار البشرية ، ولو دام أكثر لذهب بأكثر مدنية العالم التي كان يجب تجديدها ، ولو جددت لظن أنها اختراع وابتداع لا على مثال سبق ، وانما هي بعض مما كان . وكذلك الحرب العالمية الاخيرة التي بدات سنة ١٩٣٩ وانتهت سنة ١٩٤٥ أرتنا من عجائب اختراعها من أنواع التدمير ما أدهش العـالم بأسره ، من ذلك ما يسمونه القنبلة الذرية التي اكتشفها الألمان وكانوا على وشك استعمالها لو لم تعاجلهم الدحرة والانكسار قبل أن تهيأ للاستعمال ، فعثر الانكليز والامريكان على شيء منهـا فضربوا بهـا أعداءهم اليـابان بمقاطعة هيروشيما فأفنوا كل من كان بتلك المقاطعة من ذي روح ونبـات ، وكانت هي سبب ظفرهم واندحار أعدائهم . ثم جددوا وطوروا بها الى أن وصل بهم الاختراع لأعلى قوة الذرة التي تهدد البشرية بالفناء والعياذ بالله اذا استعملت في الحروب ، كما ان المنافـع الناتجة عنهـا لا تحصى اذا استعملت لخير البشرية ، ولا زال علماء الفن يجدون في البحث عن الذرة حتى سرت معرفتها لأكثر دول العالم الكبار والله أعلم بحقيقة المآل .

فالكوارث البشرية اذن قد تكون عاملاً في تهديم أركان العمران وانقطاع التاريخ الذي لا يعلم من بعدها ما كان قبلها الا من الآثار الصامتة الناطقة .

انظر حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم واحمد في مسنده والطبراني وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم : « **خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً** » . وفي آخر الحديث : « **فلم تزل الخلق تنقص بعده** » . حتى الآن . مما يدل دلالة صريحة على تكيف ونقص في الأجسام بحسب تكيف الكرة التي تعيش عليها هذه الأجسام ، لأن الحالة الأرضية يومئذ لم تكن لتطيقها الاجسام الحالية ، وان الارض كانت بحالة يقتضى لاعمارها وقت طويل مديد يقتضي ايضاً اعماراً مديدة ، ولم تكن كالآن يجد المرء من حين ولادته أسباب الراحة والهناء ، ويجد صلاح الأرض لكل ما تعورف استنباته واستخراجه منها حسب الأقاليم . وصغر الأجسام من ستين ذراعاً بذراع آدم نفسه كما رجحه المناوي في شرح الجامع الصغير الى أربعة أذرع بذراعنا ، لا يكون الا بآلاف السنين وتعاقب القرون والأدوار ، مما يدل على قدم الانسان بلا اشكال . كيف وقد دلت الآية القرآنية على ذلك في وصف قوم عاد مع بُعد عهدهم من آدم بما لا يعلمه الا الله حيث قال تعالى : ( **كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية** ). واني لأعجب مما ذكره العلامة المناوي عن ابن حجر قال : قال ابن حجر : يشكل عليّ هذا ما يوجد من آثار الأمم السابقة كديار ثمود، فان مساكنهم تدل على أن قاماتهم لم تكن مفرطة الطول على حسب ما يقتضيه الترتيب المار ، وعهدهم قديم والزمان الذي بينهم وبين آدم دون ما بينهم وبين أولاد هذه الأمة ، ولم يظهر لي الى الآن ما يزيل هذا الاشكال أهـ . والذي يدعو لعجبي أنه هل أتى دليل قاطع أن ما بينهم وبين آدم دون ما بينهم وبين هذه الأمة ؟ وهل من دليل قاطع أو ظني في تعيين تلك المدد حتى يستشكلها ؟ وما لفق واضعوا التوراة الا لطمس الفن والعلم والحقائق ، ومعارضة مثل هذا الحديث الصريح وغيره من آيات الاعجاز التي تلوناها ، والآثار الجيولوجية . وفي كتاب نوادر الاصول للترمذي ما نصه : فان القرون الماضية كانت أعمارهم وأجسادهم على

الضعف ، كان أحدهم يعمّر الف سنة ، وجسمه ثمانون باعاً بالباع الاول، والحبة من القمح مثل كلوة البقرة ، والرمانة الواحدة يجتمع عليها عشرة نفر ، والعنقود مثله ، فكان ما يتناولونه من هذه الدنيا بهذه الصفة على مثل تلك الأجساد في مثل تلك الأعمار اهـ .

اقول وأن ما نراه من ضخامة الآثار القديمة ، كقلعة بعلبك وضخامة بنيانها وارتفاع سقوفها ومهارة بنائها ، ثم ما نراه في بلاد اخرى من المقاعد التي تشبه الكراسي فانه من حجر واحد واسع المقعد كما هو موجود في المتاحف يدل دلالـة صريحة على ذلك ، لأن أهـل كـل عصر يبنون على حسبهم، وما نراه في عصرنا على حسبنا ، وضعف بنيانه كضعف أجسامنا، وسوف لا تستقيم آثارنا الا مدد أعمارنا . وأني رايت في الحمة ذات المـاء الساخن كراسي من حجـر قديمة الأثر لا يحمل أحدها الا العصبة أولو القوة ، والكراسي التي نعملها الآن من خشب أو قش أو كتان . فانظـر الفرق الواضح تعلم صحة المدعى ، والله يرث الأرض ومن عليهـا واليه ترجعون . ولقد ذرعت بنفسي ثلاثة أحجار مما بني عليها حائط قلعة بعلبك الغربي ، فوجدت طول كل حجر سبعة وعشرين متراً وثخنه عشرة أمتار وسمكه عشرة أمتار وهو موجود حتى كتابة هذه السطور .

وبهـذا نكون قد أتينا على كثير من الحقائق بهـذا البحث الاجمالي والأغاليط التي داخلته .

* * *

# في ذكر شيئ من صلابة عثمان ومآثره وورعه في دينه رضي الله عنه

لم يستقم أمر الاسلام غضاً طرياً محضاً الا زمن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وزمن الخليفتين بعده أبي بكر وعمر ثم بدا نقصه بوفاته صلى الله عليه وسلم مصداقاً لما ورد انه لما نزل قوله تعالى : **( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي )** بكى عمر رضي الله عنه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : **(( ما يبكيك ))** . قال : اما انه ما تم شيء الا بدا نقصه . فصدقه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك .

فبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ظهرت الردة وصار القتال ، وبوفاة عمر انكسر الباب الذي كان بين المسلمين وبين الفتن التي لم يعد يصلح معها للخلافة من كان على سيرة العمرين كعثمان وعلي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم .

وانما يصلح لها مثل معاوية رضي الله عنه وابنه يزيد رحمه الله وبقية ملوك بني أمية وبني العباس ، لما اتصفوا به من الحلم واللين

والعفو عن الناس والاغضاء عن بعض الأمور مجاراة للوقت ، مما لو كان ابو بكر وعمر حيين لتركا الخلافة من اجلها . فأتى علي وعبد الله بن الزبير على نهج العمرين ، فلم يستقم لهما الأمر .

وقد نقل صاحب السيرة الحلبية عن السبط ابن الجوزي أن ابن الزبير لما قال لعثمان رضي الله عنه وهو محاصر : ان عندي نجائب اعددتها لك ، فهل لك أن تنجو الى مكة فانهم لا يستحلونك بها . قال له عثمان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **يلحد رجل في الحرم من قريش او بمكة عليه نصف عذاب العالم** )) فلن اكون انا اهـ .

فهل يبقى خليفة محاصراً بين من يريد قتله ويمكنه النجاة ولا ينجو لمجرد ورع منه رضي الله عنه الا من كان على سيرة العمرين ، فمثل هؤلاء لا يستقيم لهم الأمر في ذلك الزمان الذي دخل الناس فيه في الفتن ، وهلا كان ينبغي له النجاة والاحتراس مهما أمكن .

وقد نقل هذه الحكاية السيوطي عن المغيرة بن شعبة قال : أخرج أحمد عن المغيرة بن شعبة أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال : انك امام العامة ، وقد نزل بك ما ترى ، واني أعرض عليك خصالا ثلاثاً اختر احداهن : اما أن تخرج فتقاتلهم فان معك عدداً وقوة وأنت على حق وهم على باطل . واما أن تخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على راحلتك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وانت بها . واما أن تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : اما أن أخرج الى مكة فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم** )) فلن أكون أنا . وأما أن الحق بالشام ، فلن افارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ .

فكيف يصلح للخلافة من هكذا حاله من الصلابة في الدين رضي الله عنه . أم كيف يصدق ما نسب اليه من الافتراء الذي كان يقسم بالله انه ماعنده خبر بهذا ولم يأمر به ومعاذ الله ان يقسم أيماناً كاذبة، ثم يبقى صابراً الى أن يلقى ربه شهيداً رضي الله عنه وارضاه وذلك في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكان له يوم قتل اثنتان وثمانون سنة .

وقد أخرج ابن عساكر عن عبدالرحمن بن مهدي قال : خصلتان لعثمان ليستا لأبي بكر ولا لعمر رضي الله عنهم ، صبره على نفسه حتى قُتِل ، وجمعه الناس على مصحف . ذكره السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء . قلت : اما ابو بكر رضي الله عنه فجمع القرآن على القراءات التي انزلت كلها ، ولم يجمع الناس على مصحف واحد حتى كان عثمان الذي ازال هذا الاختلاف من بين المسلمين رضي الله عنه وارضاه .

ونحن نعرض عن ذكر الاسباب الداعية لتألب الناس عليه لأنه بعيد عن غرضنا بهذا الكتاب ، ونذكر بعض مآثره مجملة :

فمنها حديث الصحيحين والترمذي الذي امر النبي صلى الله عليه وسلم به أبا موسى أن يبشر أبا بكر وعمر وعثمان بالجنة .

ومنها حديث البخاري وأبي داود والترمذي عن ابن عمر قال : كنّا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا تفاضل بينهم . ومنها ماوراه عنه أبو داود والطبراني نحوه وزاد فيسمع النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره .

ومنها ما رواه الخمسة الا مسلماً عن انس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم ، فقال : (( **اثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيدان** )) .

ومنها ما رواه البخاري واحمد والترمذي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (( **من يحفر بئر رومه فله الجنــة** )) . فحفرها عثمان . (( **ومن جهز جيش العسرة فله الجنة** )) . فجهزه عثمان .

ومنها حديث مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعاً في بيتي ، كاشفاً عن فخذيه او ساقيه ، فاستأذن ابو بكر فأذن له وهو على تلك الحال ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوى ثيابه . فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تبـالـه ، ثم دخـل عمر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخـل عثمان فجلست وسويت ثيابك . فقال : (( **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** )) .

ومنها ما رواه الترمذي بسند صحيح عن مرة بن كعب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكـر الفتن وقربها ، فمر رجل مقنع في ثوب ، فقال : (( **هذا يومئذ على الهدى** )) فقمت اليه فاذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت بوجهه على النبي صلى الله عليــه وسلم فقلت : هــذا . قال (( **نعــم** )) .

ومنها ما رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي سهلة رضي الله عنـــه قال : قال عثمان يوم الدار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهـد الي عهداً ، فأنا صابر عليه . كله من التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصيف ، وذكر غيرها من أحاديث عثمان رضي الله عنه مع محاصريه يوم الدار وتذكيرهم بما خصه به رسول الله صلي الله عليه وسلم مما هـو مشهور من مناقبه .

* * *

# في ذكر شيء من سياسة معاوية وصلابة علي في دينه
# رضي الله عنهما

من ذلك ما يتناقله المؤرخون مـن الطعن في بني أميـة من أولهم الى آخرهم حتى لم يتركوا أحـداً من ملوكهم الا ثلبوه بافتراءات يتنزه عنهـا سوقة الناس وأراذلهم .

وما ذلك الا من وضع أرباب الأغراض والبدع أعداء العرب والاسلام والانسانية ، فاذا نظر اليها المعتدل الخالي القلب افتتن بها وحملها عـلى محمل الصدق فيتشرب له كره وبغض أولئك الأسلاف الطاهرين لخلو ذهنه عن حب أو بغض لهم ، فتصادف هذه الأخبار قلبـاً خالياً فتتمكن فيـه وتشيع بين الناس ، مع عـدم معرفة السامع والناقل لشروط الحـديث والأخبار التي نوهنا عنها بما فيه الكفاية كمقدمة لهـذه الأبحاث التي اذا راعينا فيها ما اعتمده المحدثون في تلك الأصول لما صح عشر معشارها أو ذهبت كلها أدراج الرياح ، وان هذه الأكاذيب ليست مما لا يلقي لهـا المرء بالاً أن تنقل كيفما نقلت ، بل ينبغي ارتياد الصحيح منها من الفاسد .

من ذلك ما يثلبون به معاوية رضي الله عنه وبني أمية ويطعنونهم به من بغض علي وتعداد نقائصه وسبه ولعنه على المنبر . واني اشهد ان هذا كذب وافتراء عليهم لما لعلي رضي الله عنه وكرم الله وجهه من القرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتشرف بسيدة نساء العالمين ، وكونه باب مدينة العلم ، وذا السابقة في الاسلام الذي لم تسجد جبهته لغير خالقه منذ خلقه الله تعالى مما لا يجهله امثالنا الطلبة في آخر الزمان ، فكيف بمثل معاوية الذي يعرف هذا حق المعرفة وشاهده بعين البصر والبصيرة ، وقد نال من شرف صحبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ما زكت به نفسه وعلت مرتبته أن ينتقص من علي بن أبي طالب أو يقول فيه .

وقد ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في باب مزدوج الكلام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاوية رضي الله عنه : اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب . وحسبه هذا الدعاء إن صح السند .

ثم انظر ما ذكره ابن حجر الهيتمي في أول كتابه الزواجر ونصه :

قال معاوية ابن أبي سفيان لضرار : صف لي علياً . قال : ألا تعفيني . قال : بل صفه . قال : أولا تعفيني . قال : لا أعفيك . قال أما إذ أنه لا بد فانه كان بعيد المدى أي واسع العلوم والمعارف لا تدرك غايته فيهما ، شديد القوى أي في ذات الله ونصرة دينه ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه أي تأسفاً وحزناً إذ هذا فعل المتأسف الحزين ، ويخاطب نفسه أي بالمزعجات والمقلقات ، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما حضر ، كان والله كأحدنا ، يجيبنا اذا سألناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع تقربه لنا وقربه منا لا نكلمه

هيبة له ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، ولا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، واشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه وقد ارخى الليل ستوره وغارت نجومه وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم أي اللديغ ويبكي بكاء الحزين وكأني اسمعه يقول يا ربنا يا ربنا يتضرع اليه ، ثم يقول يا دنيا يا دنيا الي تعرضت أم بي تشوقت هيهات هيهات غري غيري ، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . فذرفت عيون معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء .

قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار . قال : حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها . وبكى ابن عباس رضي الله عنهما حتى صار كأنه الشن البالي وبكى تلميذه سعيد بن جبير حتى عمشت عيناه اهـ .

وفي حاشية الأمير على المغني لابن هشام في حرف الهاء قال هشام: ان عقيلا قدم على أخيه بالعراق فسأله ، فقال : ما أعطيك شيئاً . فقال : اني فقير ومحتاج . فقال : اصبر حتى يخرج عطائي من المسلمين وأعطيك . فألح عليه . فقال علي لرجل : خذ بيده وانطلق به الى الحوانيت ، فافتح أقفالها وخذ ما فيها . فقال عقيل : أنت أردت أن تجعلني سارقاً . فقال علي : أنت أردتني آخذ أموال المسلمين وأعطيك اياها . فقال عقيل : لأذهبن الى رجل هو أولى بي منك ، يعني معاوية . فقال : أنت وذاك . فذهب الى معاوية فأعطاه مائة الف درهم . وقال : اصعد المنبر واذكر ما أولاك علي وما أوليتك . فصعد المنبر وقال : أيها الناس اني اخبركم اني أردت علياً على دينه فاختار دينه علي ، واني أردت معاوية على دينه فاختارني على دينه. فقال معاوية : هذا الذي تزعم قريش انه أحمق وأيما أعقل منه اهـ .

وذكر الأمير ترجمته وقال : عقيل بفتح المهملة شقيق علي ، قال ابن عبد البر قدم المدينة مهاجراً قبل الحديبية ، وقال هشام أسلم سنة ثمان من الهجرة وتوفي سنة خمسين وكان أسرع الناس جواباً فنسبوه الى الحماقة اهـ .

فانظر حلم معاوية واتباعه للحق ، كيف وصف عقيلاً بالعقل مع انه طعن فيه ومدح أخاه رضي الله عن الجميع .

فهذه كانت مجالسه وثناؤه على خصمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وانما حمله على التحيل لبقائه في امارة الشام علمه بمكانة الروم الذين أبلى معاوية وأخوه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما البلاء الحسن في محاربتهم واجلائهم عن بلاد الشام وتثبيت دعائم الاسلام بها ، وتيقنه أن غيره كائناً من كان لا يقوم بما يقوم به رضي الله عنه ، مع علمه بصلابة دين خصمه وتغير الزمن . ولم تحدثه نفسه بالخلافة في زمن علي ، ولم يطمح بها ، فأداه اجتهاده الى تمسكه بالأمارة فيها لصد عادية الروم الذي هو واجب في حق مثله العارفين كيفية دفعهم ورد كيدهم لاسترداد ملكهم الزائل وخذلانهم المتوالي على يده ويد أمثاله ، حتى صارت بلاد الشام دار الإسلام والعروبة عاصمة الملك الى هذه الأيام .

والقول الفصل في ذلك ما ذكره ابن خلدون في مقدمة تاريخه في فصل خاص في انقلاب الخلافة الى الملك قال :

ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه الى الشام في ابهة الملك وزيه من العديد والعدة ، استنكر ذلك وقال : أكسروية يا معاوية . فقال : يا امير المؤمنين وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة . فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين ، فلو كان القصد رفضَ الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب في

تلك الكسروية وانتحالها ، بل كان يحرص على خروجه عنها بالجملة ، وانما اراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله فأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصد بها وجه الله فسكت ، وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً عن التباسها بالباطل اهـ . ما قاله ابن خلدون رحمه الله .

ومما يدل على اخلاصه وقصده هذه الحقيقة ما نقله صاحب القاموس واتمه شارحه ، لما طمع ملك الروم بخلاف علي ومعاوية أن يمد معاوية عليه بوقعة صفين حيث أجابه بذلك الجواب الخشن بقوله : لئن تممت على ما بلغني من عزمك ، لأصالحن صاحبي ، ولأكونن مقدمته اليك ، ولأجعلن القسطنطينية البخراء حممة سوداء ، ولأنتزعنك من الملك انتزاع الأصطفلينة ، ولأردنَّك أريساً من الأرارسه ترعى الدوبل . والدوبل الخنزير ، والأريس الأكَّار ، والاصطفلينة الجزر الذي يؤكل ، وصفين كسجين موضع قرب الرقة بشاطىء الفرات كانت فيه الوقعة العظمى بين علي ومعاوية غرة صفر سنة ٣٧ ، فمن ثم احترز الناس السفر في صفر . انظر القاموس وشرحه .

واذا قرأت تواريخ الاسلام ، وما دار بين علي والمغيرة وابن عباس رضي الله عنهم ، تعلم مدى تمسك علي بالحق الصراح وعدم اتباعه السياسة التي لا يمكن تمشي الأمور بدونها ، ولعلمت صحة اجتهاد معاوية بتمسكه بمركزه خوفاً من سياسة علي الصلبة التي لا تناسب ذلك الزمن . فقد روي أن المغيرة خلي بعلي حين افضت الخلافة اليه قال : ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الراي اليوم تحرز به ما في غد ، وان ضياع اليوم ليضيع به ما في غد ، اقرر معاوية على عمله ، واقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على عملهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت

او تركت . قال : حتى انظر . فخرج من عنده وعاد اليه من الغد . فقال : اني اشرت عليك بالأمس براي ، وان الراي ان تعاجلهم بالنزوع ، فيعرف السامع من غيره ، ويستقبل امرك . ثم خرج وتلقاه ابن عباس خارجاً فلما انتهى الى علي قال : رايت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك . قال : جاءني امس بذيه وذيه ، وجاءني اليوم بذيه وذيه . فقال : اما أمس فقد نصحك ، واما اليوم فقد غشك . وقال المغيرة : نصحته والله ، فلما لم يقبل غششته ، وخرج المغيرة حتى لحق بمكة .

وفي خبر آخر قال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن شأن المغيرة ولِمَ خلا بك . قال : جاءني بعد مقتل عثمان بيومين ، فقال لي اخلني ففعلت ، فقال : ان النصح رخيص وانت بقية الناس ، واني لك ناصح ، واني أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب اليهم باثباتهم على أعمالهم ، فاذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك عزلت من أحببت وأقررت من احببت . فقلت والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الدني في أمري . قال : فان كنت قد أبيت عليّ فانزع من شئت ، واترك معاوية فان لمعاوية جراة وهو في أهل الشام يسمع منه ، ولك حجة في اثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام مكرماً ، فقلت لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . فخرج من عندي ثم عاد اليّ فقال لي : اني أشرت عليك بما أشرت به فأبيت عليّ ثم نظرت في الأمر فاذا أنت مصيب لا ينبغي لك أن تأخذ أمرك بخدعة ، ولا يكون في أمرك ذلة . فقال ابن عباس : فقلت لعلي أما أول ما أشار به عليك فقد نصحك ، وأما الآخر فقد غشك ، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله . قال علي : لا والله لا أعطيه الا السيف . قال ثم تمثل بهذا البيت .

ما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها

فقلت : يا امير المؤمنين انت رجل شجاع لست بارب بالحرب ، اما

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **الحرب خدعة** )) فقال علي : بلى . فقال ابن عباس : اما والله لئن اطعتني لاصدرن بهم بعد ورد ، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك . فقال : يا ابن عباس لست من هنياتك وهنيات معاوية في شيء ، تشير علي وارى ، فاذا عصيتك فاطعني . قال فقلت : افعل ، ان ايسر ما لك عندي الطاعة . ذكر ذلك وتفصيله ابن جرير في وقائع سنة ٣٥ ، وسأشير الى شيء منها في فصل سبب تفرق المسلمين .

ثم لا زال علي رضي الله عنه بهذا التشدد الى ان حصل ما حصل ، وعلى غراره وسيرته ابنه الحسين رضي الله عنه أيضاً ، فقد ذكر ابن جرير ايضا في وقائع سنة ٦٠ : أن حسيناً لما أجمع المسير الى الكوفة ، أتاه عبد الله بن عباس فقال : يا ابن عم ، قد أرجف الناس انك سائر الى العراق ، فبيّن لي ما أنت صانع . قال : اني قد أجمعت المسير في احد يومي هذين ان شاء الله تعالى فقال له ابن عباس : فاني اعيذك بالله من ذلك ، أخبرني رحمك الله ، أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ، فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وان يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك . فقال حسين : واني أستخير الله وأنظر ماذا يكون .

ولما كان بالحجاز بمكة قال له ابن الزبير : ان شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك ، فقال له الحسين : ان أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها ، فما احب أن أكون أنا ذلك الكبش . فقال له ابن الزبير : فأقم ان شئت وتوليني أنا الأمر ، فتطاع ولا تعصى . فقال : وما اريد هذا أيضاً .

وقال له أيضاً : يا ابن فاطمة ، فأصغى اليه ، فساره ، قال : ثم التفت الينا الحسين فقال : أتدرون ما يقول ابن الزبير . فقلنا : لا ندري جعلنا الله فداك : قال : أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس ، ثم قال الحسين : والله لأن أقتل خارجاً منها بشبر أحب اليّ من أن أقتل داخلاً منها بشبر ، وايم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم ، ووالله ليعتدن كما اعتدت اليهود في السبت . ذكره ابن جرير الطبري بتاريخه في وقائع سنة ٦٠ .

وهكذا كان يتوالى النصح على علي وابنه الحسين ، والتحذير لهما ممن يكيد لهما وما عما عما يراد بهما بقيبين ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً - وسيأتي الالماع الى ذلك بمناسبة أخرى ان شاء الله تعالى - مما يدل على تصلبهما بالرأي الذي لا يناسب زمنهما ولا وقتهما ، حتى قضى الله بحتفيهما على يد أشقى خلقه . فقد صادف أن أتى أشقى الخليقة ابن ملجم ، واوقع بخير البشر بعد الرسل ما أوقع ، ثم أتى من هو أخبث منه ، فأوقع بالحسين ما أوقع . وكان من الأمر بعد مقتل علي رضي الله عنه أن أتى الحسن فسلم الأمر لمعاوية ، وصلى خلفه ، وأصلح الله به بين فئتين من المسلمين تصديقاً لكلام جده سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وانظر الى ورع علي وزهده وتطليقه للدنيا واعراضه عنها وحرصه على حقن دماء المسلمين الى غير ذلك مما اتصف به من صفات التواضع لله عز وجلّ ، لم يحمله كل ذلك على ترك اجتهاده أنه أحق بالأمر من كل من عداه ، ولم يحمله كل ذلك على ترك معاوية وما يريد من قتلة عثمان ، بل كان يقول : تعالوا تحاكموا اليّ فمن دانه الشرع دنته . ومعاوية وأصحابه يقولون : ادفعوا لنا قتلته . فلو أن علياً رضي الله عنه خلّى بينهم وبين من اشتبهوا بكونه قاتلاً لانتهت حجتهم ، لكن أبى الا المضي

في الدفاع عن اجتهاده الحق ، بأن يتحاكموا لديه مع المتهمين بقتله ، مع عدم قدرته على الايقاع بالجناة بدون حجة صريحة يتخذها سيفاً في وجه من يلوذ بعصبيتهم ، كما صرح بذلك في بعض خطبه رضي الله عنه ، فانهم كانوا ذوي قوة وشوكة وعصبية ، وكانوا يذكون نيران الفتنة كلما قربت ان تنتهي كي لا يدينهم أحد أخزاهم الله .

فكذا معاوية أبى الا المضي في امارته مشياً مع اجتهاده في تمكنه دون غيره من دفع أعداء الاسلام وتقوية عضده في بلاد الشام وكثرة اهله وأتباعه مما لا يمكن ذلك لغيره على وجه التحقيق . فحمل كلا اجتهاده على المضي في ما مضى فيه الى أن كان ما كان . وكانت قضية قتلة عثمان رضي الله عنه اقوى ذريعة توصل بها الى ما أراد ، فدهاء كدهاء معاوية لا يستغنى عنه في رد عادية الروم الذين زال ملكهم عن بلاد الشام . واني لأرجو لكل منهما الثواب في ما قصده وتوخاه ، وليس أحدهما بنبي حتى يكون مؤاخذاً بخطأ اجتهاده كما آخذ الله آدم ونوحاً ويونس صلوات الله عليهم اجمعين ، فان الأنبياء لا يتركون على خطأ اجتهادهم بل يلامون ، ولا يقرون على الخطأ لأنهم مشرعون ، والأولياء والمجتهدون يثابون فضلاً من الله ورحمة والله غفور رحيم . وأيضاً حيث لم يكونوا انبياء لم يكونوا معصومين عن الخطأ في الاجتهاد ، والمخطىء منهم مأجور غير مأزور أن شاء الله ، ونكف لساننا الا بمحض الأدب ونكل أمرهم الى الله سبحانه .

وذكر ابن حجر في الاصابة في ترجمة معاوية رضي الله عنه قال :

عن سويد بن شعبة ، عن عمرو بن يحيى بن سعيد ، عن جده سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص ، عن معاوية قال : اتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء ، فلما توضأ نظر الي فقال : **« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل »** . فما زلت اظن اني مبتلى بعمل . سويد فيه مقال .

وقد اخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخـر .

وفي تاريخ البخاري عن معمر عن همام بن منبه قال :

قال ابن عباس : ما رايت احداً احلى للملك من معاوية .

وقال البغوي : حدثنا عمي عـن الزبير حدثني محمد بن علي قال : كان عمر اذا نظر الى معاوية ، قال : هذا كسرى العرب .

وقال المدائني : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي ، وكان معاوية يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين العرب .

وفي مسند احمد واصله في مسلم عن ابن عباس قال :

قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : **(( ادع لي معاوية ))** . وكان كاتبه.

وقد روى معاوية ايضا عن ابي بكر وعمر وعثمان واخته ام المؤمنين ام حبيبة بنت ابي سفيان،وروى عنه من الصحابة ابن عباس وجرير البجلي ومعاوية بن خديج والسائب بن يزيد وعبد الله بن الزبير والنعمان بن بشير وغيرهم ، ومن كبار التابعين مروان بن الحكم وعبد الله بن الحرث بن نوفل وقيس بن ابي حازم وسعيد بن المسيب وأبو ادريس الخولاني الى آخـر ما ذكره من الرواة والمناقب ، أسلم بعد الحديبية وكتم اسلامه حتى اظهره عـام الفتح ، ومات في رجب سنة ستين على الصحيح وتمامه في الاصابة والله اعـلم .

وذكر الحلبي في سيرته في فتوح مكة قال : وكان من جملة من بايعـه صلى الله عليه وسلم على الاسلام معـاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما فعن معاوية رضي الله عنـه :

لما كان عام الحديبية وقع الاسلام في قلبي فذكرت ذلك لامي ، فقالت : اياك ان تخالف اباك فيقطع عنك القوت . فأسلمت واخفيت اسلامي ، فقال لي يوماً ابو سفيان وكأنه شعر باسلامي : اخوك خير منك هو على ديني .

فلما كان عـام الفتـح اظهرت اسلامي ، ولقيته صلى الله عليـه وسـلم فرحب بي ، وكتبت له اي بعد ان استشار فيه جبريل عليه السلام فقال استكتبه فانه امين ، واردفه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً خلفه فقال : (( ما يليني منك )) . قلت بطني . قال (( **اللهم املأه حلماً وعلماً** )) . وعـن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية : (( **اللهم علّمه الكتاب والحساب وقِه العذاب** ))، زاد في رواية (( **ومكّن له في البـلاد** )) . وعن بعض الصحابة انه سـمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لمعاوية يقول : (( **اللهم اجعله هادياً مهدياً ، واهده واهـد به ، ولا تعذبه** )) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لمعاوية : (( **يا معاوية انت مني وانا منـك ، لتزاحمني على باب الجنة كهاتين** )) ، وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تليها . ويذكر أنـه كان عنده قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وإزاره ورداؤه وشيء من شعره ، فقال عند موته : كفنوني في القميص وادرجوني في الرداء وآزروني بالازار واحشوا منخري وشدقي مـن الشعر وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين .

وقد بشر بمعاوية رضي الله عنه بعض كهّان اليمن ، وسبب ذلك ان امه هنداً كانت قبل ابيه ابي سفيان عند الفاكه بن المغيرة المخزومي ، وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذن ، فخلا ذلك البيت يوماً من الضيفان ، فاضطجع الفاكه وهنـد فيه وقت القائلة ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجته ، واقبل رجـل كان يغشاه فولج البيت ، فلما رأى المراة التي هي هند ولّى هارباً وابصره الفاكه وهو خارج من البيت فأقبل الى هند فضربها برجله وقال لهـا : من هذا الذي كان عندك . قالت : ما رايت رجلا ولا انتبهت حتى ايقظتني . فقال : لهـا الحقي بأبيك . وتكلم فيها الناس ، فقال ابوها عتبة : يابنية ان الناس قد

من اكثروا فيك فانبئيني نباك ، فان كان الرجل عليك صادقاً دسست اليه من يقتله فنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذباً حاكمته الى بعض كهان اليمن . فحلفت له انه لكاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : يا هذا انك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن . فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها . فلما شارفوا البلاد وقالوا : غداً نرد على الكاهن الفلاني . تنكرت حالة هند وتغير وجهها ، فقال لها ابوها : اني قد ارى ما بك من تنكر الحال ، وما ذاك الا لمكروه عندك ، كان هذا قبل أن يشهد الناس مسيرنا . قالت : لا والله يا ابتاه ما ذاك لمكروه عندي ، ولكني اعرف انكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون علي سبة في العرب . قال : اني سوف اختبره من قبل أن ينظر في امرك . فصفر بفرس حتى أدلى ، ثم اخذ حبة من حنطة فأدخلها في احليله ، واوكأ عليها بسير . فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة : انا قد جئناك في أمر ، واني قد خبأت لك خباء اختبرك به فانظر ما هو . قال : سمرة في كمرة . قال : أريد أبين من هذا . قال : حبة بر في احليل مهر . قال : صدقت انظر في أمر هذه النسوة . فجعل يدنو من احداهن فيضرب كتفها ويقول انهضي ، حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال : انهضي غير وسخاء ولا زانية ، ولتلدن ملكاً يقال له معاوية . فوثب اليها الفاكه فأخذ بيدها ، فنثرت يدها من يده وقالت : اليك عني فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك . فتزوجها أبو سفيان فجاءت منه بمعاوية رضي الله عنه .

ويؤثر عنه رضي الله عنه انه لما حضرته الوفاة قال : اللهم ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي ، اللهم اقل عثرتي واغفر زلتي ، وعد بحلمك على

من لا يرجو غيرك ، ولم يثق بأحـد سواك . ثم بكى رضي الله عنه حتى علا نحيبـه .

كتب الى عائشة رضي الله عنها : اكتبي لي كتـاباً توصيني فيه ولا تكثري . فكتبت اليه : من عائشة الى معاوية سلام عليك اما بعـد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : « **من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ، ومـن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام** » . وكتبت اليه رضي الله عنها مرة اخرى : اما بعد فاتق الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس ، واذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام .

وان من اكذب الكتب واشدها فرية على معاوية رضي الله عنه وبني امية كتاب الامامة والسياسة المنسوب كذباً وبهتاً لابن قتيبة ، فلئن كان نسبة الكتاب اليه صحيحة فان فيه من الدسائس اكثر ما الفه صاحبه ، ولـكن الشك العظيم في نسبته اليـه لشدة ما تضمنه هـذا الكتاب مـن الدسائس والأكاذيب العارية عن الصحة والاسناد . ولقد ذكر في ترجمة ابن قتيبة ناشر كتاب القرطين لابن مطرف الكناني في الطبعة الاولى سـنة ١٣٥٥هجرية في تعداد مؤلفات ابن قتيبة قال (٢٥) كتاب الامامة والسياسة طبع بمصر عـدة طبعات واشتهرت نسبته لابن قتيبة ، غير ان كثيراً مـن العلماء المستشرقين واولهم غانيفوس المجريطي شكوا في صحة تلك النسبة مستندين الى ادلة معقولة اهـ .

فانظر يا رعاك الله كيف ان الأجنبي عن العروبة والدين كذب نسبته اليه ، لما يحويه من الأكاذيب التي من اشـدها خطراً وكـذباً ما يتناقله المنتحلون لصنعة الأدب ويروون قصة ارينب زوجة عبد الله بن سـلام ، وتحَيل معاوية في طلاقها من زوجها بواسطة ابي الدرداء ليزوجها ابنـه

يزيد ، ثم تزوجها بالحسين رضي الله عنه ، ثم طلاق الحسين لها وارجاعه اياها لزوجها عبد الله ، مما يندى الجبين لهـذا العمل الذي لا يصدر من سوقة الناس المارقين من الدين ، على واضع هذه القصة لعنة رب العالمين.

وليت الواضع الكاذب اذ لم يستح من وضعها نقل سندها حتى نناقشه به ، ونعلم لمن ينتهي وضعها ولا حول ولا قوة الا بالله . ورحم الله ابن قيس الرقيات حيث اصاب الحقيقة في قـوله :

ما نقموا من بني اميـة الا انهـم يحلمـون ان غضبوا
وانهـم معـدن الملوك ولا تصـلح الا عليهـم العـرب

وذكر عماد الدين ابو الفداء اسمعيل بن كثير القرشي الشافعي امـام ائمة المسلمين في التفسير والحديث بالشام في كتـابه الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث في النوع التاسع والثلاثين قال: قـال بعضهم في معاوية وعمر بن عبد العزيز ، ليوم شهده معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من عمر بن عبد العزيز وأهل بيته اهـ .

وذكر ابن خلكان في تاريخه في ترجمة عبد الله بن المبارك رضي الله عنه قال : ونقل أبو علي الغساني الجياني أن عبد الله بن المبارك سئل : ايمـا أفضل معاوية بن أبي سفيان ، أم عمر بن عبـد العزيز . فقال : والله ان الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من عمر بألف مرة ، صلى معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمع الله لمن حمده فقال معاوية ربنا لك الحمد ، فما بعد هذا اهـ .

وما احسن ما نقله الصفوري في نزهة المجالس قال : قال عمر بن عبد العزيز : رايت في المنام كأن القيامة قد قامت ، فأخذ علي معاوية رضي الله عنهما فأدخله بيتاً ، ثم خـرج فقال : حكِمَ لي ورب الكعبة ، ثم خـرج معاوية وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة .

وأما حلم معاوية رضي الله عنه فحدث به ولا حرج ، ومن بعده يضرب المثل به . فمما روي في ذلك : انه كان مجاوراً لعبد الله بن الزبير بأرض ، فدخل عبد معاوية لأرض عبد الله ، فكتب اليه أن انههم عنه والا كان لي ولك شأن ، قيل فاستشار ابنه يزيد فقال : ابعث اليه بجيش يكون أوله عندك وآخره عنده يأتونا براسه . فقال معاوية : غير هذا أوفق وارفق . ثم كتب الى عبد الله أن يضم الأرض وعبيدها الى ملكه . فأجابه عبد الله بقوله : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام . ولما علم ابنه يزيد بذلك تهلل وجهه وقال له : يا بني اذا ابتليت بشيء من هذا القبيل فداوه هذا الدواء فهـو أنجح وأولى .

وفي تفسير الفاتحة من ابن كثير بسند أبي داود الى ابن شهاب ، أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وابا بكر وعمـر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرئون **( مالك )** يوم الدين ، قال ابن شهاب : وأول من أحدث **( ملك )** مروان . قلت : مروان عنده علم بصحة ما قرئوه ، فلم يطلع عليه ابن شهاب والله أعلم . وكلاهما صحيح متواتر في السبع أهـ .

فانظر كيف استدل القراء لصحة القراءة بما عليه معاوية وابنه يزيد ، وبما عليه مروان الذين يصمهم أعداء الاسلام بوصمات تسقط الاحتجاج بهم لو صحت . مما لا تخفى على أئمة القراءة والمحدثين الثقاة أن يمتنعوا عن قبول قولهم في القراءات لو ثبتت عنهم تلك الأكاذيب .

وقد تبين مما تقدم ويأتي ، سبب تمسك معاوية بأمارة الشام وعـدم نزوله عنها وتحيله للبقاء فيها ، بما اجتهد فيه انه أقل إثماً من نزوله عنها، حيث ظن وجوب بقائه فيها لما يعلمه من دخائل الرومان وتحيلهم للعود الى البلاد التي انسلخت من ملكهم ، فكان معاوية يظن نفسه الحصن المنيع والسد الذريع الذي يقف بوجه تيارهم وكيدهم الفظيع .

وأما سبب تمسك علي بعزله وتصميمه عليه رضي الله عنهما ، هو تباين ما بين مسلكيهما في الحكم ، فورع علي وزهده وكونه على سيرة العمرين ، ينافي لين معاوية وسياسته وحلمه وبذله للمال في اصلاح الدولة حسب تطور الوقت بما تقتضيه المصلحة . وكم بين المسلكين من تباين صريح ، كتباين ما بين عمر وخالد رضي الله عنهما ، في استئثار خالد بكثير من الغنائم وعدم ارسال نصيب بيت المال الى الخليفة ، يتألف به من يجب تألفه ، مع ظن عمر رضي الله عنه انه يدخرها لنفسه ، حتى كشف ذلك الموت حين لم يوجد لديه الا سلاحه وفرسه ، فصار عمر يندبه ويقول ظلمناك يا أبا سليمان ظلمناك يا أبا سليمان .

وهذا اعتراف من عمر رضي الله عنه بفضل خالد ، وتواضع وهضم منه لنفسه التي حملته على هذا الظن ، ولكنه ليس بظلم منه بل هو حق الخليفة يعزل من شاء ويولي من شاء حسبما يؤديه اليه اجتهاده .

وأما خالد رضي الله عنه ، فانه لم يتمسك بالامارة كما تمسك بها معاوية ، لوجود مثل أبي عبيدة في زمنه رضي الله عنه ، فانه كان يصلح للخلافة فضلا عن امارة جيش من الجيوش التي قاد أمثالها وأمثالها ، ولكن مركز معاوية لم يكن ليقوم به أحد غيره ، لو تخلى عنه كما تخلى خالد ولكانت بلاد الشام وسورية تحت حكم الرومان وظلمهم ومن يخلفهم من ملوك الفرنجة الذين أعادوا عليها الكرة أيام الحروب الصليبية وأيام الحرب العامة الاولى سنة ١٩١٨ ، حين قال الجنرال اللنبي القائد الانكليزي العام لما وقف على مرقد صلاح الدين قولته المشهورة : يا صلاح الدين الآن انتهت الحروب الصليبية .

فادى معاوية اجتهاده أن يبقى في امارة الشام للدفاع عن الاسلام ورد عادية الروم . قال في الاصابة : وولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وأقره عثمان ، ثم استمر فلم يبايع علياً ، ثم حاربه واستقل

بالشام ، ثم أضاف اليهـا مصر ، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ، ثم استقل لما صالح الحسن ، واجتمع عليه الناس فسمي ذلك العام عـام الجماعة . واخرج البغوي من طريق مبارك عن ابيه عن علي بن عبـد الله عن عبد الملك بن مروان قال : عاش ابن هند يعني معاوية عشرين سنة اميراً وعشرين سنة خليفة ، وبه جزم محمد بن اسحق وفيه تجوز لانه لم يكمل في الخلافة عشرين ان كان أولها قتل علي رضي الله عنه ، وان كان أولهـا تسليم الحسن له فهي تسع عشرة سنة الا يسيراً ، وفي صحيح البخاري عن عكرمة قلت لابن عباس : ان معاوية أوتر بركعة . فقـال : انه فقيه ، وفي رواية انه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ .

اما تولية عمر له على الشام بعـد موت أخيه يزيد فكان موت يزيـد سنة ١٨ في طاعون عمواس ، قال في الاصابة : وقال الوليد بن مسلم بـل تأخر موته الى سنة تسع عشرة بعد أن افتتح قيسارية ، وعليه فتكون ولاية معـاوية رضي الله عنـه من سنة تسع عشرة الى أن قتـل عثمان رضي الله عنـه ست عشرة سـنة ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٣٥ ، ولبث في الخلافة اثنتي عشرة سنة الا أياماً ، ثم بويع لعلي رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ٣٥ خمس وثلاثين ، واشتد الخلاف بينهما .

ففي الاصابة انه كانت وقعة الجمل في جمادى الثانيـة بسـنة ست وثلاثين ، ووقعة صفين سنة سبع وثلاثين ، ووقعة النهروان مع الخوارج سنة ثمان وثلاثين ، ثم أقام سنتين يحرض على قتال البغاة فلم يتهيأ لـه ذلك الى أن قتل ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، فتكون مدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة اشهر اهـ .

فاذا ضمت الى ستة عشر سنة كانت امارة معاوية رضي الله عنـه عشرين سنة وزيادة .

وذكـر ابن جرير ان تحكيم الحكمين كان سنة سبع وثلاثين في دومة

الجندل ، بخلاف ما زعم الواقدي انه كان سنة ٣٨ في شعبان أهـ .

وفي الاصابة : انه لما بايع اهل العراق الحسن رضي الله عنه ، وسار بهم الى اهل الشام ، تراسل مع معاوية وجمع رؤوس اهل العراق وقال : انكم قد بايعتموني على ان تسالموا من سالمني وتحاربوا من حاربني واني قد بايعت معاوية فاسمعوا له واطيعوا . ثم توفي رضي الله عنه سنة تسع واربعين او خمسين او احدى وخمسين او اربع واربعين . وأعطاه معاوية عهداً ان حدث به حدث والحسن حي ، ليجعلن هذا الأمر اليه ، فكان اصحاب الحسن يقولون له يا عار المؤمنين ، فيقول : العار خير من النار .

وفي المسند من حديث ام سلمة قالت : دخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين فوضعهما النبي صلى الله عليه وسلم في حجره فقبلهما ، واعتنق علياً باحدى يديه وفاطمة بالأخرى فجعل عليهم خميصة سوداء فقال « **اللهم اليك لا الى النار** » . وله طرق وفي بعضها كساء ، وأصله في مسلم .

ومن حديث حذيفة ، رفعه الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وله طرق ابضا . وفي الباب عن علي وجابر وبريدة وابي سعيد . وفي البخاري عن أبي بكرة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن ابن علي معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول : « **ان ابني هذا سيّد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين** » .

وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا المبارك بن فضاله ، حدثنا الحسن بن أبي الحسن ، حدثنا أبو بكرة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي بالناس ، وكان الحسن بن علي يثب على ظهره اذا سجد ، ففعل ذلك غير مرة . قالوا : انك لتفعل بهذا شيئاً ما رأيناك تفعله بأحد . قال : « **ان ابني هذا سيّد ، وسيصلح الله به بين فئتين من**

**المسلمين ))** . قال : فلما وليَ لم يهرق في خلافته محجمة دم . وأخرجه اسمعيل الحطبي من طريق حماد بن زيد ، عن علي بن زيد ، وهشام عن الحسن نحوه قال : فنظر اليهم أمثال الجبال في الحديد فقال : اضرب هؤلاء بعضهم ببعض في ملك من ملك الدنيا لا حاجة لي به .

ومات الحسن مسموماً رضي الله عنه وعنا به ، ومات معاوية سنة ستين على الصحيح ، كله من الاصابة . وكل ما فعله الحسن من معجزة جده الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم . وعلى ما ذكر فلم تنقص مدة خلافة معاوية عن العشرين الا مدة خلافة الحسن وقدرها خمسة اشهر وستة أيام ، وقيل ستة أشهر الا اياماً ، كما في حياة الحيوان .

وأخرج البخاري في صحيحه في كتاب الفتن ، في باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي : (( **ان ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ))** . حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا اسرائيل أبو موسى ولقيته بالكوفة جاء الى ابن شبرمة فقال : ادخلني على عيسى فأعظه . فكأن ابن شبرمة خاف عليه فلم يفعل . قال : حدثنا الحسن ، قال : لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما الى معاوية بالكتائب قال عمرو بن العاص لمعاوية : أرى كتيبة لا تولي حتى تدبر اخراها . قال معاوية : من لذراري المسلمين . فقال : أنا . فقال عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة : نلقاه فنقول له الصلح . قال الحسن : ولقد سمعت أبا بكرة قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ، جاء الحسن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (( **ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ))** أهـ .

وانظر ما ذكره امام المؤرخين ابن خلدون في مقدمته في فصل انقلاب الخلافة الى الملك ، فاقتطفت نبذاً من كلامه قال : ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية ، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي او لايثار باطل أو لاستشعار حقد ،

كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد ؛ وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق ؛ فاقتتلوا عليه ، وان كان المصيب علياً ، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل ؛ انما قصد الحق واخطأ ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق ، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ، ولم يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه ، فهو امر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو امية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من اتباعهم ، فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة ، وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها اهم عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة . وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن ابي بكر : لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة . ولو اراد ان يعهد اليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بني امية اهل الحل والعقد لما ذكرنا ، فلا يقدر ان يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة .

الى ان قال : وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو امية لم يرضوا تسليم الأمر الى من سواهم ، فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه ، مع ان ظنهم كان صالحاً به ، ولا يرتاب احد في ذلك ، ولا يظن بمعاوية غيره ، فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق ، حاشا لله لمعاوية من ذلك .

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه ، وان كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب اهل البطالة والبغي ، انما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم ، الا في ضرورة تحملهم على بعضها ، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو اهم لديهم من كل مقصد ، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم ، فقد احتج مالك

في الموطأ بعمل عبد الملك ، وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين ، وعدالتهم معروفة ، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه ، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل اهـ .

وبجميع ما ذكر اتضح سبب الخلاف بين علي ومعاوية في الاجتهاد ولم يحملهما على ذلك الا النظر في صالح الأمة كاختلاف الأئمة والصحابة في اجتهاداتهم في بقية الأمور .

ثم قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد يوم موت أبيه بعهد من أبيه وبيعة من المسلمين الا نفراً منهم الحسين وعبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما ، واختفيا وسرى نقض بيعة يزيد سراً من أهل العراق ومبايعة الحسين رضي الله عنه ، الى أن سار اليهم فخذلوه ولم ينصروه ، وقتل يوم عاشوراء بكربلاء سنة ستين . وقد صحّ عن ابراهيم النخعي انه كان يقول لو كنت فيمن قاتل الحسين ثم دخلت الجنة لاستحييت أن أنظر الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهـ .

ودعا ابن الزبير بسنة مقتل الحسين الى نفسه بالخلافة بمكة ، واشتعلت الحرب بينه وبين يزيد ، وأمر يزيد قائد جيوشه مسلم ابن عقبة أن يجعل طريقه على المدينة ، وان لا يحاربهم الا أن حاربوه ، فخرج أهل المدينة لحربه فظفر بهم ، وقيل انه اباحها ثلاثة أيام ، ثم سار الى مكة فمات مسلم بن عقبة ، فتولى امارة الجيش الحصين بن نمر السكوني ، فحاصر مكة ، فورد الخبر بموت يزيد وذلك سنة أربع وستين وله تسع وثلاثون سنة ، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة اشهر ، فقام بالأمر بعده ابنه معاوية يوم موت ابيه ، فخلع نفسه بعد أربعين ليلة ، وقام بالأمر بعده مروان بن الحكم ، واستقام بالخلافة عشرة اشهر ، فقتلته زوجته وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك بن مروان كما سنذكره مفصلا .

* * *

# في ذكر شيء عن أمارة ابن الزبير رضي الله عنه

وحيث ذكرنا تولي ابن الزبير الخلافة زمن بني أمية ، لا بأس ان نذكر نبذة عن امارته الى أن قتل رضي الله عنه .

ونوصي من يطالع كتابنا هذا أن يكون على جادة الأدب مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحمل أحوالهم على الصلاح والصواب ، واجتهادهم على تحري الحق بلا ارتياب ، فانهم مهما أخلصوا العمل لم يخرجوا عن طبيعة البشر الذي يخطىء في اجتهاده ويصيب ، لكن لا شك أن الاخلاص وتحري الحق هو رائدهم ، لانه لم يمض على زمن المشرع الأعظم صلى الله عليه وسلم ما يتوقع معه النسيان لذلك العهد النبوي النير ، والقواعد المتينة التي سنها وتلقوها عنه صلى الله على جسده وروحه وسلم .

ومن جملتهم ابن الزبير رضي الله عنه ، فحكمه حكمهم ، اذ هو صحابي أداه اجتهاده الى ما قام به لمحض حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا لملك ولا لعصبية .

اسمه عبد الله ، وابوه الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى القرشي الاسدي . وامه اسماء بنت ابي بكر الصديق اخت الصديقة عائشة لأبيها . ولد عام الهجرة ، وهو اول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة ، وحنكه النبي صلى الله عليه وسلم وسماه باسم جده ، وكناه بكنيته ، ودعا له وبرك عليه ، وهو احد العبادلة ، واحد الشجعان من الصحابة ، واحد من ولي الخلافة ، بويع له سنة ٦٤ اربع وستين عقب موت يزيد ابن معاوية ، ولم يتخلف عنه الا بعض اهل الشام ، وكان يكنى ابا بكر ثم كنى ابا حبيب بولده . واتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : **« يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد »**.

فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الدم فشربه ، فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم : **« ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك ، وويل لك من الناس »** .

وعن ابن عباس انه وصف ابن الزبير فقال : عفيف الاسلام ، قارىء القرآن ، ابوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامه بنت الصديق ، وجدته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمة ابيه خديجة بنت خويلد .

وبسند صحيح عن مجاهد كان ابن الزبير اذا قام للصلاة كأنه عمود ، وعن ميمون بن مهران رايت ابن الزبير واصل من الجمعة الى الجمعة ، وشهد ابن الزبير اليرموك مع ابيه الزبير ، وشهد فتح افريقية ، وكان البشير بالفتح الى عثمان وكان الفتح على يده ، وشهد الدار وكان يقاتل عن عثمان ، ثم شهد الجمل مع عائشة وفيه بضع واربعون جراحة ، ثم اعتزل حروب علي ومعاوية ، ثم بايع لمعاوية ، ولما مات امتنع عن المبايعة لابنه يزيد ، ثم بويع له بالخلافة ، فقاتله مروان ثم مات ، فقاتله عبد الملك بن مروان .

والذي يشهد لاخلاصه في جهاده رضي الله عنه شهادة قاطعة انه لله لا لعصبية ولا لجاه ولا لملك ما نقله الحلبي في سيرته في بحث بناء الكعبة زادها الله شرفاً، انه لما دخل على امه وهو محاصر، حاصره الحجاج خمسة اشهر وقيل سبعة أشهر وسبع عشرة ليلة سنة ثلاث وسبعين قبل قتله بعشرة أيام، وهي شاكية اي مريضة فقال لها: كيف تجدينك يا أمه. قالت: ما أجدني الا شاكية. فقال لها: ان في الموت لراحة. فقالت: لعلك تبغيه لي، ما أحب أن أموت حتى يأتي علي أحد طرفيك اما قتلت واما ظفرت بعدوك فقرت عيني.

ولما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها في المسجد فقالت: يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذي تخافه القتل، فوالله لضربة بالسيف في عز خير من ضربة سوط في ذل. ويقال انه دخل على أمه فشكا اليها خذلان الناس له وخروجهم الى الحجاج حتى أولاده وأهله، وانه لم يبق معه الا اليسير والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك. فقالت: يا بني انت أعلم بنفسك، أن كنت تعلم أنك على حق وتدعو الى حق فاصبر عليه، فقد قتل أصحابك عليه، ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بني أمية، وان كنت انما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، كم خلودك في الدنيا. فدنا منها وقبل رأسها. وقال: والله ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله أن تستحل حرمته. وبعد أن قتل وصلب على الجذع فوق الثنية ومضت ثلاثة أيام، جاءت أمه أسماء رضي الله تعالى عنها تقاد لأن بصرها كان قد كف حتى وقعت عليه فدعت له طويلا ولم يقطر من عينها دمعة.

وأما عدم صلوحه للخلافة فلما كان فيه من سرعة الغضب والتهور وعدم الدهاء وعدم التألف، مع ان الناس تغيرت أحوالهم عما كانت عليه

في زمن النبي وخلفائه الراشدين صلى الله عليه وعليهم اجمعين وكانت سيرته وصلابته بدينه كالخلفاء الراشدين ، فلذا لم يستقم له أمر الخلافة حسب تطور الزمان .

وذكر في حياة الحيوان : انه لما ورد الخبر بموت يزيد بن معاوية سنة اربع وستين الى الحصين بن نمر السكوني وهو محاصر ابن الزبير في مكة اميرا على الجيش ، ارسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه الى ذلك ، واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ذات ليلة بعد العشاء اذ استقبله ابن الزبير ، فأخذه الحصين بيده وقال له سراً : هل لك في الخروج معي الى الشام فأدعو الناس الى بيعتك فان أمرهم قد مرج ولا ارى احداً أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك . فاجتذب ابن الزبير يده من يده وقال وهو يجهر بقوله : دون أن أقتل بكل واحد من اهل الحجاز عشرة من أهل الشام . فقال الحصين : لقد كذب الذي يزعم أنك من دهاة العرب ، أكلمك سراً فتكلمني علانية ، وأدعوك الى الخلافة وتدعوني للحرب . ثم انصرف بمن معه الى الشام .

فانظر الى هذه الفرصة السانحة التي لو أحسن ابن الزبير احكامها تمّ له الملك والخلافة ولقام بأمر الله بما يرضي الإله ، فانه نعم الصحابي هو رضي الله عنه .

وذكر الحلبي في سيرته : ان ابن الزبير قال لعبد الله بن صفوان : اني قد اقلتك بيعتي فاذهب حيث شئت ، فقال : انما أقاتل عن دين . ومما يدل بأن عبد الله بن الزبير كان عنده بعض التسرع ما حكي أنه جاء اليه شخص فقال له : ان الناس على باب عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلبون العلم ، وان الناس على باب أخيه عبيد الله يطلبون الطعام ، فأحدهما يفقه الناس والآخر يطعم الناس ، فما أبقيا لك مكرمة . فدعا

شخصا وقال له : انطلق الى بني العباس رضي الله عنهم وقل لهما : يقول لكما امير المؤمنين اخرجا عني والا فعلت ما فعلت . فخرجا الى الطائف .

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال حين وقع بينه وبين ابن الزبير ، أي وامره أن يخرج الى الطائف ويهدده لأجل ما تقدم : قلت أبوه الزبير ، وامه أسماء ، وخالته عائشة ، وجده ابو بكر ، وجدته صفية ، وفي رواية عنه انه قال : اما أبوه فحواري رسول الله . وأما امه فذات النطاقين يريد اسماء ، وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة ، واما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ، واما عمة النبي صلى الله عليه وسلم فجدته صفية ، ثم هو عفيف في الاسلام وقارىء للقرآن اهـ . من السيرة .

فانظر ما بين الكلامين ، كلام امير المؤمنين ان صح عنه ، وكلام ابن عباس داهية العرب والاسلام ومن أعطاه الله الفقه والتأويل .

وما كان أجدره أن يكون هو أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ولكنه ادخر ذلك لعقبه الذين خدموا العرب والاسلام أجل الخدم بما ورثوه من جدهم رضي الله عنهم أجمعين .. واني على شك من أن يكون الحامل لابن الزبير على ما وقع بينه وبين ابن عباس ما ذكر . وعلى شك من تكليفه لابن عباس الخروج من مكة ، فقد ذكر صاحب السيرة أيضاً أن سبب خروج عبد الله ابن عباس من مكة قول الله تعالى : **( ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم )** . فقد قال الشيخ محي الدين بن العربي : اعلم ان الله تعالى قد عفا عن جميع الخواطر التي لا تستقر عندنا الا بمكة ، لأن الشرع قد ورد ان الله يؤاخذ من يريد فيه بإلحاد بظلم . وكان سبب سكن عبد الله بن عباس بالطائف احتياطا لنفسه لأنه ليس في قدرة الانسان أن يدفع عن قلبه الخواطر اهـ .

وان روايات المؤرخين حاوية للغث والسمين لا سيما ما خلا منها عن السند وما أضعف أسنادهم .

* * *

# في الكلام على يزيد بن معاوية رحمه الله

ولد يزيد بن معاوية أبو خالد الأموي سنة ٢٥ أو ٢٦ هجرية ، وتوفي في نصف ربيع الأول من عام أربع وستين كما في تاريخ الخلفاء للسيوطي ، وفيه قال ابن سيرين : وفد عمر بن حزم على معاوية فقال له : أذكرك الله في أمـة محمد صلى الله عليه وسلم بمن تستخلف عليها . فقال : نصحت وقلت برأيك ، وأنه لم يبق الا ابني وأبناؤهم وابني أحق . وقال عطية بن قيس خطب معاوية فقال : اللهم ان كنت عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وان كنتُ انما حملني حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك أهـ .

ولكن السيوطي بعد ذلك ذكر كثيراً عن يزيد وثلبه ثلباً فاضحاً ولعنه ، وما أظنه الا مدسوساً عليه أو متابعاً لغيره من المؤرخين الذين يجمعون بين الفث والسمين ، مع أنه لو أراد أن يحك أخبـار تاريخه على محك عـلم الحديث الذي هو رضي الله عنه أبوه وأمه ، لما استطاع أن يجمع معشار ما جمع في تاريخـه .

وأني كغيري من المؤرخين ، لا اتورع في جمع سائر أخبارهم الا ما فيه منقصة ظاهرة للسلف او كان مستبعد الوقوع ، فاني لا اسلم به ما لم ار صحة نقله باسناد على طريق المحدثين ونقدهم ، وهيهات أن تستوفي أخبار ذمهم شرطاً من الصحة .

من ذلك ما ذكره ابن الوردي في تاريخه في وقائع سبع وستين في ذكره وفاة الأحنف أبي بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة ، الذي يضرب المثل بحلمه سيد قومه الموصوف بالعقل والعلم والدهاء والذكاء ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ، ووفد على عمر فكان من كبار التابعين ، وشهد مع علي صفين ، ولم يشهد وقعة الجمل مع احد الفريقين ، كان أحنف الرجل يطأ على جانبها الوحشي . قال ابن الوردي بعد ما ذكر ذلك : حضر الأحنف عند معاوية فقام شامي خطيباً ولعن علياً رضي الله عنه في آخر كلامه ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ان هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم ، فاتق الله ودع عنك علياً فقد لقي ربه وأفرد في قبره ، وكان والله الميمونة نقيبته ، العظيمة مصيبته . فقال معاوية : يا أحنف لقد أغضيت العين عن القذى ، فايم الله لتصعدن المنبر وتلعنه طوعاً أو كرهاً . فقال الأحنف : أوتعفيني فهو خير لك . فألح عليه معاوية . فقال الأحنف : أما والله لأنصفنك في القول . قال : وما أنت قائل . قال : أحمد الله بما هو أهله ، وأصلي على رسوله وأقول :

أيها الناس ان أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ، ألا وان علياً ومعاوية أختلفا فاقتتلا ، وادّعى كل منهما أنه مبغي عليه ، فاذا دعوت فأمنوا . ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك ورسلك وجميع خلقك الباغي

منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعناً كثيراً ، أمنوا رحمكم الله . يا معاوية أقوله ولو كان فيه ذهاب روحي . فأعفاه معاوية من ذلـك أهـ .

اقول ومن أين نقلت هذه القصة ؟ وان ابن الوردي رحمه الله لا يخلو تاريخه من هـذه الروايات ، التي لو امتحنت على محك ما قدمنا في اول الرسالة من نقل الأخبار لعريت هي وامثالها عن أثر للصحة أو المرجع، الا لمن يدس الأخبـار لأغراض مذهبية ، ولو عريت كتب التاريخ عنها لأصبحت كالصبارة التي يخرج منها بزرها ، واني أجهـد نفسي بأن أعثر على مصدر لهذه الأخبار الواهية فلا أرى الا مؤرخاً رواها عن مؤرخ ، ولا تعرف لهـا سنداً ولا مخرجاً . ولا يعقل هـذا من معـاوية رضي الله عنـه ، بل ان معـاوية أعقل وأدهى من أن يكلف مثل الأحنف بهذا الأمـر ، أو أن يتجرأ على لعـن من لم تسجد جبهته لغير ربه عز وجـل ، مع أنه يعلم أحقيته بالأمر وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحصانة لسان معاوية رضي الله عنه عن بذيء الكلام تبعد عنه مثل هذه الأكاذيب . وقد تقدم ما نقله ابن حجر في زواجره من وصف ضرار لسيدنا علي وثنـاء معاوية عليـه ، وكم من بون بين الخبرين ، والعقل السليم يحكم بصحة المقبول منهما والى الله المصـير .

ومن ذلك ما يتناقله المؤرخون من ظلم يزيد لأهل البيت ، وما ينسبون اليه من الفظائع والفجائع التي وقعت بهم . وانما كان أمره لا يتعدى جمع كلمة الملك ورد من يريد تفريقها . وكان إجماع المسلمين على انعقاد الامارة بالعهد من الخليفة السابق ، كما جرى ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر ، أو بيعة أهل الحل والعقد ، كما جرى لعمر وعثمان رضي الله عنهما، وكلاهما حصل ليزيد من أبيه وبعـد وفاته .

وفي كتاب الفتن من البخاري ما نصه : باب ، اذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد عن ايوب عن نافع قال : لما خلع اهل المدينة يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر حشمه وولده فقال : اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (( **ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة** )) . وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال ، واني لا أعلم احداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر الا كانت الفيصل بيني وبينه اه .

فانظر يا رعاك الله الى شهادة هذا الصحابي الجليل بصحة بيعة هذا الإمام ، أفلا كان يعلم ابن عمر بما يجوز به خلع يزيد وما لا يجوز ؟ وما عسى أحداً أن يتقول بعد هذه الشهادة ؟ وستسمع ذكر شيء عن الحجاج في سبب مقتل سيد التابعين سعيد بن جبير رضي الله عنه ، ما ترفع الملامة به عن الحجاج وتكل أمرهما الى الله .

فبيعة يزيد إذن بيعة شرعية ومن خرج عليه كان باغياً ،ولم تجتمع كلمة المسلمين أكثر من اجتماعهم على بيعة يزيد . فالتشنيع عليه خروج عن جادة الحق والصواب ولما استنكف من استنكف فما هو الا من بعض من رأوا أحقيتهم بها وقاموا لتأييد حقهم واسترجاعه ، ولكونهم أورع وأعدل منه بلا شبهة، ولكن هذا انما كان بعد انعقاد البيعة له واستتباب الأمر اليه فقام هو أيضاً يدافع عن بيعته كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ولم يأمر أمراءه وجنده أن يفعلوا ما فعلوه من التعدي على حرمة أهل البيت رضي الله عنهم ولعن الله من هتك حرمتهم .

فقد ذكر في حياة الحيوان أنه لما أتى شمرين ذي الجوش الملعون برأس

الحسين ورماه بين يدي يزيد قال له : يا أمير المؤمنين ورد علينا هذا ( يعني الحسين ) في ثمانية عشر رجلا من اهل بيته وستين رجلا من شيعته، فسرنا اليهم وسألناهم النزول على حكم اميرنا عبيد الله بن زياد او القتال، فاختاروا القتال ، ففدونا عليهم عند شروق الشمس واحتطنا بهم من كل جانب ، فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون لوذان الحمام من الصقور ، فما كان الا مقدار جزر او جزور او نومة قائل حتى اتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسفي عليهم الرياح زوارهم العقبان ووفودهم الرخم .

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال : ويحكم كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن مرجانة ، والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه . ثم قال : يرحم الله أبا عبد الله . ثم تمثل بقول الشاعر :

يفلقن هاماً من رجال أعزة     علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فأدخلوا دار نسائه . وكان يزيد اذا حضر غداؤه دعا علياً ابن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ، ثم وجه الذرية صحبة علي بن الحسين الى المدينة ووجه معه رجلا في ثلاثين فارساً يسير أمامهم حتى انتهوا الى المدينة .

وكان قتله يوم عاشوراء في سنة ستين ـ ذكره أبو حنيفة رضي الله عنه في الأخبار الطوال ـ وهي السنة التي دعى ابن الزبير فيها الى نفسه بالخلافة بمكة اهـ .

وفي تاريخ ابن جرير الطبري في وقائع سنة احدى وستين ، أنهم لما انتهوا الى باب يزيد رفع محفز بن ثعلبة صوته فقال : هذا محفز بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة . قال : فأجابه يزيد بن معاوية ما ولدت أم محفز شرٌ والأم .

وفي تاريخ ابن جرير في وقائع ( ٦١ ) قال : ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حده معهن ما يصلحهن واخوهن معهن علي بن الحسين في التي هن فيها . قال : فخرجن حتى دخلن دار يزيد ، فلم تبق من آل معاوية امرأة الا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين ، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعى علي بن الحسين اليه .

اما ويكفيه فخراً ما ذكره في الجامع الصغير برمز البخاري ، عن أم حرام بنت ملحان ـ بن خالد بن زيد بن حرام الأنصارية البخارية ، خالة انس ، وزوجة عبادة بن الصامت ، يقال لها العميصاء والرميصاء، لها مناقب ، وكان أهل الشام يستسقون بها ، كما في المناوي ـ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (( **أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم** )) . وكلا الوصفين ثابت ليزيد بن معاوية رضي الله عنه . فقد ذكر ابن حجر في الإصابة في ترجمة خالد بن زيد بن كليب المكنى بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ما نصه : ولزم أبو أيوب الجهاد بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى أن توفي في غزاة القسطنطينية سنة ٥٠ وقيل احدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين وهو الأكثر . وقال أبو زرعة الدمشقي عن دحيم عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال : أغزا معاوية ابنه يزيد سنة خمس وخمسين في جماعة من الصحابة في البر والبحر حتى أجاز القسطنطينية وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها اهـ .

وذكر في كتاب تبيين المحارم للشيخ سنان الدين الأماسي المتوفي بمكة سنة الف ، وهو كتاب من أجل كتب الحنفية التي يعتمد في النقل عنه ما نصه : في الفلاول قال وعن يزيد بن معاوية أنه كتب الى أهل البصرة : سلام عليكم ، اما بعد فان رجلاً سأل النبي عليه الصلاة والسلام زماماً من

شعر من الغنيمة فقال : (( **سألتني زماماً من نار ، لم يكن لك أن تسألنيه ، ولم يكن لي أن أعطيه** )) . رواه أبو داود . فهل يعقل أن من يروي مثل هذا ويكتبه أن يرتكب ما اختلق عليه من الفظائع .

أما ما ذكره المناوي في شرح الجامع الصغير ونصه : ولا يلزم من كون يزيد بن معاوية مغفوراً له لكونه منهم ، إذ أن الغفران مشروط بكون الانسان من أهل المغفرة ، ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص . ويلزم من الجمود على العموم أن من ارتد ممن غزاها مغفور له . وقد أطلق جمع محققون حل لعن يزيد به حتى قال التفتازاني : الحق أن رضى يزيد بقتل الحسين وإهانته أهل البيت مما تواتر معناه وان كل تفاصيله آحاداً ، فنحن لا نتوقف في شأنه بل في ايمانه ، لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه. قال الزين العراقي : وقوله : بل في ايمانه ، أي : بل لا يتوقف في عدم ايمانه بقرينة ما قبله وما بعده أهـ .

فما أظن الا أن هذا الكلام مدسوس عليه وعلى أمثاله ، دسه بعض أعداء يزيد لتناقضه :

اولاً ـ إن الردة انقضت من زمن أبي بكر رضي الله عنه ، ولم ينقل ارتداد أحد من الجيش الذي مع يزيد حتى نحتج بذلك .

ثانياً ـ لو كان القاتل هو بنفسه ، فالقتل كبيرة لا يلزم منه الكفر الا مع الاستحلال ، ولم ينقل عن يزيد ما يوجب كفره لا بسند قوي ولا ضعيف ، بل ولا رضاه بالقتل ، وانما نقل إنكاره لهذا الفعل الذميم كما تقدم .

على أن هذه القافية النونية : إيمانه ، أعوانه ، كأنها أعجبت من دسها

حتى نقلها المناوي عن التفتازاني ونقلت عن احمد بن حنبل ولا حول ولا قوة الا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولقد عجبت من بعض المعاصرين قوله : ان الجيش الذي ذهب لحصار القسطنطينية بامرة يزيد بن ابي سفيان اخي معاوية ، مع أن يزيد هذا كان من الأمراء الذين شاركوا ابا عبيدة وخالداً في فتوح الشام ، وتوفي في طاعون عمواس وابو عبيدة ومعاذ بن جبل واكثر من عشرين الفاً من جند المسلمين، حتى لم يبق من الجنود الفاتحين إلا نحو النصف فتجبل بهم عمرو بن العاص ، اي لحقوا شواهق الجبال حتى رفعه الله عنهم . وكان الطاعون سنة ١٧ الى ١٨ من الهجرة تقريبا . فأين هو من سنة ( ٥٥ ) فما فوق فان يزيد بن ابي سفيان كان ميتاً قبل حصار القسطنطينية بأكثر من ثلاثين سنة كما هو شهير معروف والله اعلم .

وقال في روح البيان في تفسير سورة هود ما نصه : قال ابن الصلاح في فتاواه : قاتل الحسين رضي الله عنه لا يكفر بذلك وانما ارتكب ذنباً عظيماً . وانما يكفر بالقتل قاتل نبي من الأنبياء . ثم قال : والناس في يزيد ثلاث فرق : فرقة تتولاه وتحبه . وفرقة تسبه وتلعنه . وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه ولا تلعنه وتسلك به مسالك سائر ملوك الاسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك ، وهذه الفرقة هي المصيبة ومذهبها هو اللائق بمن يعرف سير الماضين ويعلم قواعد الشريعة المطهرة اه .

وفيه في تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى : **( فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين )** . بعد ما قسم اللعن الى ثلاثة اقسام قال : والثالثة اللعن على الشخص ، فإن كان مما ثبت كفرهم شرعاً يجوز لعنه ان لم يكن فيه اذى على مسلم ، كقولك : لعنة الله على فرعون وابي جهل لان هؤلاء ثبت انهم ماتوا على الكفر ، وعرف ذلك شرعاً ، وإن

كان لم يثبت شرعاً كلعنة زيد أو عمرو أو غيرهما بعينه فيقال فيه خطر لأن حال خاتمته غير معلوم، وربما يسلم الكافر أو يتوب فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً ألا ترى أن وحشياً قاتل عم النبي صلى الله عليه وسلم ، أعني حمزة رضي الله عنه ثم أسلم على يد النبي صلى الله عليه وسلم وبشره بالجنة ؟ وهذه حجة من لم يلعن يزيد ، لأنه يحتمل أن يتوب ويرجع ومع هذا الاحتمال لا يلعن.

وقال في تفسير سورة الحجر : حكي أنه قيل لابن سيرين : ما لك لا تقول في الحجاج شيئاً . قال : أقول فيه حتى ينجيه الله بتوحيده ويعاقبني باغتيابه ؟ ومن هنا أمسك بعضهم عن لعن يزيد . وكان فضيل يقول : ما لعنت إبليس قط وإن كان ملعوناً في نفس الأمر كما نطق به القرآن . فكيف يلعن من اشتبه حاله وحال خاتمته وعاقبته اهـ .

أقول وهذا لعمري ما تلقى الله عليه . وإني أتحدى كل من ينقل بثبت صحيح عنه أنه أمر أو رضي بقتل الحسين ، بل ما تقدم وتواتر عنه عدم رضائه ، ونقمته على من قتله . وقد صرح ابن حجر في زواجره عدم ثبوت أمره بقتل الحسين رضي الله عنه ونص عبارته : ثم محل حرمة اللعن إن كان لمعين ، فالمعين لا يجوز لعنه وإن كان فاسقاً كيزيد بن معاوية رضي الله عنه أو ذمياً حياً أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر ، لاحتمال أنه يختم له أو ختم له بالإسلام ، بخلاف من علم موته على الكفر ، كفرعون وأبي جهل وأبي لهب ونظرائهم . وأما ما وقع لبعضهم من لعن يزيد فهو تهور بناء على القول بإسلامه ، وهو الظاهر . ودعوى جمع أنه كافر لم يثبت ما يدل عليها ، بل أمره بقتل الحسين لم يثبت أيضاً ، ولهذا أفتى الغزالي بحرمة لعنه اهـ .

وقد نقل الدميري في حياة الحيوان بعض أقوال من طعن فيه ، وبعض اقوال من اعتدل فيه ، ومن جملة ما نقل بحرف الفاء في لفظ الفهد مانصه : وقد افتى الغزالي في هذه المسالة بخلاف ذلك ، فانه سئل عمن يصرح بلعن يزيد بن معاوية هل يحكم بفسقه ام يكون ذلك مرخصاً فيه ؟ وهل كان يريد قتل الحسين ام كان قصده الدفع ؟ وهل يسوغ الترحم عليه ام السكوت عنه افضل ؟

فأجاب : لا يجوز لعن المسلم اصلاً ومن لعن المسلم فهو الملعون ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (( **المسلم ليس بلعّان** )) . وكيف يجوز لعن المسلم ، وقد ورد النهي عن ذلك ؟ وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص عن النبي صلى الله عليه وسلم . ويزيد صح إسلامه ، وما صح قتله للحسين رضي الله تعالى عنه ، ولا أمره ولا رضاه بذلك ، ومهما لم يصح ذلك عنه لم يجز أن نظن ذلك به ، فان اساءة الظن أيضاً بالمسلم حرام . قال الله تعالى : ( **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ) . وقال صلى الله عليه وسلم : (( **ان الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء** )) . ومن أراد أن يعلم حقيقة من الذي امر بقتله لم يقدر على ذلك ، واذا لم يعلم ، وجب إحسان الظن بكل مسلم يمكن إحسان الظن به . ومع هذا لو ثبت على مسلم أنه قتل مسلماً ، فمذهب أهل الحق أنه ليس بكافر . والقتل ليس بكفر بل هو معصية ، وإذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة . والكافر لو تاب من كفره لم يجز لعنه . فكيف اذا تاب من قتل ؟ ولم يعرف أن قاتل الحسين مات قبل التوبة . ( **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ) فإذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين ، ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله عز وجل . ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصياً بالاجماع . بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له في القيامة : لِمَ لَمْ تلعن إبليس ؟ ويقال للذي لعن : لِمَ لعنت ؟ ومن أين عرفت أنه ملعون ؟ والملعون هو المبعد من الله عز وجل ، وذلك

وقـد علم مما ذكرته ومما اقدم السعد التفتازاني عليه من التصريح بلعن يزيد على التعيين ، مستندا الى ان تفاصيل ما نقل عنه من رضاه بقتل الحسين واستبشاره به ، فقد تواتر القدر المشترك بينهما وتبين ان الحق في اي جانب منهما اهـ .

وقال الغزالي : إعلم انك في هذا المقام إما ان تسيء الظن بمسلم وتطعن فيه وتكون كاذبا او تحسن الظن به وتكف لسانك عن الطعن فيه وانت مخطئ ، والخطأ في حسن الظن بالمسلمين اسلم من الصواب بالطعن فيهم ، فلو سكت انسان عن لعن ابليس او لعن ابي جهل او لعن ابي لهب او من شئت من الاشرار طول عمره لم يضره السكوت ، ولو هفا هفوة بالطعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض الهلاك . واما عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتل عليا كرم الله وجهه فقد قال الشافعي رضي الله عنه إنه قتله متأولا بأنه وكيل امرأة قتل علي اباها فاقتص منه ، يعني متأولا عند نفسه فيما كان مخطئا فيه وفيما لا يحتمل التأويل . وليس كل من تأول كان له ان يتأول . وقد قطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع . ثم ارادوا قطع لسانه فجزع . فقيل له : لم لا جزعت لقطع يديك ورجليك ، وجزعت لقطع لسانك ؟ قال : اني اكره ان تمر ساعة من نهار ولا اذكر فيها اسم الله تعالى اهـ . ما رأيته في فتاوى الشهاب الرملي .

قلت : ومما يدل على عدم جواز اللعن ووجوب التنزه عنه ما في صحيح مسلم بآخره من كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها من حديث عمران بن حصين قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره وامرأة من الانصار على ناقة فضجرت فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : **« خذوا ما عليها ودعوها فانها ملعونة »** . قال عمران : فكأني اراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها احد . ونحوه عن ابي برزة الاسلمي .

واخرج بسنده الى ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً . واخرج بسنده الى زيد بن اسلم ان عبد الملك بن مروان بعث الى أم الدرداء بانجاد من عنده ، فلما أن كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه فكأنه ابطأ عليه فلعنه ، فلما اصبح قالت له أم الدرداء : سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته . فقالت : سمعت ابا الدرداء يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( **لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** ))

الأنجاد جمع نجد : متاع البيت الذي يزينه من فرش ونمارق وستور كما في النووي .

واخرج عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين . قال : (( **اني لم أبعث لعاناً وانما بعثت رحمة** )) . فهل يعقل بعد ما سمعت من الأحاديث جواز لعن هذا الرجل المسلم .

وأخرج قبل ذلك بقليل بسنده الى عائشة رضي الله عنها ، أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (( **ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة ، أو بئس رجل العشيرة** )) . فلما دخل عليه ألان له القول . قالت عائشة فقلت : يا رسول الله قلت له الذي قلت ثم ألنت له القول . قال : (( **يا عائشة ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه** )) أهـ . نعم أخرج مسلم هناك عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان ، فكلماه بشيء لا أدري ما هو ، فأغضباه فلعنهما وسبهما ، فلما خرجا قلت يا رسول الله : **لَمَنْ** أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان . قال : (( **وما ذاك** )) . قال قلت : لعنتهما وسببتهما . قال : (( **أو ما علمت ما شارطت عليه ربي . قلت اللهم انما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً** )) أهـ .

فهذا من النبي صلى الله عليه وسلم يحمل على انه زكاة ورحمة ، ولكن من غيره ان استجيب فهو بلاء ونقمة وغير جائز عملا بالأحاديث المارة والله اعلم .

اما مذهب أهل السنة والجماعة من أهل التوحيد فهو ما ذكره صاحب بدء الأمالي لابن الحسن سراج الدين علي بن عثمان الاوشي قال :

ولم يلعن يزيداً بعد موت — سوى المكثار في الاغراء غال

قال شارحه علي بن محمد القاري : والمعنى : لم يلعن أحد من السلف يزيد بن معاوية ، سوى الذين اكثروا القول في التحريض على اللعن وبالغوا في امره وتجاوزوا عن حده ، بأن قالوا رضاه بقتل الحسين واستبشاره واهانته أهل البيت مما تواتر معنى كما ذهب اليه التفتازاني .

( وردّ ) بأنه لم يثبت بطريق الآحاد ، فكيف يدّعي التواتر في مقام المراد ؟ مع أنه نقل في التمهيد عن بعضهم أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، وانما أمرهم بطلب البيعة أو بأخذه وحمله اليه ، فهم قتلوه من غير حكمه . على أن الأمر بقتل الحسين ، بل قتله ليس موجباً للعنه على مقتضى مذهب أهل السنة من أن صاحب الكبيرة لا يكفر ، فلا يجوز عندهم لعن الظالم الفاسق كما نقله ابن جماعة يعني بعينه ، والا فلا شك أنه يجوز لعنة الله على الظالم الفاسق لقوله تعالى : **( ألا لعنة الله على الظالمين )** . ولقوله عليه الصلاة والسلام : **(( لعن الله آكل الربا وموكله ))** .

قال محشيه : قوله ورد هكذا قال الكمال بن أبي شريف ولعل هذا بالنسبة الى اطلاع الشارح أي السعد . وأما نحن فلم نجده بلغ حد الشهرة وبالجملة فكلام التفتازاني في غاية من التعسف .

وقال حجة الاسلام في الاحياء : فان قيل : هل يجوز لعن يزيد لكونه قاتل الحسين أو آمراً به ؟ قلنا : هذا أمر لم يثبت اصلاً ، فلا يجوز ان يقال قتله أو أمر به فضلا عن لعنه ، ولأنه لا يجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق ، بل لا يجوز ان يقال إن ابن ملجم قتل علياً عليه السلام ولا أبو لؤلؤة قتل عمر ، فان ذلك لم يثبت متواتراً ، ولا يجوز ان يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق . وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليتجنب ، ولا خطر في السكوت عن لعن ابليس فضلا عن غيره أهـ .

وأعدل الكلام وأحسنه في هذا الباب ما رأيته في روح البيان بتفسير سورة ( ص ) تحت قوله تعالى : **( لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه )** الآية . قال : قال حجة الاسلام الغزالي رحمه الله : يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين رضي الله عنه وحكاياته، وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم ، فانه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم وهم أعلام الدين ، وما وقع بينهم من المنازعات فيحمل على محامل صحيحة فلعل ذلك لخطأ في الاجتهاد لا لطلب الرئاسة أو الدنيا كما لا يخفى انتهى . والحاصل أن معاصي الخواص ليست كمعاصي غيرهم بأن يقعوا فيها بحكم الشهوة الطبيعية ، وانما تكون معاصيهم بالخطأ في التأويل ، فاذا أظهر الله لهم فساد ذلك التأويل الذي أداهم الى ذلك الفعل حكموا على أنفسهم بالعصيان وتابوا ورجعوا الى حكم العزيز المنان أهـ .

وقد ذكر الامام ابن تيمية في جواب سؤال له عن المشهد المنسوب لسيدنا الحسين رضي الله عنه في مصر مانصه قال :

والكلام في أحوال الملوك على سبيل التفصيل متعسر أو متعذر ، لكن يعلم من حيث الجملة وهو أنهم هم وغيرهم من الناس ممن له حسنات وسيئات يدخلون بها في نصوص الوعد أو نصوص الوعيد .

وتناول نصوص الوعد للشخص مشروط بأن يكون عمله خالصاً لوجه الله ، موافقاً للسنّة . فان النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : (( **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** )) .

وكذلك شمول نصوص الوعيد له مشروط بأن لا يكون متأولاً تأويلاً مخطئاً ، فان الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان .

وكثير من تأويلات المتقدمين وما يعرض لها فيها من الشبهات معروفة بما يحصل بها من الهوى والشهوات ، فيأتون ما يأتونه بشبهة وشهوة والسيئات التي يرتكبها أهل الذنوب تزول بالتوبة ، وقد تزول بحسنات ماحية ومصائب مكفرة ، وقد تزول بصلاة المسلمين عليه ، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامه في أهل الكبائر . فلهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلم له أعمال صالحة في الظاهر — كالحجاج وأمثاله — أنهم لا يلعنون أحداً بعينه ، بل يقولون كما قال الله تعالى : ( **ألا لعنة الله على الظالمين** ) فيلعنون من لعنه الله ورسوله عاما . كقوله صلى الله عليه وسلم : (( **لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وساقيها وشاربها ، وحاملها والمحمولة اليه ، وآكل ثمنها** )) . ولا يلعنون المعين . كما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن رجلا كان يدعى حمارا ، وكان يشرب الخمر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلده ، فأتي به مرة فلعنه رجل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (( **لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله** )) .

وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد ، والوعيد العام قد ينتفى في حق المعين لأحد الأسباب المذكورة ، من توبة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، وغير ذلك .

وطائفة من العلماء يلعنون المعين ، وطائفة بإزاء هؤلاء يقولون بل نحبه ، لما فيه من الايمان يوالى عليه ، اذ ليس كافراً .

والمختار عند الأئمة : ان لا نلعن معيناً ، ولا نحب معيناً ، فان العبد قد يكون فيه سبب هذا وسبب هذا اذا اجتمع فيه من سبب الامرين .

اذ كان من أصول أهـل السنة ، التي فارقوا بها الخوارج والمعتزلة والمرجئة : ان الشخص الواحد تجتمع فيه حسنات وسيئات ، فيثاب على حسناته، ويعاقب على سيئاته ، ويحمد على حسناته ، ويذم على سيئاته . وانه من وجه : مرضيّ محبوب ، ومن وجه : بغيض مسخوط . فلهـذا كان لأهـل الأحداث : هـذا الحكم .

وأما أهل التأويل المحض ، الذي يسوغ تأويلهم : فأولئك مجتهدون مخطئون خطؤهم مغفور لهم ، وهم مثابون على ما أحسنوا فيه من حسن قصدهم واجتهادهم في طلب الحق واتباعه ، كما قال النبي صلى الله عليـه وسلم : (( **اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد الحاكم فاخطأ فلـه أجـر** )) .

ولهـذا كان الكلام في السابقين الأولين ومن شهد له بالجنة ، كعثمان وعلي وطلحة والزبير ونحوهم له حكم آخر ، بل ومن هو دون هؤلاء ، مثل أكابر أهـل الحديبية الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا أكثر مـن ألف وأربعمائة . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (( **لا يدخل النـار أحـد بايع تحت الشجرة** )) .

فهؤلاء ونحوهم فيما شجر بينهم ، اما أن يكون عمـل أحدهم سعياً مشكوراً ، أو ذنباً مغفوراً ، او اجتهاداً قد عفي لصاحبه عن الخطأ فيـه . فلهذا كان من أصول اهل العلم : انه لا يمكّن احد من الكلام في هؤلاء بكلام يقدح في عدالتهم وديانتهم ، بل يعلم انهم عدول مرضيون ، رضي الله عنهم

وارضاهم ، لا سيما والمنقول عنهم من العظائم كذب مفترى ، مثلما كان طائفة من شيعة عثمان يتهمون علياً بأنه أمر بقتل عثمان ، أو أعان عليه ، وكان بعض من يقاتله يظن ذلك فيه ، وكان ذلك من شبههم التي قاتلوه بها ، وهي شبهة باطلة ، وكان علي يحلف ــ وهو الصادق البار ــ : إني ما قتلت عثمان ، ولا اعنت على قتله . ويقول : اللهم شتت قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل . وكانوا يجعلون امتناعه من تسليم قتلة عثمان من شبههم في قتاله ، وعلي لم يكن متمكناً من أن يعمل كل ما يريده من إقامة الحدود ونحو ذلك ، لكون الناس مختلفين فئات ، وعسكره وأمراء عسكره غير مطيعين له في كل ما كان يأمرهم به . فان التفرق والاختلاف يقوم فيه من الشر والفساد وتعطيل الأحكام ما يعلمه من يكون من أهل العلم العارفين بما جاء من النصوص في فضل الجماعة والاسلام .

ويزيد بن معاوية : قد أتى أموراً منكرة . منها : وقعة الحرة بسبب خلعهم بيعته ، وقد امتنع ابن عمر عن خلعه . وقد جاء في الصحيح عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( **المدينة حرم ما بين عائر الى كذا ، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً** )) . وقال : (( **من أراد أهل المدينة بسوء أماعه الله كما ينماع الملح في الماء** )) .

ولهذا قيل للامام أحمد : أتكتب الحديث عن يزيد ؟ فقال : لا ، ولا كرامة ، أوليس هو الذي فعل بأهل الحرة ما فعل . وقيل له : ان قوماً يقولون إنا نحب يزيد . فقال : وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ فقيل : فلماذا لا تلعنه ؟ فقال : ومتى رأيت أباك يلعن أحداً اهـ .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أنهم لا يكفرون أهل القبلة بمجرد الذنوب ، ولا بمجرد التأويل ، بل الشخص الواحد اذا كانت له حسنات وسيئات فأمره الى الله تعالى .

وهذا الذي ذكرناه : هو المتفق عليه بين الناس في مقتله رضي الله عنه .

وقد رويت زيادات : بعضها صحيح ، وبعضها ضعيف ، وبعضها كذب موضوع .

والمصنفون من أهل الحديث في ذلك كالبغوي وابن أبي الدنيا ونحوهما، كالمصنفين من أهل الحديث في سائر المنقولات ، هم بذلك أعلم وأصدق بلا نزاع بين أهل العلم ، لأنهم يسندون ما ينقلونه عن الثقاة أو يرسلونه عمن يكون مرسله مقارب الصحة ، بخلاف الإخباريين ، فان كثيرا مما يسندونه يسندونه عن كذاب أو مجهول ، وأما ما يرسلونه فظلمات بعضها فوق بعض ، وهؤلاء لعمري ممن ينقل عن غيره مسنداً أو مرسلا .

وأما أهل الأهواء ونحوهم فيعتمدون على نقل لا يعرف له قائل أصلا لا ثقة ولا ضعيف ، وأهون شيء عندهم الكذب المختلق ، وأعلم من فيهم لا يرجع فيما ينقله الى عمدة ، بل الى سماعات عن المجاهيل والكذابين ، وروايات عن أهل الإفك المبين .

فقد تبين ان القصة التي يذكرون فيها حمل الرأس الى يزيد ، ونكته بالقضيب كذبوا فيها ، وأن الحمل كان الى ابن زياد ـ وهو الناكت بالقضيب ـ ولم ينقل بإسناد معروف أن الرأس حمل الى قدام يزيد .

ولم أر في ذلك إلا اسناداً منقطعاً ، قد عارضه من الروايات ما هو أثبت منه وأظهر ، نقلوا فيها أن يزيد لما بلغه مقتل الحسين أظهر التألم من ذلك وقال : لعن الله أهل العراق ، لقد كنت أرضى من طاعتهم بدون هذا . وقال في ابن زياد : أما إنه لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله . وأنه ظهر في داره الندب لمقتل الحسين ، وأنه لما قدم عليه أهله وتلاقى النساء

تباكين ، وأنه خيَّر ابنه علياً بين المقام عنده والسفر الى المدينة ، فاختار السفر الى المدينة فجهزه الى المدينة جهازاً حسناً .

فهذا ونحوه مما نقلوه بالأسانيد التي هي أصح وأثبت من ذلك الإسناد المنقطع المجهول ، يبين أن يزيد لم يظهر الرضى بقتل الحسين ، وأنه أظهر الألم لقتله ، والله أعلم بسريرته .

وقد علم أنه لم يأمر بقتله ابتداء ، لكنه مع ذلك ما انتقم من قاتليه ، ولا عاقبهم على ما فعلوا ، إذ كانوا قتلوه لحفظ ملكه ، ولقد قام بالواجب في الحسين وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين ، ولم يظهر له من العدل وحسن السيرة ما يوجب حمل أمره على أحسن المحامل ، ولا نقل لأحد من سيرته أنه كان على أسوأ الطرائق التي توجب الحد ، نعم لقد ظهر من أمره في أهل الحرة ما لا نستريب أنه عدوان محرم وكان له موقف في القسطنطينية — وهو أول جيش غزاها — ما يعد من الحسنات .

والمقصود هنا : أن نقل رأس الحسين الى الشام لا أصل له في زمن يزيد . فكيف بنقله بعد زمن يزيد ؟ وانما الثابت هو نقله الى أمير العراق عبد الله بن زياد بالكوفة ، والذي ذكر العلماء أنه دفن بالمدينة .

وأما ما يرويه من لا عقل له يميز به ما يقول ، ولا له إلمام بمعرفة المنقول من أن أهل البيب سبوا ، وأنهم حملوا على البخاتي ، وأن البخاتي نبت لها من ذلك الوقت سنامان ، فهذا الكذب الواضح الفاضح لمن يقوله ، فان البخاتي قد كانت من قبل ذلك كما كان غيرها من أجناس الحيوان ، والبخاتي لا تستر امرأة ، ولا سبي أهل البيت أحد ، ولا سبي منهم أحد ، بل هذا كما يقولون الحجاج قتلهم .

وعد علم أهل النقل كلهم أن الحجاج لم يقتل أحداً من بني هاشم كما عهد اليه خليفته عبد الملك ، وأنه لما تزوج بنت عبد الله بن جعفر شق ذلك

على بني أمية وغيرهم من قريش، ورأوه ليس بكفء لها ، ولم يزالوا به حتى فرقوا بينه وبينها . بل بنو مروان على الاطلاق لم يقتلوا أحداً من بني هاشم لا آل علي ولا آل العباس إلا زيد بن علي المصلوب بكناسة الكوفة وابنه يحيى اهـ . ماعن ابن تيمية .

وحاصل ما يشهد ليزيد بحسن الحال أربعة أحاديث من الصحاح لا يعادلها شيء بصحتها ولا بأدنى منها في الفض منه ولا يصرفها عنه صارف الا بتحامل وتعسف .

ـ أحدها : ما قدمناه عن كتاب الفتن في البخاري أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد جمع عبد الله بن عمر حشمه وولده فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **« ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة »** . وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، واني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر الا كانت الفيصل بيني وبينه .

ـ الحديث الثاني : ما قدمنا من حديث الجيش الذي يغزو مدينة الروم ، فقد أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير ، قال : حدثني إسحق بن يزيد الدمشقي حدثنا يحيى بن حمزة قال : حدثني ثور ابن يزيد عن خالد بن معدان أن عمر بن الأسود العنسي حدثه أنه أتى عبادة ابن الصامت وهو نازل في ساحل حمص وهو في بناء له ومعه أم حرام أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : **« أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا »** . قالت أم حرام قلت : يا رسول الله أنا فيهم ، قال : **« أنت فيهم »** . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : **« أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم »** . فقلت : أنا فيهم يا رسول الله ، قال : **« لا »** اهـ .

وكلا الوصفين ثبتا ليزيد رحمه الله لأنه كان أول جيش غزا مدينة الروم وأول جيش غزا البحر .

وأما ما ذكره ابن الوردي في وقائع سنة ثمان وأربعين أن معاوية بعث جيشاً مع سفيان بن عوف فحاصروا القسطنطينية ، ومن الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وتوفي هذا ودفن قريباً من سورها شهد أحداً وبدراً ومع علي صفين وغيرها اهـ .

فيحتمل أن سفيان بن عوف كان من جملة المقدمين في غزو يزيد الذي أرسله معاوية ان صحّ ذلك .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية في الجزء الثامن عشر من فتاويه المطبوع سنة ١٣٨٢هـ في الكلام على حديث : (( **إنما الأعمال بالنيات** )) وكلامه على كتاب تنقلات الأنوار في صحيفة (٣٥٢) ما نصه قال رحمه الله : وكذلك أبو محمد البطال كان من أمراء المسلمين المعروفين وكان المسلمون قد غزوا القسطنطينية غزوتين . الاولى في خلافة معاوية أمّر فيها ابنه يزيداً وغزا معه أبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم في داره لما قدم مهاجراً الى المدينة ، ومات أبو أيوب في تلك الغزوة ودفن الى جانب القسطنطينية . وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (( **أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم** )) . والغزوة الثانية في خلافة عبد الملك بن مروان أمر ابنه مسلمة أو خلف الوليد ابنه وأرسل معه جيشاً عظيماً وحاصروها وأقاموا عليها مدة سنين ، ثم صالحوهم على أن يدخلوها وبنوا فيها مسجداً وذلك المسجد باقٍ الى اليوم اهـ .

ـ الحديث الثالث : ما نقله ابن كثير في تفسير سورة المائدة تحت قوله تعالى : ( **ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** )

ما نصه : قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال : كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرأ القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، لقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (( **اثنا عشر كعدة نقباء بني اسرائيل** )). هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً** )) . ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت علي فسألته ، أي ماذا قال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (( **كلهم من قريش** )) . وهذا لفظ مسلم أهـ . قلت : ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة ، ولا شك أن بني أمية من قريش كلهم لأنهم يجتمعون مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف وهو الأب الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم وقريش فوقه وأنها لمنقبة عظيمة لهم .

ومن المعلوم أنه لم يمض قبل يزيد هذا العدد حتى يكون خارجاً عنهم ، ومن أوّله أنه لا يلزم تواليهم وأنهم قد يكونون بفواصل كابن كثير أو من حملهم على الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد بهم الاثنا عشرية فهو حمل بغير دليل .

أما أولاً فظاهر الحديث التتابع .

وأما ثانياً فان الاثني عشر لم يبايعهم المسلمون حتى يسموا أئمة وخلفاء في اصطلاح الأئمة وشروطهم وإن كانوا هم أئمة المسلمين وهداتهم وذرية سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم . فاتباع جادة الصواب أولى وترك العصبية والعناد أجلى وأغلى .

ـ الحديث الرابع : الـذي يتناول يزيـد بعمومه ولا يوجـد حديث يستثنيه من ذلك العموم قوله صلى الله عليه وسلم : « **خير الناس قرني ، ثم الـذين يلونهم ثم الـذين يلونهم** » . وهـذا الحديث ثابت في الصحيحين والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود ، قال المناوي شارح الجامع الصغير ، قال المصنف يشبه أن الحديث متواتر أهـ .

أما البخاري فأخرجـه في الشهادات وفضل الصحابة وغيرهما مـن صحيحه . ومسلم في الفضائل . والنسائي في النذور كما في شرح رياض الصالحين وفي المنـاوي والنسائي في الشروط وابن ماجـة في الاحـكام ، وأخرجه الطبراني والحاكم عن جعدة بن هبيرة ، والحديث بألفاظ مختلفة ومعـان متوافقة .

قال شارح رياض الصالحين : قال السيوطي في التوشيح : القرن أهل زمان واحـد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، والأصح أن لا يضبط بمدة ، فقرنه صلى الله عليه وسلم هم الصحابة ، وكانت مدتهم من المبعث الى آخر من مات من الصحابة مائة وعشرين سنة أهـ .

وذكر ابن كثير في كتاب البداية والنهاية في ترجمة يزيد ما له وما عليـه وساق هذا الحديث وقال عن زرارة بن أبي أوفى : أن القرن عشرون ومائة سنة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قرن وكان آخره موت يزيـد بن معـاوية أهـ .

ومن الأكاذيب التاريخية ما يروونه في موت الحسن رضي الله عنه ، وذكره الحلبي في سيرته كعادته في عدم تحري الأخبار ، قال : وكان مـن جملة ما اشترطه معاوية رضي الله عنه أن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعده ، ولا يعهد الى أحد من بعده عهداً . وقيل على أن يكون الأمر للحسن بعده . فلما سم الحسن اتهم بذلك زوجته بنت الأشعث بن قيس وأن ذلك

بدسيسة من يزيد ولد معاوية ووعدها ان يتزوجها وبذل لها مائة ألف درهم حرصاً على أن يكون الأمر له فان معاوية عرض بذلك في حياة الحسن ولم يكشفه الا بعد موته ، ولما جاء الخبر لمعاوية بموته رضي الله عنه قال : يا عجباً من الحسن بن علي شرب شربة من عسل بماء رومة ، يعني بئر رومة ، فقضى نحبه . واتى ابن عباس معاوية وهو لا يعلم الخبر ، فقال له معاوية : هل عندك خبر المدينة ؟ قال : لا . فقال له معاوية : يا ابن عباس احتسب الحسن لا يحزنك الله ولا يسوءك . فأظهر عدم التشوش وقال : اما ما ابقاك الله لي يا أمير المؤمنين فلا يحزني الله ولا يسوءني . فأعطاه على تلك الكلمة ألف ألف . وذكر بعضهم قال : كنا عند الحسن رضي الله عنه ومعنا الحسين رضي الله عنه ، فقال الحسن : لقد سقيت السم مراراً ، وما سقيته مثل هذه المرة ولقد لفظت طائفة من كبدي . فقال له الحسين : أي أخي ومن سقاك ؟ قال : وما تريد ؟ أتريد أن تقتله ؟ قال : نعم . قال : لئن كان الذي أظن فالله أشد نقمة ، ولئن كان غيره ما أحب ان تقتل بي بريئاً . وكان الحسن رضي الله عنه رجلاً حليماً لم يسمع منه كلمة فحش، وكان مروان وهو والٍ على المدينة يسبه ويسب علياً كرم الله وجهه كل جمعة على المنبر ، فقيل له في ذلك . فقال : لا تمحو عنه شيئاً بأن أسبه ، ولكن موعدي وموعده الله ، فان كان صادقاً جازاه الله بصدقه ، وان كان كاذباً فالله أشد نقمة أهـ .

ولعمري ان هذه القصة من أفرى الفريات من أولها الى آخرها ، وليت ناقلها ذكر السند حتى نمحصه ونعلم الراوي لها ، وهل كان أهل البيت قليلي الأنصار حتى يسكت الحسين عن ذلك وهو حي ؟ وهل يستطيع مروان أن يسب علياً على المنبر وما أحد يجيبه ؟ وما هذه الأقاصيص إلا لإثارة حمية أحباب أهل البيت وإيقاد الفتن بين المسلمين ، ولكن حبذا لو

ذكر سند شيء منها حتى نناصب العداء للكاذب ونكل أمـره الى المنتقم الجبـار .

هذا وقد تضمن ما ذكرنا أربعة أحاديث صحاحاً ذكرها البخاري وغيره تخالف جميع هذه الأكاذيب، وتدل دلالة صريحة على حسن حال بني أمية، فليصدق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد ، وليركب مـن أراد أسنة التأويل والعناد ، وتقدمت مفصلة .

وما أحسن جواب معاوية لعمر بن حـزم حين قال : لم يبق إلا ابني وابناؤهم ، ثم دعا على ابنه إن لم يصلح لهذا الأمر ، مما يدل على تحريه الحق والصواب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم .

وما أحسن فعل يزيد بآل البيت حين وفدوا اليه مما لو كانوا أعـز الناس اليه لم يقم لهم بما قام لأهل البيت رضي الله عنهم ، فهذه مناقب ثابتة لا شك فيها ، ومساويه فيها وفي سندها كل الشك والريب والله أعلم بالغيب وانظر وتذكر ما قدمناه مما نقله الشيخ سنان الدين الأماسي في كتابه تبيين المحارم الذي هو معتمد فقهاء الحنفية المتأخرين في باب الغلول من كتابه لأهل البصرة ما يدل على ورعه الزائد ولا حول ولا قوة ألا بالله .

# في الكلام على بني أميّة إجمالاً

أما الكلام على معاوية ويزيد فقد تقدم منه ما فيه تنبيه لذوي العقول والأفهام وردع عن الطعن بهما بما يقنع من أراد الحق والصواب ، وأما المعاند فلا يفيده كثرة الأدلة والخطاب . ونكتفي بكل فصل بالقليل من الكلام، ونجمل بهذا الفصل الكلام على بني أمية بما يحسن الإلمام به فنقول :

من ذلك أن ملوك بني أمية اعتمد المحدثون روايتهم ، وأن الطعن بهم يؤدي الى الطعن في الدين وثبت ذلك ما يأتي .

روي عن هشام بن عبد الملك كما نقله ابن كثير في تفسيره آخر سورة البقرة تحت قوله تعالى : ( **يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربـا** ) . قال الحاكم في مستدركه ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا يحيى حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا عمرو بن ثابت حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن عبد الله عن سهل بن حنيف أن سهلاً حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (( **من أعـان مجاهداً في**

**سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرته أو مكاتباً في رقبته ، أظلّه الله في ظـله يوم لا ظـلّ الا ظـله »** . ثم قال صحيح الأسناد ولم يخرجاه أهـ .

وأما معاوية الصغير بن يزيد بن معاوية فتقدم انه خلع نفسه ولم يعقب ولم يستقم بالخلافة الا اربعين يوماً وقيل خمسة أشهر بعد وفاة أبيه يزيد سنة اربع وستين ، وقام بالخلافة بعده مروان بن الحكم بن أبي العاص بن امية بن عبد شمس، وبويع له بتلك السنة ، وتوفي سنة خمس وستين وكان عمره ثلاثاً وثمانين سنة ، وخلافته عشرة أشهر ، مات شهيداً قتلته زوجته وجواريها ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو صبي وما روي من لعن النبي له فلم يثبت ، وإنما هو من وضع أعداء العلم وأهله ، وإليك بعض ما قيل من التشنيع عليهم بغير حق ثم رده .

نقـل في حياة الحيوان ما نصه : روى الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنـه قال : كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعو له ، فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال : **« هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون »** . ثم قال صحيح الاسناد . ثم روى أيضا عن عمرو بن مرة الجهني وكانت له صحبة ، أن الحكم بن أبي العاص استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فعرف صوته فقال : **« ائذنوا له ، عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله إلا المؤمن منهم ، وقليل ما هم يترفهون في الدنيا ، ويضيعون الآخـرة ، ذووا مكر وخديعة ، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق »** أهـ .

وفي كتاب الاشاعة في اشراط الساعة جميع ما ورد في ذم بني أمية مما هبّ ودب فمما قال : وعن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« رأيت في النوم بني الحكم ينزوون عن منبري كما تنزو القـردة »** . قـال : فما رؤي النبي صلى الله عليـه وسلم ضاحكاً مستجمعاً حتى توفي ، رواه أبو يعلي والحاكم والبيهقي . وعن ابن المسيب

قال : رأى النبي صلى الله عليـــه وسلم بني أمية على منبرة فساءه ذلك فأوحى الله اليه انما هي دنيا أعطوها فقرت عينه ، رواه البيهقي .

وعن الحسن بن علي عليهما السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت : **( إنا أعطيناك الكــوثر )** ، ونزلت **( إنا أنزلناه في ليــلة القــدر وما أدراك ما ليــلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر )** يملكها بنو أمية . قال القاسم ابن اليتيم بن الفضل : فحسبنا مــدة ملك بني أمية فاذا هي الف شهر لا تزيد ولا تنقص . رواه الترمذي والحاكم والبيهقي . وعن الزهري وعطاء الخراساني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحكم : (( **كأني أنظــر الى بنيك يصعدون منبري وينزلون** )) ، رواه الفاكهي . وعن جبير بن مطعم قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمرّ الحكم بن العاص ، فقــال النبي صلى الله عليه وسلم : (( **ويل لأمتي مما في صلب هذا** )) وغــير ذلك كثير .

وأن هذه الأحاديث والأخبار ليغنينا ظاهرها الدال على الكذب عن مناقشة سندها . فكم نهى النبي صلى الله عليــه وسلم عن اللعن ، وكم أنزل أصحابه عــن الابل التي كانوا يلعنونها ، وقــد قال عليــه السلام : (( **ما بعثت لعــاناً** )) .

وقال عليه السلام في حق الذي استأذن في الدخول عليه (( **ائذنوا له** )) ، فلما خــرج قال : (( **بئس أخو العشيرة أو بئس ابن العشيرة** )) فقالت له عائشة : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت اليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( **يا عائشة متى عهدتني فحّاشاً ، ان شرّ الناس عنـد الله منزلة يوم القيمة من تركه الناس اتقاء شرّه** )) ، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقــابل أحــداً بلعن أو شتم .

فمن أين هذه الأحاديث التي كثر اللعن في رواياتها لبني أمية التي لم يرد مثلها في حق أبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف والوليد بن المغيرة وعبد الله بن سلول وغيرهم من رؤساء المشركين مع شدة كفرهم وعنادهم . ومع قوة إسلام هؤلاء الحامين لبيضة الدين والذين فتحوا اقاليم الدنيا وأعلنوا الاسلام في كل مكان ، فما الداعي لكثرة اللعن فيهم والإعراض عمن هو أشد واقبح فعلا وعملا واعتقاداً منهم ؟ فلا شك في وضع هذه الأحاديث ولا حول ولا قوة الا بالله . كيف وقد ذكر صاحب حياة الحيوان نفسه عن مروان أنه لحق النبي صلى الله عليه وسلم وهو صبي وولي نيابة المدينة مرات ، وقد ذكر أحمد زكي المصري مترجم كتاب الرق في الاسلام في ترجمة عبيد الله بن عمر رضي الله عنه ما نصه : وأراد مروان بن الحكم أن يبايعه بالخلافة ، وقال له : ان أهل الشام يريدونك ، قال : فكيف أصنع بأهل العراق ، قال : نقاتلهم ، قال : والله لو أطاعني الناس كلهم الا أهل فلك قرية صغيرة بخيبر فيها نخل وعين وان قاتلتهم يقتل منهم رجل واحد لم أفعل . فتركه مروان وانصرف . أي مما يدل على زهد بني أمية بالحكم وارتيادهم الأصلح له .

ولقد نسي من ذكر مساويهم أن يذكر شيئاً من محاسنهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (( **اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم** )). وأي داع للبغض الذي يحمل الانسان على ما لا يفيده الا الآثام ؟ وقد قيل : اذا رأيت قساوة في قلبك ، ووهناً في بدنك ، وحرماناً في رزقك ، فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك .

وقد ذكر لمروان هذا محاسن تبعد عنه كل ما افتري به عليه ، فكم اعتمد عليه القراء بنقل قراءات شاذة وصحيحة . منها ما ذكره ابن كثير في تفسير سورة يونس تحت قوله تعالى : ( **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت** ) . قال : وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ،

حدثنا ابن عيينه عن عمرو بن دينار عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت مروان - يعني ابن الحكم - يقرأ على المنبر : **وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها .** قال قد قرأتها وليست في المصحف ، فقال عباس بن عبد الله بن عباس : هكذا يقرؤها ابن عباس . فأرسلوا الى ابن عباس ، قال : هكذا أقرأني أبي بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير اه .

وفي البحر لأبي حيان في تفسير سورة براءة تحت قوله تعالى : **( ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة )** ما نصه : قرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية **( لأعدوا له عـده )** بضم العين من غير تاء . والفراء يقول : تسقط التاء للاضافة وجعل من ذلك **( وإقام الصلاة )**، أي: وإقامة الصلاة. وورد ذلك في عدة أبيات من لسان العرب ولكن لا نقيس ذلك ، وانما نقف فيه مع مورد السماع . قال صاحب اللوامح : لما أضاف جعل الكناية نائبة عن التاء فأسقطها ، وذلك لأن العد بغير تاء ولا تقديرها هو البثر الذي يخرج في الوجه ، وقال أبو حاتم : هو جمع عدة ، كبرة وبر ، ودرة ودر والوجه فيه عُدَد ، ولكن لا يوافق خط المصحف .

ويكفيه ثقة واطمئناناً أنه من رجال سلسلة البخاري الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله ، والذي أعتمد ما خرجه عنه جميع المحدثين ، ففي التفسير لابن كثير على سورة الفتح في ذكر قصة الحديبية قال ما نصه : وقد رواه البخاري رحمه الله في صحيحه ، فساقه بسياقةٍ حسنة مطولة بزيادات جيدة ، فقال في كتاب الشروط من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق بن معمر ، أخبرني الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره

وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له مـن خزاعة ، ثم سار حتى كان بغـدير الأشطاط اتاه عينه فقال : ان قريشاً قد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك ، فقال صلى الله عليه وسلم : (( **أشيروا أيها الناس عليّ، أترون ان نميل على عيالهم وذراري هؤلاء ..** )) الخ الحديث والقصة وهي مطولة ، وذكرها ابن كثير عن الامام أحمد بنفس السند وقال السيوطي في كتابه تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي آخر الكتاب ما نصه : النوع الثامن والسبعون ما رواه الصحابة عن التابعين عن الصحابة ، هذا النوع زدته انا وقد الف فيه الخطيب ، وقد أنكر بعضهم وجود ذلك وقال إن رواية الصحابة عن التابعين انما هي في الاسرائيليات والموقوفات ، وليس كذلـك .

فمن ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي عن مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت : أن النبي صلى الله عليه وسلم أملى عليه ( **لا يستوي القاعدون مـن المؤمـنين** ) فجـاء ابن أم مكتوم الحديث ، رواه البخـاري والترمـذي والنسـائي اهـ .

وفي مسند أبي داوود الطيالس في أسانيد ابن عباس ، قـال : حدثنا هشام عن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : (( **يؤدي المكاتب بقدر ما عتق من دية الحـر ، وبقدر ما رق من ديـة العبـد** )) قال : وكان علي ومروان يقولان ذلك اهـ .

فهنا اعتمد البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود الطيالس بصريح كلامهم الرواية عنه وأقواله وقراءاته ، فماذا بعد الحق الا الضلال .

وفي كتاب قانون الموضوعات لمحمد طاهر بن علي الفتَني الهندي المتوفى سنة ٩٨٦ هـ عن مقدمة فتح الباري لابن حجر ما نصه : مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن امية ابن عم عثمان بن عفان رضي الله عنه يقال له رؤيه

وإن ثبت فلا يعرج على من تكلم فيه لأجل الولاية ، وقد قال عروة بن الزبير كان لا يهتم في الحديث ، وقال : روى عنه سهل بن سعد الصحابي اعتماداً على صدقه . خرّج البخاري في صحيحه في تفسير سورة النساء قال : حدثنا اسماعيل بن عبد الله قال : حدثني ابراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال : حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد ، فأقبلت حتى جلست الى جنبه ، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه **( لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله )** فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها عليّ ، فقال : يا رسول الله ، لو استطعت الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي ، ثم سري عنه فأنزل **( غير أولي الضرر )** . أخرجه الترمذي في تفسير سورة النساء .

حدثنا عبد بن حميد حدثني يعقوب بن ابراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان الخ ثم قال : هذا حديث حسن صحيح ، وفي هذا الحديث رواية رجل عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل من التابعين ، روى سهل بن سعد الأنصاري عن مروان بن الحكم ، ومروان لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وهو من التابعين أهـ .

أقول : قال شارح الترمذي الحافظ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري ١٢٨٣ - ١٣٥٣ في تفسير سورة النساء تحت قوله تعالى : **( غير أولي الضرر )** ما نصه : قال الحافظ في الفتح بعد نقل كلام الترمذي هذا ما لفظه : لا يلزم من عدم السماع عدم الصحبة ، والأولى ما قال فيه البخاري لم يره صلى الله عليه وسلم . وقد ذكره ابن عبد البر في الصحابة لأنه ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبل عام أحد وقيل عام الخندق،

وثبت عن مروان أنه قال لما طلب الخلافة فذكروا له ابن عمر : ليس ابن عمر بأفقه مني ولكنه اسن مني وكانت له صحبته ، فهذا اعتراف منه بعدم صحبته ، وانما لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان سماعه ممكناً لأن النبي صلى الله عليه وسلم نفى أباه الى الطائف فلم يرده الا عثمان لما استخلف اهـ .

وانما نقموا عليه أنه قتل طلحة يوم الجمل، ثم شهر السيف في الخلافة حتى جرى ما جرى ، فأما قتل طلحة فكان بالتأويل اهـ .

قلت وقد كان يختلف اليه الصحابة ويأمر وينهى بينهم ويصلي إماماً بهم، وهذا لاشك فيه لأن الخلفاء هم الذين كانوا يتولون الامامة الصغرى مع الكبرى ، بل أمراؤهم أيضاً كانوا يصلون أئمة بالصحابة ، حتى كان الحجاج يصلي بهم ومحال أن يسكتوا أو يقتدوا بمن لا يرونه أهلاً للامامة .

وأما اختلافهم اليه وحكمه فيهم ، فقد روى الشيخان واللفظ للبخاري قال : حدثنا آدم قال : حدثنا سلمان بن المغيرة قال : حدثنا حميد بن هلال العدوي قال : حدثنا أبو صالح السمان قال : رأيت أبا سعيد الخدري في يوم جمعة يصلي الى شيء يستره الناس ، فأراد شاب من بني أبي معيط أن يجتاز بين يديه ، فدفع أبو سعيد في صدره ، فنظر الشاب فلم يجد مساغاً الا بين يديه فعاد ليجتاز ، فدفعه أبو سعيد أشد من الاولى ، فنال من أبي سعيد ، ثم دخل على مروان فحكى اليه ما لقي من أبي سعيد ، ودخل ابو سعيد خلفه على مروان . فقال ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيد . قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : **« اذا صلى أحد الى شيء يستره من الناس ، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه ، فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان »** اهـ .

وفي هذا الحديث ما يدل على فضل مروان بسهولة حجابه والدخول عليه وقضائه بما امتثل به أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قام بالأمر بعــده ابنه عبد الملك وهــو اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام ، وابطل استبداد الاروام بذلك ، ووحد سكة المسلمين بعــد ان كانت متفرقة ، حيث كان كــل عشرة مثاقيل وزن عشرة دراهم ، وستة مثاقيل وزن عشرة دراهم ، وخمسة مثاقيل وزن عشرة دراهم هي السمرية الخفاف ، فالمجموع أحد وعشرون ديناراً بوزن ثلاثين مجموعة من ثلاثــة أصناف ، فقسم الدنانير على ثلاثة فخرج سبعة جعلها بوزن عشرة دراهم ، فكل دينار درهم وثلاثة أسباع درهم .

وقيل ان الشعبي وصف عبد الملك بن مروان فقال : ما علمته الا آخذاً بثلاث تاركاً لثلاث . آخذاً : بحسن الحديث اذا حدث ، وبحسن الاستماع اذا حُدّث ، وبأيسر المؤنــة اذا خولف . تاركاً : مجاوبة اللئيم ، ومماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج .

قال في حياة الحيوان : كان قبل الخلافة متعبداً ، ناسكاً ، عالمــاً ، فقيهاً ، واسع العلم ، وكان طويل العنق ، رقيق الوجه مشدود الاسنان ، حازماً لا يكل أمره الى سواه ، وكان يلقب بحمامة المسجد ، لقبه به ابن عمر . وقيل لابن عمر رضي الله عنــه أرأيت لو تفانى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن نسأل بعدهم ؟ فقال : سلوا هذا الفتى يعني عبد الملك . توفي في شوال سنة ست وثمانين وله ثلاث وستون سنة ، وقيــل ستون . وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً ، منهــا ثمان سنين مزاحماً لابن الزبير ثم أنفرد بمملكة الدنيا الى أن مات رحمــة الله عليــه أهـ .

وفي فوات الوفيات لابن الكتبي في ترجمته : كان عابداً ناسكاً بالمدينة ، وشهد يوم الدار مع أبيه وهو ابن عشرين سنة . قال ابن سعد : واستعمله

معاوية على المدينة وهو ابن ست عشرة سنة ، وسمع عثمان وأبا هريرة وابا سعيد وام سلمة وابن عمر ومعاوية . قال أبو الزناد : فقهاء المدينة سعيد بن المسيب ، وعبد الملك بن مروان ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب اهـ . . . وذكر ذلك السيوطي في كتابه تدريب الراوي شرح تقريب النواوي آخره في الباب الثالث والتسعين في معرفة الحفاظ .

وبعد وفاة عبد الملك قام بالأمر بعده ابنه الوليد ، وليس في سيرته كبير اختلاق لتشويه سمعته كالوليد الثاني ، ويكفيه فخراً كغيره من بني أمية ، انتشار الفتوحات الاسلامية في عصره حتى وصلت الى بلاد الصين . قال ابن جرير في تاريخه : حدثني عمر قال : حدثني علي قال : كان الوليد ابن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد مسجد دمشق ومسجد المدينة ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً ، وفتح في ولايته فتوح عظام . فتح موسى بن نصير الأندلس ، وفتح قتيبة كاشغر ، وفتح محمد بن القاسم الهند .

ثم ذكر عن غزوة قتيبة بن مسلم الصين سنة ٩٦ من الهجرة سنة وفاة الوليد قال : وأخبرنا يحيى بن زكريا الهمداني عن أشياخ من أهل خراسان والحكم بن عثمان قال : حدثني شيخ من أهل خراسان قال :

توغل قتيبة بن مسلم حتى قرب من الصين ، قال : فكتب ملك الصين أن ابعث الينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم .

فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلا ، وقال بعضهم عشرة من أفناء القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس بعد ما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه ، فكلمهم قتيبة وفاطنهم فرأى عقولا وجمالا ، فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخزوز

والوشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها . قال وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً بسيط اللسان فقال : يا هبيرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب ، وقل ما شئت أقله وآخذ به . قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فاذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبي خراجهم .

قال فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج . فلما قدموا أرسل اليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل ثم مسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه ، فنهضوا فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هم الا نساء ، ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم الا انتشر ما عنده .

قال فلما كان الغد أرسل اليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا . فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الاولى وهم أولئك .

فلما كان اليوم الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف والرماح ، وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا ، فنظر اليهم صاحب العين فرأى أمثال الجبال مقبلة . فلما دنوا ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمرين ، فقيل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لِمَا دخل قلوبهم من خوفهم . قال فانصرفوا فركبوا خيولهم ،

واختلجوا رماحهم ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها . فقال الملك لاصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط .

فلما امسى ارسل اليهم الملك ان ابعثوا الي زعيمكم وأفضلكم رجلا . فبعثوا اليه هبيرة . فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وانه ليس احد يمنعكم مني ، وانتم في بلادي وانما انتم بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن امر فان لم تصدقني قتلتكم ! قال سل . قال : لمَ صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال : أما زينا الأول فلباسنا في اهالينا وريحنا عندهم ، وأما يومنا الثاني فاذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا ، فاذا هاجنا هَيْج وفزع كنا هكذا . قال : ما أحسن ما دبرتم دهركم فانصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه . قال له : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالاً اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه . قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطى الجزية . قال : فإنا نخرجه من يمينه ، فنبعث اليه بتراب من أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها . قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم . فساروا فقدموا ما بعث به فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمة وردهم ، ووطىء التراب .

وكان قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم من أمراء الحجاج الذين ولاهم على الفتوحات ، ففتح قتيبة بن مسلم كاشغر ، وغزا الصين ، وفتح محمد

ابن القاسم الهند وأقام بها . ومات الحجاج سنة ( ٩٥ ) قبل سنة من موت الوليد . قال عمر : قال علي وأخبرنا أبو عاصم الزيادي عن انهلوات الكلبي قال : كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله داهراً وجاءنا كتاب من الحجاج أن اخلعوا سليمان ، فلما ولي سليمان جاءنا كتاب أن ازرعوا واحرثوا فلا شام لكم . فلم نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبد العزيز فأقفلنا .

ثم قتل قتيبة سنة ٩٦ أيضا لأنه كان بايع الحجاج بن يوسف على خلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد بعد الوليد ولم يتم هذا الأمر. فلما تولى سليمان انتقض على قتيبة من كان معه من الجند وقتلوه ، رحمه الله تعالى ما أعظم أثره في فتوح المشرق . ثم خلفه يزيد بن المهلب الذي ولاه سليمان ابن عبد الملك بعد قتل قتيبة .

ومن مآثر الوليد ما ذكره ابن جرير في تاريخه ـ الذي نقلنا عنه كل ما ذكر ـ في وقائع ٩٦ قال : حدثني عمر قال : حدثنا علي قال : حج الوليد بن عبد الملك ، وحج محمد بن يوسف من اليمن وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين للوليد : يا أمير المؤمنين اجعل لي هدية محمد بن يوسف . فأمر بصرفها اليها . فجاءت رسل أم البنين الى محمد منها فأبى وقال : حتى ينظر اليها أمير المؤمنين فيرى رأيه . وكانت هدايا كثيرة . فقالت : يا أمير المؤمنين ، انك أمرت بهدايا محمد أن تصرف الي ولا حاجة لى بها . قال : ولم . قالت : بلغني أنه غصبها الناس وكلفهم عملها وظلمهم . وحمل محمد المتاع الى الوليد فقال : بلغني أنك أصبتها غصباً ؟ قال : معاذ الله . فأمر فاستحلف بين الركن والمقام خمسين يميناً بالله ما غصب شيئاً منها ولا ظلم أحداً ولا أصابها الا من طيِّب . فحلف . فقبلها الوليد ودفعها الى أم البنين . فمات محمد بن يوسف باليمن ، أصابه داء تقطع منه أهـ .

فانظر الى ورع الوليد كيف لم يقبل هدية عامله حتى حلف له أنها مال طيّب رحمه الله وعفا عنا وعنه وعن المسلمين . ويعد من مفاخره عمارته مسجد دمشق الكبير . وقد ذكر ابن خلدون انه استمد في عمارته ملوك الروم فأمدوه بمائة الف مثقال من الذهب ، ومائة من الفعلة ، واربعين حملا من الفسيفساء ، وبعث بذلك كله الى عمر بن عبد ألعزيز واستكثر معهم من فعلة الشام ولم يتم بحياته ، وانما أتمه من بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك . وتوفي الوليد في صفر سنة ست وتسعين ودفن في مقابر باب الصغير .

وقام بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ، وللوليد وسليمان مآثر في التاريخ عظيمة لا تنكر . ومفاخر وتقوى شهيرة على مثلهما لا تستكثر ، واني لا أقطع بصدقها ولكن قلبي للتصديق بها أميل ، كما اني أعتقد بكذب ما يشينهما لأن قرب العهد بخيرة الأسلاف يبعد ما ذكر عنهما من الشين والاعتساف ، ويكفي سليمان فخراً أنه فتحت في أيامه القسطنطينة سنة ثمان وتسعين على يد أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وأقام بها . وتوغل يزيد بن المهلب في بلاد ألمشرق الذي ولاه سليمان على ما كان عليه قتيبة بن مسلم بعد قتله رحمه الله .

وفي تاريخ الخميس للشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ما نصه : ومما يحكى من محاسنه أن رجلا دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين انشدك الله والأذان . فقال سليمان : انشدك الله فقد عرفناه ، فما الأذان ؟ قال: قوله تعالى ( **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ) فقال له سليمان: وما ظلامتك ؟ فقال : ضيعتي فلانه غلبني عليها عاملك فلان . فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده بالأرض قال : والله لا رفعت خدي من الأرض حتى يكتب له برد ضيعته . فكتب الكتاب وهو واضع خده

لما سمع كلام ربه الذي خلقه وخوله نعمه خشي على نفسه لعن الله وطرده رحمه الله .

واتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً ومشيراً له كذا في حياة الحيوان ، وفي الجملة : هو من خيار ملوك بني امية فقد قرب ابن عمه عمر وجعله ولي عهده بالخلافة وليس له عهد فيها ، وانما العهد ليزيد وهشام ، فادخل عمر قبلهما وبايع الناس على العهد وهو مكتوب وفيه عمر بن عبد العزيز ثم يزيد وهشام ، فصحت البيعة ، وفي المختصر الجامع توفي سليمان بذات الجنب بمرج دابق من أرض قنسرين لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ، وله خمس وأربعون سنة ، وقيل تسع وثلاثون سنة ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز ، وكانت خلافته سنتين وثمانية اشهر الا خمسة ايام اه .

وقام بالأمر بعده عمر بن عبد العزيز وهذا مما اتفق المسلمون على حسن سيرته واحيائه سنة العمرين رضي الله عنهم ، وتوفي في رجب سنة احدى ومائة ، وقبره بدير سمعان رضي الله عنه .

ثم قام بعده يزيد بن عبد الملك ، وفي سيرته ما ذكروا انه افتتن بجارية عنده اسمها حبابه ، والأمر في ذلك سهل ، ولكن ما غالوا به انه لم ينتفع به بعد ذلك للهوه بها امر يكذبه العقل ويبعده الحس ، وكم شاهدنا وسمعنا من هو أكثر حباً لمعشوقه منه لم يصدر عنه بعض ماذكر فيه معها، مع أن معشوقة يزيد عنده والعشق ينقص بكثرة الترداد والاجتماع بل يكاد يكون حباً عادياً ، فسبحانك اللهم ما أقبح واجهل الكذابين ، وقد ذكروا في خصائصه انه يزيد بالسماع وينقص بالجماع والرؤية من اسبابه .

وحسبك تزكية له ما نقل عنه العلماء الأكابر من الأقوال في الدين كابن كثير في تفسيره ، وجعله له في مصاف كبار الفقهاء والمحدثين مع بعد العهد

بينهما وفرق بين ما ينقله المؤرخون عن الملوك وبين ما ينقله المحدثون لاسيما وابن كثير ممن اتفق على جلالة قدره وعلمه وحفظه ، فقد ذكر في تفسير سورة البقرة تحت قوله تعالى : **( والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشراً )** حديث عمرو بن العاص ب (( **لاتلبسوا علينا سنة نبينا ، عدة أم الولد اذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشراً** )) ، قال ابن كثير : وقد ذهب الى القول بهذا الحديث طائفة من السلف منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين وأبو عياض والزهري وعمر بن عبد العزيز وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو امير المؤمنين وبه يقول الأوزاعي واسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل في روايته عنه اه .

فانظر كيف يستدل المحدثون بأقوالهم وأوامرهم ، ولو لم يستوثقوهم لما رووا عنهم مع شدة تحريهم في الرواية ونقلتها فلينصف المنصفون ، وليتق الله المرجفون ، ثم توفي في شعبان سنة ( ١٠٥ ) خمس ومائة وقام بعده أخوه هشام وتوفي في ربيع سنة خمس وعشرين ومائة رحمه الله تعالى ، وقام بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهذا الوليد الثاني الذي كثر الافتراء عليه ، ودسوا في سيرته ما شوهوا سمعته فقاتل الله كل كذاب أفاك .

قال في حياة الحيوان في ترجمته : وكان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً ، وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث ، وكان جواداً مفضالاً . ومع ذلك لم يكن في بني أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر الأمة من الوليد بن يزيد . يقال أنه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فحلف أن لا يصلي بالناس الا هي فلبست ثيابه وتنكرت ، وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى ، ويقال انه اصطنع بركة من خمر وكان اذا طرب ألقى نفسه فيها وشرب

حتى يبين النقص في اطرافها . وحكى الماوردي في كتاب ادب الدين والدنيا عنـه تفاءل يوماً بالمصحف فخرج قوله تعـالى : **( واستفتحوا وخاب كل جبـار عنيد )** فمزق المصحف وانشأ يقول :

أتوعـد كل جبـار عنيـد فهـا انا ذاك جبـار عنيـد

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليـد

فلم يلبث الا أياماً يسيرة حتى قتل شرّ قتلة ، وصلب راسه على قصره ثم على أعلى سور ببلده اهـ .

وقد جاء في الحديث : **ليكونن في هـذه الأمـة رجل يقال له الوليـد هو أشر من فرعون** ، فأوله العلماء الوليد بن يزيد هذا ، ولما دخلوا عليـه في قصره نهى أصحابه عن القتال وقال : يوم كيوم عثمان . فقيـل له : ولا سواء . فقطع راسه وطيف به في دمشق ثم نصب على قصره ثم على اعلى سور في دمشق في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة ، وكانت خلافته سنة واحدة ، وكان من أجمل الناس وأحسنهم واقواهم واجودهم شعراً أهـ . بعض ما في حياة الحيوان .

وأعدل الأقوال فيه ما قاله سيد المؤرخين ابن خلدون : ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من ألهوى والمجون حتى نسبت اليه في ذلك كثير من الشنائع مثل رميه المصحف بالسهام حين استفتح فوقع على قوله تعـالى : **( وخاب كل جبار عنيد )**، وينشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما، ولقد ساءت المقالة فيه كثيرا ، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه ، وقالوا انها من شناعات الأعداء الصقوها به . قال المدائني : دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله : ممن انت ؟ فقال : من قريش . قال : من أيهـا ؟ فوجم ، فقال : قل وانت آمن ولو انك مروان . فقال : انا ابن الغمـر بن يزيد . فقال : رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص فانه قتل خليفة مجمعاً عليه ، ارفع حوائجك فرفعها وقضاها .

فذكر الوليد فقال المهدي : كان زنديقاً . فقام ابن علانة الفقيه فقال : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً ! لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه ، ويراه في طهارته وصلاته ، فكان اذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصبية المصبغة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويؤتى بثياب بيض نقية فيلبسها ويشتغل بربه ، أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله ؟ فقال المهدي : بارك الله عليك يا ابن علانة ، وانما كان الرجل محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته وبني عمومته مع لهو كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه ، وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ ، قال يوماً لهشام يعزيه في مسلمة أخيه : ان عقبى من بقي لحوق من مضى ، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى ، واختل الثغر فهوى ، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف ، فتزودوا فان خير الزاد التقوى . فأعرض هشام وسكت القوم .

ثم ذكر سبب مقتله : أن بني عمه انتقضوا عليه ونالوا من عرضه ، فعاملهم بالشدة والقسوة وضرب بعضهم وحبس بعضهم ، فصاروا يوشون للناس عليه الوشايات ويكيدونه ، وأتوا الى ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، فأرادوه على البيعة حتى قام على الوليد فقتله . ولما أرادوا قتله دخل القصر وأغلق الباب وطلب الكلام من أعلى القصر ، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فذكره لجرمه وفعله فيهم ، فقال ابن عنبسة : انا ما ننقم عليك في أنفسنا ، وانما ننقم عليك فيما حرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله . قال : حسبك الله يا أخا السكاسك ، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ، وان فيما أحل الله سعة عما ذكرت . ثم رجع الى الدار فجلس يقرأ في المصحف وقال : يوم كيوم عثمان . فدخلوا عليه وقتلوه . هذا بعض ما ذكر ابن خلدون .

ولكن لسوء سمعة الوليد هذا سبب وأي سبب ، ذلك ان أباه يزيد بن عبد الملك عهد بالخلافة لأخيه هشام بن عبد الملك ، وكان ابنه الوليد صغيراً ابن احدى عشرة سنة ، فلم يمت يزيد حتى صار عمر ابنه خمس عشرة سنة ، فندم يزيد على استخلافه هشاماً كما في تاريخ ابن جرير والطبري ، وكان اذا نظر الى ابنه الوليد قال : الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك ، فتوفي يزيد بن عبد الملك وابنـه الوليد ابن خمس عشرة سـنة ، وولي هشام وهو للوليد مكرم معظم مقرب . ثم ذكر ابن جرير ما وسم به الوليد من سوء السيرة كغيره من المؤرخين الى أن قال : وكان هشام يعيب الوليـد وينتقصه ، وكثر عبثه به وبأصحابه وتقعيره به ، فلما رأى ذلك الوليد خرج وخرج معه ناس من خاصته ومواليه ، فنزل بالأزرق بين أرض بلقيس وفزاره على ماء يقال له الأغدف ، فلم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام ، ولما أتاه البشير بالخلافة قال هؤلاء رسل هشام نسأل الله من خيرهم أهـ .

فهكذا كان حاله مع هشام ، وأن هشاماً استقام في الخلافة عشرين سنة ، وهو يطارد الوليد ويفل عنه صحبه ويسيء سمعته ، ويوغر صدور الناس عليه ، هذا ما كان السبب في عـدم استقامة أموره لما ولي الخلافة حتى آل أمره الى ما آل ، ونعوذ بالله من سوء المآل ، وليس كما ينقل عنه من سوء السمعة ، أو الفسق والضلال ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

والأعجب من ذلك في سريان ما نسب اليه من البيتين الذين نزه ابن خلدون كتابه عن ذكرهما حتى ذكرهما في روح البيان بتفسير سورة الأنفال، - لما علمت من هذا السبب العظيم - ولكن دولة بني عثمان التي ينتسب اليها صاحب روح البيان ، كانت متشربة بكره بني أميـة وكانوا يشوهون سمعتهم لكل من نشأ في مدارسهم التركية، وكانوا يروون في كتب تواريخهم أفظع الكذبات التاريخية ، ويدرسونها لأولاد الكتاتيب . بهذه الطرق سرت

سوء سمعة بني أمية الذين فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً ، ووطدوا الاسلام والعروبة سلماً وحرباً ، ولم يشأ مروان الحمار آخر ملوكهم أن يسترد احد أمرائه من الأطراف ليوطد ملكه ويقهر أعداءه حتى لزمه هذا اللقب بسبب قصوره في حق نفسه ، ولا أشبهه الا بعثمان بن عفان رضي‌الله عنه حين استسلم للقدر ، ولم يتخذ لنفسه جنداً يدفع به عن نفسه الخطر ، كما كان هذا شأن بني أمية كلهم انما كانوا يعتمدون على وفاء الاسلام والعروبة بالبيعة التي يأخذونها من أعناق الرجال . على أن عداوة ملوك الأتراك الذين حكموا بلاد العرب وأوربا وآسيا وأفريقيا للأمويين سبب عظيم في إلحاق النقائص وتشويه السمعة ، بسبب تأسيس بني أمية ملكاً عظيماً في المغرب حين زال من الشام وقوي وامتد في زمن العباسيين واستمر الى زمن السلطان سليمان التركي ، وما زال الأتراك يضعفون قوة ملوك العرب حتى سلبوه من العباسيين أيضا ، والله سبحانه وارث الأرض ومن عليها وإليه ترجعون .

ثم تولى بعد الوليد ابن عمه يزيد الثالث بن الوليد الأول ابن عبد الملك ابن مروان ، وسمي هذا الخليفة بالناقص لأنه نقص من أرزاق الجند والناس ، وردهم لما كانوا عليه أيام هشام . ومن عدله وحسن سيرته جرى المثل المشهور : **الأشج والناقص أعدلا بني مروان** ، والأشج هو عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد هذا مظهراً للنسك وقراءة القرآن وعلى أخلاق عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ، وكان ذا دين وورع ، وبغتته المنية ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة أعني سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن أربعين سنة ، وقيل ست وأربعين ، وكانت خلافته خمسة أشهر ونصفاً وقيل ستة أشهر .

وقام بالأمر بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعهد من أخيه ، ولم يستقم له الأمر ، فمرة يسلم عليه بالخلافة ، ومرة بالأمارة ،

ومرة لا يسلم عليه بشيء ، وما زالت أموره مضطربة حتى قتله مروان الجعدي الملقب بالحمار ابن محمد بن الحكم ، وفي زمنه ظهرت دولة بني العباس ، وقتلوه سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وهو ابن ست وخمسين سنة، وكانت خلافته خمس سنين ، قيل وشهرين وعشرة أيام ، وهو آخر خلفاء بني أمية ، وهم أربعة عشر أولهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، ثم ابنه يزيد ثم ابنه معاوية ثم مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد بن عبد الملك ثم أخوه سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك أخو الخليفتين ثم ابنه الوليد بن يزيد ثم ابنه يزيد بن الوليد ثم أخوه ابراهيم بن الوليد ثم آخرهم مروان بن محمد وكان بطلا ، شجاعاً مهاباً ذا هيئة ، أبيض ، ربعة ، أشهل ، ضخماً ، كث اللحية ، حازماً سائساً ، ولكن لم ينفعه كل ذلك .

ولم يكتف أعداؤه بما ألصقوه به من التهم حتى أشاعوا عليه هذين اللقبين وهما : الحمار والجعدي . قال ابن خلدون : وكان مروان يلقب بالحمار لحرنه في مواطن الحرب ، وكان أعداؤه يلقبونه الجعدي نسبة الى الجعد بن درهم ، كان يقول بخلق القرآن ، ويتزندق أهـ . ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي ابن كثير ، في تفسير ( **العالمين** ) بسورة الفاتحة ، عن مروان بن محمد ما نصه : نقل الحافظ بن عساكر في ترجمة مروان بن محمد ، وهو أحد خلفاء بني أمية ، وهو يعرف بالجعد ، ويلقب بالحمار أنه قال : خلق الله سبعة عشر ألف عالم ، أهل السماوات وأهل الأرض عالم واحد ، وسائرهم لا يعلمهم الا الله عز وجل .

فاستدلال هؤلاء العلماء بأقوال من ذكر توثيق وتعديل لهم وبالله التوفيق .

* * *

# في ذكر بعض مآثر بني أميّة التي أجمع المؤرّخون عليها

أولها : قصر مدة ملكهم التي قاربت المدة التي وردت في حديث أحكم وضعه أعداؤهم في تفسير قوله تعالى : **( إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر )** يملكها بنو أمية .

وما أدري كيف أوجد هذا الكاذب مناسبة لهذه الآية مع ما قبلها وما بعدها وهي : **( تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر )** . فبهذه المدة القصيرة استطاع هؤلاء القوم أن يعمموا دين الاسلام والعروبة ، ولغة العرب في مشارق الأرض ومغاربها بالفتوحات الدائمة التي لم تزل آثارها باقية حتى الآن ننعم بظلالها .

نعم لقد أحسن وأسس معاوية خلافة الاسلام بالشام ، ولم تزل حتى الآن معقل العروبة والاسلام وملجأ للخاص منهم والعام ، وكهفاً لمن ضاقت عليه بلاده من كل مكان ، تتسع لمن أتاها اتساع الرحم بالولد ، تصديقاً لأحاديث خير من ولد وولد صلى الله عليه وسلم .

معاشر القوم : من ازال معالم الكفر من هذه البلاد غير بني أمية ؟ من دار في خلده أن يجعلها مركز معاوية وقبله أخوه يزيد وابنه يزيد . السلطنة ومقر الحكم ومعقل الاسلام غير داهية العرب والاسلام والسياسة ؟ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

من قام بنصرة الاسلام والعروبة في بلاد المغرب غيرهم ؟ هذه الدولة العباسية التي اغتصبت الملك منهم أضاعت بلاد العرب وتركتها تتخبط حتى أصلاها الأجانب نيران الحرب والتفرقة ، وهذه الدولة التركية التي قامت على أنقاضها ، واستعمرت المسلمين استعماراً جعلت كل بلادهم خراباً ، لقد غفل عنهم الدهر حتى فتحوا الفتوحات ، ولكن أين آثارهم العمرانية التي أسسوها ؟ لم يتركوا بهذه البلاد المسكينة الا الخراب ، وجعلوا بلاد العرب قاحلة يقتل بعضهم بعضاً وينهبون العمران وآلة للتخريب والدمار ، هذه آثارهم وهذا التاريخ شاهد على سوء ادارتهم وإرادتهم حتى بادوا وذهبوا .

لقد صبغ معاوية وبنوا أمية سائر فتوحاتهم بصبغة العروبة والاسلام والمدنية ، صبغة الله التي لا تزول عنها ولا عن أهلها الى قيام الساعة ان شاء الله تعالى .

كما حاول الأتراك تحويل هذه الصبغة وقتل أهلها وتشريدهم ، وقطع العلائق الاسلامية والعربية بحروفهم وكتابتهم ، ثم الافرنسيون بعدهم ، فخانتهم الأحلام ورد الله كيد الجميع في نحرهم .

هذه آثار بني أمية في المغرب يفاخر بها حتى الآن ، لقد أفرغوا عليها قالب بلاد الشام فسموا حمص وغيرها من أسماء وطنهم ، ونبغ منها أئمة وأولياء عظام .

يا امة الانصاف ! من حارب العجم والبربر والصين والهند وكاشفر ؟ ونشر العروبة والاسلام في كل بني البشر ولم يبال بما في دار ملكه من القيام عليه ، مع الخطر الذي يحيكه العباسيون ومن ينتسب لاهل البيت يكيدون الدسائس ويحيكون الأحابيل للايقاع بالأمويين لاسترداد حقهم المغصوب من الأمويين ، والأمويون يشتغلون بالفتوحات الاسلامية غير مبالين بالملك ولا ابهته ولا بالحكم وسلطانه ، عالمين بما في بلادهم من قرب زوال ملكهم ولكن قصدهم وجه الله واليوم الآخر ، لانهم ملوك ورثوا الملك كابراً عن كابر وسئموه فلم تهمهم المظاهر ، نعم كانوا ملوكاً بالعرب قبل الاسلام كما هو منطوق تاريخ الأنام .

وانظر ما يسوء كل منصف مما يلفقه أعداؤهم من القصص التي يلبسونها حلية الأدب من أديب كاذب وبليغ متعصب ، كالقصة التي نقلها المبرد في كامله غير مسلم لها حيث قال : وتزعم الرواة أن رجلا من أهل الكتاب . فنقلها ابن السيد البطليوسي في مقدمة شرح أدب الكاتب بلفظ يشعر بقوتها قال : وروى ابو العباس المبرد في الكامل أن رجلا من أهل الكتاب ورد على معاوية فقال له معاوية : أتجد نعتي في شيء في كتب الله . فقال : أي والله حتى لو كنت في أمة لوضعت عليك يدي من بينها . قال : فكيف تجدني . قال : أجدك أول من يحول الخلافة ملكاً والخشونة ليناً ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم . قال معاوية : فسرى عني ، قال : لا تقبل هذا مني ولكن من نفسك فاختبر هذا الخبر . قال : ثم يكون ماذا ؟ قال : ثم يكون منك رجل شراب للخمر سفاك للدماء يحتجز الأموال ويصطنع الرجال ويجنب الخيول ويبيح حرمة الرسول . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تكون فتنة تتشعب بأقوام حتى يفضي الأمر بها الى رجل أعرف نعته يبيع الآخرة الدائمة بحظ من الدنيا مخسوس ، فيجمع عليه من آلك وليس منك ، لا يزال لعدوه قاهراً وعلى من ناوأه ظاهراً

ويكون له قرين مبير لعين . قال : افتعرفه ان رايته ؟ قال : شد ما ناداه
فأراه من بالشام من بني امية . فقال : ما أراه ههنا ؟ فوجه به الى المدينة
مع ثقات من رسله فاذا بعبد الملك بن مروان يسعى مؤتزراً في يده طائر ،
فقال للرسول : ها هو ذا . ثم صاح به : اي ابو من . قال : ابو الوليد ،
قال : ياأبا الوليد إن بشرتك ببشارة تسرك ماتجعل لي ؟ قال : وما مقدارها
من السرور حتى نعلم مقدارها من الجعل . قال : أن تملك الأرض . قال :
ما لي من مال ، ولكن أرايتني ان تكلفت لك جعلا أنال ذلك قبل وقته ؟
قال : لا . قال: فان حرمتك أتؤخره عن وقته ؟ قال : لا . قال : فحسبك
ما سمعت .

هكذا روى أبو العباس وغيره في هذا الخبر من آلك وليس منك باضافة آل الى الكاف ، وأبو العباس من أئمة اللغة بالحفظ والضبط الى آخر ما قال ابن السيد في الاستدلال على جواز اضافة آل الى الضمير من هذه القصة المكذوبة ، والعجب أن الوضاعين لها يلبسونها هذا اللباس الذي يكون مداراً لاثبات قواعد اللغة مع استغنائهم عنها بغيرها من الأدلة الصحيحة ، وليست هذه القصة بأصح مما ورد في قصة الفيل حين قال عبد المطلب :

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

حتى ندع البيت ونستدل بها ، وآثار الكذب ظاهرة عليها فانه لم يرد مثلها عن سيد الأكوان صلى الله عليه وسلم ، حتى ولا فيما وضعه الوضاعون في ذم بني أمية أو مدحهم من هذه انصفات الجلية ، وما أشبه هذه القصة بكلام كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري كذباً وافتراء ، وليتهم ذكروا إسناد هذه القصة وأمثالها حتى نعلم رواتها ورجالها الناقلين مع ان المبرد ساقها بعبارة الزعم خالية عن السند ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وانظر ما كان يكنه معاوية من حب لعلي وذكر لمآثره العالية وقوفاً مع دينه رضي الله عنهما ، يشهد لذلك ما قدمناه من طلب معاوية لضرار ان يصف له علياً وما صدر منه من التسليم والبكاء عليه رضي الله عن الجميع. لكن حمله اجتهاده وما راى من خشيته تغلب الكفار على بلاد الشام إن هو تركها أن يتمسك بموقفه بشتى الاسباب حتى أورث هذه البلاد التي يسكنها من غالوا بحب علي حتى عبدوه ، ولولا معاوية فالله أعلم اين كانت مساكنهم ، ووالله انا لنحبه ونبغض من يبغضه ، ولكن نقول ما ضره لو ابقى معاوية في إمارته بحفظ هذه البلاد وبعده يعلم الله من يخلفه ، والواقع لا يخلو من حكمة لا يعلمها الا الله تعالى ، وقد زال ما تم بزمن بني أمية من جمع بيضة الاسلام وانفراد دولتهم وعزهم وملكهم لها مما يكاد يحقق صحة حديث (( **ملك الدنيا أربعة مؤمنان وكافران** )) . حيث أن بني أمية كادوا يملكون الدنيا لولا ظهور العباسيين والأشراف الذين لم يتركوا لهم وقتاً صافياً ، ولا زمناً خالياً من النقد والتشويش والتهويش حتى تم على يد العباسيين تفرق الملك بزمنهم ودب الضعف على ملك الاسلام بسببهم .

فقد كان القرن العاشر للميلاد زمن التفرق في كل البلاد حيث تفسخت الامبراطورية الأموية وانقسمت الى دول ودويلات ، ففي الأندلس بقي آثارها وفلولها نحواً من ( ٢٧٠ ) سنة ، وفي شمالي أفريقيا الفاطميون بعد الأغالبة والأدارسة ومن الفاطميين الباطنية الذين انقسموا الى دروز واسماعيليين، وفي حلب الحمدانيون ، وفي مصر الأخشيديون وابن طولون ، وفي العراق الديلم ، وفي عمان والبحرين واليمامة وديار البصرة القرامطة ، وفي بلاد فارس والأهواز البويهيون ، وفي خراسان بنو سامان ، وفي الهند وأفغانستان آل سبكتكين، وفي طبرستان العلويون ، حتى بلغوا من التراخي الخلقي والتفكك القومي أن طلب أبو الفضائل الحمداني الحماية من الأمبراطور البيزنطي والاستعانة به على دولة شقيقه ، وما بقي في تلك

الأزمان من بقية الخلفاء العباسيين فانما هم العوبة بيد هؤلاء الملوك الذين يمنـــون على الخليفـــة فيقرونه واذا استوحشوا منـــه قتلوه أو خلعـــوه واستبدلوه بغيره ، ولم نر في زمن من أزمان التاريخ فتوحاً جـديداً على ما فتحه الأمويون في ازمانهم والحكم لله وحـده .

هــذه آثارنا تــدل علينــا  فانظروا بعــدنا الى الآثــار

* * *

# في ذكر بعض الافتراءات على بني أميّة

## مِمّا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ مِنَ الأَغلاط

من ذلك ما أكثر به الشيخ محمد بن رسول البرزنجي المدني في كتابه الاشاعة في أشراط الساعة ، فانه رحمه الله وأجزل ثوابه بما ضمن به كتابه من الفوائد العظيمة في أشراط الساعة ، ولكنه أكثر من الأخبار الملفقة فيما ورد في ذم بني أمية لدرجة الإفراط ، وكأنه كتاب النكبات لأمين الريحاني الذي لفق عيوب ملوك الاسلام والعرب أو كأنه كتاب الإمامة والسياسة المنسوب كذباً لابن قتيبة ، ومما يدل على كذب نسبته اليه أن ابن خلكان المعروف بحبه المتناهي لأهل البيت وغلوه بذلك ، عدد مؤلفات ابن قتيبة ولم يذكر هذا المؤلف له لا هو ولا من ترجم ابن قتيبة ، ولو كان له لذكر ابن قتيبة بعض ما تضمنه من الوقائع العجيبة والمكاتبات الشنيعة ، أو أحال عليها في كتابه **المعارف** الذي ظهر فيه أدبه الجم وحسن كلامه بمن ذمهم في كتاب الإمامة والسياسة ، مما يحيل أن يناقض نفسه بمدح وذم ، وذكرنا فيما سبق بهذه المناسبة ما فيه الكفاية ، وتتبع أحاديث الاشاعة

والامامة والسياسة واخبارهما ونقدها امر عظيم وحقير ، أما كونه عظيماً فاتعاب الباحث عن مصادرها التي لا يمكن العثور عليها ، وأما كونه حقيراً فيمكن دفعها بعبارة واحدة وهي : أي سند لهذه الأخبار المكذوبة والمكاتبات المختلقة والأحاديث الواهية الموضوعة ، بل نوصي المطالع أن يكون على حذر من اكثرها وشاكاً في صحة ما يبقى من أقلها .

وقد قدمنا أوائل الفصل السابق ما ذكر في سبب نزول : **( انا أعطيناك الكوثر )** وقراءة شاذة في سورة **( القدر )** وأن مدة ملكهم ألف شهر .

قال القاسم : فعددنا ذلك فاذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص ، ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل ، وقد قيل عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن ابن الفضل الحدائي : هو ثقة ، وثقة يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ، قال : وشيخه يوسف بن سعد ويقال يوسف بن مازن مجهول ، ولا يعرف هذا الحديث على هذا اللفظ الا من هذا الوجه .

وقد روى هذا الحديث الحاكم في مستدركه من طريق القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن به . وقول الترمذي إن يوسف هذا مجهول فيه نظر ، فانه قد روى عنه جماعة ، منهم : حماد بن سلمة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفي رواية عن ابن معين : هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن ، قال : وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث والله أعلم .

ثم هذا الحديث على تقدير تسليمه هو منكر جداً . قال شيخنا الحافظ الحجة ابو الحجاج المزي : هو حديث منكر ، قلت : وقول القاسم ابن الفضل الحدائي أنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لاتزيد يوماً ولا تنقص ليس بصحيح ، فان معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه استقل

بالملك حين أسلم اليه الحسن بن علي الإمرة سنة اربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية ، وسمي ذلك عـام الجماعة ثم استمروا فيها بالشام وغيرها لم تخرج عنهم الا مدة دولة عبـد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، لكن لم تزل يدهم على الامرة بالكلية بل عن بعض البـلاد الى أن استلبهم بنو العباس الخـلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة وذلك ازيد مـن الف شهر ، فان الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة واربعة اشهر ، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير ، وعلى هـذا فيقرب ما قاله من الصحة في الحساب والله أعـلم .

ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيق لذم بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فان تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فان ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة انما جاءت لمدح ليلة القـدر . فكيف نمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى الحديث ، وهل هذا الا كما قال القـائل :

ألم تر أن السيف ينقص قـدره  اذاقيل أن السيف أمضى من العصا

وقال آخـر :

اذا فضلت امـرأً ذا براعــة  على ناقص كان المديح من النقص

ثم الذي يفهم من الآيـة أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها ، والمنبر انما وضع بالمدينة بعد مدة مـن الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته والله أعـلم اهـ .

ما من ابن كثير .

والعجب العجيب أن تخفى هذه القراءة على عموم أهل المصدر الأول حتى قاتلوا بني أمية مع علي رضي الله عنه على شيء أخبر الله عنه انه سيكون لا محالة ، وايضاً لو ضم اليها مدة ملكهم بالمغرب لزادت عن مئات السنين ، فانهم اسسوا بالمغرب ملكاً بقي سنين طوالاً ودهوراً حتى في زمن بني العباس ، وكان آخرهم ولاية هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم ، كان مولد هذا الخليفة سنة ٣٦٤ وولي في شهر ربيع الاول سنة ٤١٨ وتلقب بالمعتد بالله وخلع سنة ٤٢٠ وأهين هو وحشمه ونساؤه الى أن لحق بابن هود المتغلب على كثير من البلاد حتى مات سنة ٤٢٧ ولا عقب له ، وانتهت بموته ولاية بني أمية من الأندلس كما في تاريخها المسمى بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب للحافظ الفقيه محي الدين التميمي المراكشي ، فتكون مدة ملكهم من زمن معاوية رضي الله عنه سنة أربعين وهو عام الجماعة الى سنة ٤٢٠ نحواً من أربعمائة سنة ، والله وارث الأرض ومن عليها واليه يرجعون .

وأيضا ما مناسبة ليلة القدر مع ملك بني أمية ، وما درجة هذه القراءة التي ينكرونها ولا يحسبونها حتى ولا في الأربعة الشاذة .

وايضاً ، على تسليم صحتها ، فما هو وجه الذم لهم بها .. بل فيها معجزة عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها تقوية لهم على التمسك بها بأن الله اخبر رسوله بحكمهم وهل دليل اكبر منها على رسوخ قدمهم من هذه القراءة لو صحت .

من ذلك ما نقل عن ابي فراس انه قال :

ولا خير في ردّ الردى بمساءة ... كما ردّها يوماً بسوئته عمرو

وما نقل عن الحر بن النضر السهمي أنه قال فيه وفي بسر بن أرطاة الشجاع حين حرضه معاوية على منازلة علي فكشف عن سوأته أيضاً حتى نجا من علي فقال في ذلك النضر :

أفي كل يوم فارس ليس ينتهي — وعورته وسط العجاجة بادية
يكف بها عنه علي سنانه — ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه — وعورة بسر مثلها حذو حاذية
فقولا لعمرو ثم بسر ألا انظرا — سبيليكما لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحمدا الا الحيا وخصاكما — هما كانتا والله للنفس واقية
ولولا هما لم تنجوا من سنانه — وتلك بما فيها عن العود ناهية
متى تلقيا الخيل المشيحة صبحة — وفيها علي فاتركا الخيل ناحية
وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القنا — نحوركما ان التجارب كافية

ذكر ذلك في كتاب ريحانة الألباب المنسوب لشهاب الدين محمود الخفاجي .

وليت شعري أين سند هذه القصص الواهية .. ولو وجد حديث في كتاب هزل أو أدب أو في كتاب منسوب لأكبر العلماء هل يقبل انه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويبنى عليه حكم دون تحري السند . فأين سند هذه القصص التي تزري بمكانة الصحابة ومن بعدهم من أعاظم رجال المسلمين والعرب ، وتسيء الى سيرتهم بأعظم الفرية والكذب .

وليت ناقلي هذه الفريات ذكروا سندها كما ذكر ابن عساكر في تاريخه سند القصص المحشوة فيه حتى خرج من عهدتها وعلم من بعده صحيحها من سقيمها ، ولكن علم الأدب ، وكتب القصص والحكايات كادت تكون خارجة عن حد الأدب ، بل ربما تجاوزت بقبيح الفاظها المستهجنة الكاذبة حدود الحشمة والكمال ولا حول ولا قوة الا بالله .

وأن تكذيب هذه المفتريات لا يكلف العاقل كبير عناء ، لأن فن المناظرة والجدل كفانا هـذا الأمر بعبارة وجيزة اتفقوا عليها وهي قولهم : **إن كنت ناقـلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل** . حيث يمكن اجراء هذه القاعدة عـلى جميع المفتريات العارية عن هذين الأصلين .

على أن عدالة الصحابة مما اتفق عليها أهل السنة والجماعة ، حتى قبلوا رواية أي منهم بدون تحفظ ولا تمحيص ، وعمرو بن العاص رضي الله عنـه من أجلهم . وأن أبا فراس ورجـال الدولة الحمدانية معروفون بتشيعهم لأهل البيت حتى وصلوا الى الملك بهذا الأسلوب كغيرهم . فهذه نقاط ثلاثة كل واحدة منها كافية لرد هذه الفرية ، الاولى : عـدم صحـة النقل . ثانيها : عدالة الصحابي التي تبعد عنه ابداء عورته لمكيدة حربية . ثالثها : تشيع الناقل لعداوة مذهبية .

ولعمري هذه الفرية أقبح من فرية عدو الاسلام والعروبة والتـاريخ جرجي زيدان على سيدنا عمرو بن العاص في روايته المشهورة المنشورة باسم أرمانوسه المصرية ، حيث صور فتوح مصر أنـه مبني على خيـانة المقوقس الروماني لدولته الرومانية وممالئته للعرب حتى مكن عمرو بن العاص من أكتساح مصر وفتح حصونها وقلاعها والاستيلاء عليها .

وأن ابنته أرمانوسه كانت تحب أركاديوس بن الأعيرج بدون علم أبيها ، والأعيرج هو القائد الأعظـم لجميع الجيوش الرومانية خاصة التي كانت تحارب العرب عن مصر ، وأن ابنه أركاديوس هو البطل المغوار الذي كانت تبعده حبيبته أرمانوسه عن خوض كل معركة يخشى عليه منها ، وأن ذلك من أعظم أسباب الانكسار . وثالثة الأثافي من هـذه الكذبات أن عمرو بن العاص وقع أسيراً بين أيدي الرومانيين ، وأن الرومانيين لم يعرفوه ، وأن أركاديوس وحده هو الذي عرفه وكتم معرفته كي لا يقتلوه إكراماً لحبيبته أرمانوسة لما كان يجريه معها عمرو بن العاص بالبلاد التي يفتحها وتكون

هي فيها من معروف ومحافظة وإحسان ، وكان جلهم به أن منوا عليه وأطلقوه من الأسر ، وأن أركاديوس بن الأعيرج لو لم تبعده محبوبته أرمانوسه بدسائسها عن خوض المعارك العظيمة لكان وحده يكفي لإبادة فرسان العرب الذين كانوا سبب النصر والفتوح الذين هم حفاة عراة جياع قليلوا العَدد والعُدد . بهذه الأسباب الدنيئة الثلاث استطاع العرب فتح مصر وانتهت الحرب بحبس القائد الأعظم الأعيرج وموته في سجن الرومانيين لعدم كفاءته بالفوز والنصر .

واني لأعجب من هذه الكذبات الثلاث التي كل واحدة منها أعجب من أختها ! وليت شعري من روى أسر عمرو بن العاص حتى منوا عليه وأطلقوه ؟ وهل بلغ العدو الروماني من الحمق أن لا يعرف أمير العرب من هو حتى يمن عليه ويطلقه ؟ وهل من المعقول أن يطرح الأمير بنفسه للأسر ويترك جيشه بعده فريسة لعدوه ؟ وهل تحتاج هذه الفريات الثلاث لأدلة تكذبها ؟ ومن هو هذا الصعلوك أركاديوس حتى يكون غيابه سبب الانكسار؟

والكذبة الرابعة أن البطل أركاديوس وأباه الأعيرج القائد الأعظم للجيوش الرومانية يعلمان خيانة المقوقس ويبغضانه البغض الشديد لأنه خائن ممالىء للعرب وان كان روماني الأصل جعلوه أميراً على أقباط مصر . وهذه أشنع مما قبلها من الكذبات لأنها تلصق سبب الانكسار بالأعيرج الأحمق لتغاضيه عن الخائن ، فيكون هو وابنه أخون منه .

وانتهت القصة بزواج أرمانوسه بنت المقوقس بأركاديوس ، وأن العرب فتحوا مصر ، وأن الأعيرج مات في سجن الرومانيين ، وأن المقوقس عاش هو وابنته وختنه المبغض له أركاديوس بنعمة العرب والمسلمين .

هذا حاصل هذه الرواية المعسولة كغيرها من دسائسه التي لقي جزاءها عند ربه ، وله أمثالها كفتوح المعتز لمصر الذي جعله عبارة عن دسيسة يهودية دبروها للمعتز كما سيأتي الالماع اليه .

* * *

# في الكلام على وقعة الجمل

من ذلك ما أخرج البخاري في كتاب الفتن عن أبي مريم عبد الله بن زياد الأسدي قال :

لما سار طلحة والزبير وعائشة الى البصرة ، بعث علي عمار بن ياسر وحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر ، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن ، فاجتمعنا اليه ، فسمعت عماراً يقول : ان عائشة قد سارت الى البصرة، ووالله انها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي . قال القسطلاني : وكانت عائشة بمكة ، فبلغها قتل عثمان رضي الله عنه ، فجمت الناس على القيام بطلب دم عثمان . وكان الناس قد بايعوا علياً بالخلافة ، وممن بايعه طلحة والزبير ، واستأذنا علياً في في العمرة فخرجا الى مكة فلقيا عائشة فاتفقا معها على طلب دم عثمان حتى يقتلوا قتلته . فسارت عائشة على جمل اسمه عسكر اشتراه لها يعلى بن

امية من رجل من عرينة بمائتي دينار ، في ثلاثة آلاف رجل من مكة والمدينة ومعها طلحة والزبير ، فلما نزلت ببعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب ، فقالت : اي ماء هذا ؟ قالوا : الحوأب ـ بفتح الحاء المهملة وسكون الواو بعدها همزة مفتوحة فموحدة ـ فقالت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لنا ذات يوم : (( **كيف باحداكن ينبح عليها كلاب الحوأب ؟** )) وعند البزار من حديث ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم قال : (( **أيتكن صاحبة الجمل الأديب** ـ بهمزة مفتوحة ودال ساكنة فموحدتين ـ **تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة وتنجو بعد ما كادت** )).

وخرج علي رضي الله تعالى عنه من المدينة لما بلغه ذلك خوف الفتنة في آخر شهر ربيع الاول سنة ٣٦ ست وثلاثين في تسعمائة راكب ، ولما قدم البصرة قال له قيس بن عباد وعبد الله بن الكواء : أخبرنا عن مسيرك ، فذكر كلاما طويلا ، ثم ذكر طلحة والزبير فقال : بايعاني في المدينة وخالفاني بالبصرة .

قال القسطلاني وذكر عمر بن شَبَّه بسنده أن وقعه الجمل كانت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، وذكر أيضا من رواية المدايني عن العلاء أبي محمد عن أبيه قال : جاء الى علي وهو بالزاوية فقال : علام تقاتل هؤلاء ؟ قال : على الحق . قال : فانهم يقولون انهم على الحق . قال : أقاتلهم على الخروج عن الجماعة ونكث البيعة . وعند الطبراني ان أول ما وقعت الحرب أن صبيان العسكرين تسابوا ثم تراموا ثم تبعهم العبيد ثم السفهاء فنشبت الحرب ، وكانوا خندقوا على البصرة ، فقتل قوم وجرح آخرون وغلب أصحاب علي ، ونادى مناديه : لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا دار أحد . ثم جمع الناس وبايعهم ، واستعمل ابن عباس على البصرة ، ورجع الى الكوفة . وعند ابن أبي شيبة بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبزي قال : انتهى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي الى عائشة يوم الجمل وهي في الهودج فقال : يا أم المؤمنين ، أتعلمين اني اتيتك عندما قتل عثمان فقلت ما تأمريني ، فقلت إلزم علياً .

فسكت فقال : اعقروا الجمل ، فعقروه ، فوليت انا واخوها محمد فاحتملنا هودجها فوضعناه بين يدي علي ، فادخلت بيتا . وعند ابن ابي شيبة والطبري من طريق عمرو بن جاوان من الاحنف : فكان اول قتيل طلحة ، ورجع الزبير فقتل . وقال الزهري : ما شوهدت وقعة مثلها ، فني فيها الكماة من فرسان مضر ، فهرب الزبير فقتل بوادي السباع ، وجاء طلحة سهم غرب فحملوه الى البصرة ومات . وحكى سيف : كان قتلى الجمل عشرة آلاف نصفهم من اصحاب علي ونصفهم من اصحاب عائشة . وقيل قتل من اصحاب عائشة ثمانية آلاف وقيل ثلاثة عشر الفا ، ومن اصحاب علي الف ، وقيل من اهل البصرة عشرة آلاف ومن اهل الكوفة خمسة آلاف اهـ .

وفي السيرة الحلبية بعد ان روى القصة كما يرويها المؤرخون سامحه الله قال : ثم ان عليا كرم الله وجهه صلى على القتلى من الفريقين ، ثم دخل البصرة على بغلته متوجها لعائشة رضي الله عنها ، فلما دخل عليها سلم عليها وقعد عندها ، ثم جهزها بكل شيء ينبغي لها ، واختار لها اربعين امرأة من نساء اهل البصرة المعروفات ، وامرهن بلبس العمائم وتقلد السيوف ، ثم قال لهن لا تعلمنها بانكن نسوة ، وتلثمن مثل الرجال ، وكن حولها من بعيد ولا تقربنها . وقال لأخيه محمد : تجهز معها . وفي رواية جهز معها اخاها عبد الرحمن في جماعة من شيوخ الصحابة ، فلما كان يوم خروجها جاء اليها علي كرم الله وجهه ووقف الناس ، وخرجت فودعها وودعتهم وقالت : يا بني والله ما كان بيني وبين علي الا ما يكون بين المرأة واحمائها ، وانه على معتبتي عليه لمن الاخيار . فقال علي : ايها الناس صدقت والله وبرت ، ما كان بيني وبينها الا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة . وذهب معها سبعة اميال ، ثم ذهبت الى مكة حتى حجت ثم رجعت الى المدينة ، وعلمت عند رجوعها الى مكة ان هؤلاء الرجال حولها

نساء فانهن كشفن عن وجوههن وعرفنها الحال فشكرت وقالت : والله لا يزداد ابن ابي طالب الا كرماً .

وقيل : ان كعب بن سعد اتى عائشة رضي الله عنها وقال : لعل الله أن يصلح بك ، والاولى الصلح والسكون ، والنظر في قتلة عثمان بعد ذلك . فوافقت وركبت هودجها وقد ألبسوه الأدراع ، ثم بعثوا جملها . وذهب الى علي كرم الله وجهه وقال له مثل ذلك ، فقال له : قد أحسنت . وأشرف القوم على الصلح ، فخافت قتلة عثمان رضى الله عنه ، فأشار عليهم ابن السوداء الذي هو السبائي الذي هو أصل الفتنة أن يفترقوا فرقتين ، تكون كل فرقة في عسكر من العسكرين ، فاذا جاء وقت السحر ضربت كل فرقة منهما الى العسكر الذي فيه الفرقة الاخرى ، فنادت كل فرقة في العسكر الذي هي فيه غررنا . ففعلوا ذلك فنشبت الحرب وحصل ما تقدم اه .

وليس في جميع ما ذكرنا خبر صحيح يخالف ما ذكره صاحب المعجم ، الا رواية البخاري في الفتن حين قال عمار : والله انها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وان الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي . ولكن الجواب عن ذلك ظاهر ، لأن خروجها وتجمع الناس حولها وانتشار الأخبار من القتلة وأعوانهم وأعداء علي رضى الله عنه يعكس الخبر ، فظن ذلك عمار خروجاً منها على الامام الحق . وفي كلام القسطلاني نفسه خبر ابن أبي شيبة بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبزي حين قال لها ابن بديل : ما تأمرين . قالت : إلزم علياً . فسكتت . فيعلم من مجموع الأخبار المقبولة والمعقولة أن خروجها لم يكن لحرب ولا لفتنة ، انما كان للاصلاح وجمع الكلمة ، ولكن مكيدة القتلة الجناة وأعوانهم قلبوا الأمر على العكس وحصل ما حصل ، ولم تكن معتدية ولا عادية ولا محاربة رضى الله عنها وأرضاها .

والأشبه اطلاق وقعة الجمل على وقعة ام زمل اللعينة ونباح كلاب الحواب عليها وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم عليها دون غيرها ، والحق أحق أن يتبع والله سبحانه وتعالى أعلم .

فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الفتن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة** » . الحديث بطوله . قال القسطلاني : وكان سبب تقاتل الطائفتين ما أخرجه يعقوب بن سفيان بسند جيد عن الزهري قال : لما بلغ معاوية غلبة علي على أهل الجمل دعا الى الطلب بدم عثمان رضى الله عنه ، فأجابه أهل الشام ، فسار اليه علي رضي الله عنه فالتقيا بصفين . وذكر يحيى بن سليمان الجعفي أحد شيوخ البخاري في كتاب صفين من تأليفه بسند جيد عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية : أأنت تنازع علياً في الخلافة أوأنت مثله ؟ قال : لا ، وأني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر ، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه ، فأتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان . فأتوه فكلموه فقال : يدخل في البيعة ويحاكمهم الي . فامتنع معاوية رضي الله عنه . فسار علي والجيوش من العراق حتى نزلوا صفين . وسار معاوية حتى نزل هناك . وذلك في ذي الحجة سنة ست وثلاثين . فتراسلوا فلم يتم لهم أمر ، فوقع القتال الى أن قتل من الفريقين من قتل . وعند ابن سعد انهم اقتتلوا في غرة صفر ، فلما كاد أهل الشام أن يغلبوا رفعوا المصاحف بمشورة عمرو بن العاص ودعوا الى ما فيها ، فآل الأمر الى الحكمين ، فجرى ما جرى من اختلافهما واستبداد معاوية بملك الشام واشتغال علي بالخوارج اهـ .

وقد رأيت في كتاب الذريعة للعلامة الفاضل السيد محمد جمال الدين

العاني البغدادي ما نصه : الذي ثبت في كتاب سيف وغيره كما في معجم البلدان ان سلمى ام زمل قـد سبيت أيام أم قرفة ، فوهبت لعائشة ، فأعتقتها وكانت عندها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على نسائه وهي معهن ، فقال : ان احداهن تستنبح كلاب أهل الحوأب ، ثم رجعت سلمى الى قومها وارتدت فيمن ارتد ، وكانت مع قوم فلال يـوم بزاخة الذين كانوا مع طليحة المتنبىء ومن معهم ، فذمرتهم وأمرتهم بالحرب وطلبت بذلك الثأر ، فسيرت ما بين ظفر والحوأب حتى تجمع لها خلق كثير من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطي ، فبلغ ذلك خالداً فسار اليهـا ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً وهي راكبة على جمل أمها أم قرفة ، حتى اجتمع على الجمل أناس من المسلمين فعقروه وقتلوها وقتلوا حولها مائة رجل . وكان من يروي حديث راكبة الجمل يرى أنها أم قرفة المشار اليها بهـذا الحديث .

قال وأما خروج عائشة الى البصرة ، فمجمل القـول فيه كما حكاه الطبري وجماهير ثقات المؤرخين ، ويروونه من طرق عديدة عن الحسن وعبد الله آل جعفر وعبد الله بن عباس ، أن عائشة رضي الله عنها خرجت للحج ومعها أم سلمة ، لكنها لما سمعت بقتل عثمان رضي الله عنه ، وانحياز قتلته الى علي كرم الله وجهه ، حزنت حزنا شديداً واستشعرت باختلال أمـر المسلمين . وبينما هي كذلك جاءها طلحة والزبير ونعمان بن بشير وكعب بن عجرة في آخرين من الصحابة هاربين من المدينة ، خائفين من قتلة عثمان لما أظهروه مـن المباهاة لفعلهم القبيح ، فضاقت قلوبهم وجعلـوا يستقبحون ما وقع من أولئك السفلة ، فصح عندهم أن أولئك سيلحقونهم بعثمان ، فخرجوا الى مكة ولاذوا بأم المؤمنين ، وأخبروها الخبر ورأوا الأصلح أن لا يرجعوا الى المدينة ما دام السفلة فيها محيطين بمجلس الأمير علي كرم الله وجهه ، غير قادر على القصاص منهم أو طردهم ، فاستحسنت

ذلك ، فاختاروا البصرة لما انها كانت مجمعاً لجنود المسلمين وفيها القراء ، ورجحوها على غيرها والحوا على أم المؤمنين ان تكون معهم الى ان ترتفع الفتنة ويحصل الأمن وتنتظم أمور الخلافة ويجري القصاص على القتلة وأتباعهم ، وأرادوا بذلك زيادة احترامهم بالتجائهم اليها لأنها أم المؤمنين والزوجة المحترمة غاية الاحترام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسارت معهم بقصد اصلاح وانتظام الأمور ، وكان معها ابن أختها عبد الله بن الزبير وغيره من أبناء اخوتها ، بل كان من معها بمنزلة الأبناء في المحرمية ، وكانت في هودج من حديد ، فبلغ الأمير علياً كرم الله وجهه خبر التوجه للبصرة ، وكان معه أولئك القتلة ومن معهم ، فألحوا عليه أن يخرج اليهم ، وقد أشار عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس بعدم الخروج واللبث الى أن يتضح الحال ، فأبى رضي الله عنه ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

خرج الامام علي رضي الله عنه ومن معه ، فلما وصلوا قريباً من البصرة أرسلوا القعقاع الى أم المؤمنين وطلحة والزبير ليتعرف مقاصدهم ويعرضها على الأمير رضي الله عنه . فجاء القعقاع الى أم المؤمنين فقال : يا أماه ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة ؟ فقالت : أي بني الاصلاح بين الناس . ثم بعثته الى طلحة والزبير ، فقال القعقاع : أخبراني بوجه الصلاح . قالا : إقامة الحد على قتلة عثمان وتطمئن قلوب أوليائه فيكون ذلك سبباً لأمننا وعبرة لمن بعده . فقال القعقاع : هذا لا يكون الا بعد اتفاق المسلمين وسكون الفتنة ، فعليكما بالمسالمة في هذه الساعة . فقالوا : أصبت وأحسنت . فرجع الى الأمير كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، فسر به واستبشر ، وأشرف القوم على الرجوع ولبثوا ثلاثة أيام لا يشكون في الصلح ، فلما غشيتهم ليلة اليوم الرابع ، وقررت الرسل الوسائط في اصلاح ذات البين من أن يظهروا المصالحة صبيحة هذه الليلة ، وقد تحقق

ذلك عند قتلة عثمان فاضطربوا وتشاوروا على أن يغيروا على من كان مع عائشة من المسلمين ، ليظنوا الغدر من الأمير كرم الله وجهه ، فهجموا على من معها فقابلوهم ، ونشب القتال وكان ما كان من ظفر أمير المؤمنين بهم . وقد طاف في مقتل القتلى فكان يضرب على فخذه ويقول : يا ليتني مت قبل هـذا وكنت نسياً منسياً . وصلى على القتلى ورد أم المؤمنين الى المدينة وسير معها أربعين امرأة فخطبت خطبتها فأرضته وخطب خطبة فأرضتها أهـ . باختصار .

قال : ومما لا يخفى أن أمير المؤمنين معذور في إرجاء القصاص في زمن تلك الفتنة ، فقد قال بعض أصحابه : لو عاقبت قوما أجلبوا على عثمان . فقال : يا اخوتاه اني لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بهم والمجلبون على شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم ، وهاهم أولاء قد سارت معهم عبدانكم وألفت اليهم أعرابكم ، وهاهم خلالكم ليسومونكم ما شاؤوا . انتهى من نهـج البلاغـة .

هذه عبارة الفاضل العاني البغدادي ولا أراها الا جامعة لتلك القصة على وجه لا يخالف ما ثبت في الصحاح ، ويدفع اللوم عن الطرفين رضي الله عن الجميع ، ولا متمسك بهذه القصة والوقعة لمن يريد الوقيعة باحـدى الطائفتين ، والحق أحق أن يتبع والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

هذا واني أنصح لمن يخوض في هذا المجال ، ويلوث لسانه وقلمه بالمقال ، أن يلازم الاعتدال ، فان الجميع أصحاب الرسول ، ومن كبار المسلمين الفحول . حتى ذكر المسعودي رجوع الزبير نادماً لما ذكره علي رضي الله عنهما بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (( **انك ستقاتله وأنت له ظـالم** )) . حتى أدرك وادي السباع ونزل للصلاة فأتمّ به عمرو بن جرموز ، ثم غدر به وهو في الصلاة حتى قتله ، ولما بشر علياً بقتله قال له علي رضي الله عنه : قاتل ابن صفية في النار . ودفن رضي الله عنه هناك بوادي السباع وهـو ابن خمس وسبعين سنة .

وذكر رجوع طلحة أيضاً نادماً حتى رماه مروان ابن الحكم في أكحله فقتله وهو ابن اربع وستين سنة رضي الله عنه بالبصرة ، وقتل معه ابنه محمد السجاد الذي لقب به لكثرة عبادته .

وقد روى المؤرخون ان عائشة لما اخبروها بأن هذا ماء الحواب صرخت بأعلى صوتها : ردوني .. الى آخر ما قالوا .

وليت شعري من روى قولها من المحدثين أرباب السند الصحيح ، ولئن صح فما هو الا ورع منها خشية أن يكون كلام الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يشملها حين قال : (( **ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب** )) ، وحيث انها خرجت للصلح والاصلاح فأي خوف منها أن تنال الوعيد ، وهلا كان الوعيد للعينة أم زمل التي ارتدت وخرجت ، وقاتلها خالد حتى قتلت بمن معها عند الحوأب ، ونبحتها كلابها وأكلت لحمها. وما الموجب لحمل هذا الحديث على أم المؤمنين غير تحامل المتحاملين ووهن رواية المؤرخين .

ولكن المسعودي في مروجه مرج وعن جادة الصواب خرج ، ان لم تكن العبارة مدسوسة عليه من أعداء الصحابة ، حتى اتهم طلحة والزبير بالكذب ، وأنهما أقسما يميناً كذباً لعائشة أن هذا المكان ما هو الحوأب ، وأنه شهد معهم خمسون رجلا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الاسلام . فنعوذ بالله من فضول الكلام ولا حول ولا قوة الا بالله العليم العلام .

وما كنت أظن أن افتراء المؤرخين يصل الى هذا الحد من الطعن بخمسين رجلا أكثرهم من صحابة رسول الله الكرام ، وكذب هذه الرواية غني عن كل مناقشة أو جدال .

ولنسق عبارة يا قوت في معجمه فانها أصل ما نقله صاحب الذريعة ، قال في حرف الحاء بلفظة الحواب ما نصه : وفي الحديث ان عائشة لما

ارادت المضي الى البصرة في وقعة الجمل ، مرت بهذا الموضع فسمعت نباح الكلاب فقالت : ما هـذا الموضع ؟ فقيل لها : هذا موضع يقال له الحوأب. فقالت : إنا لله ما اراني الا صاحبة القصة . فقيل لها : وأي قصة . قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : (( **ليت شعري ، أيتكن تنبحها كلاب الحوأب سائرة الى المشرق في كتيبة** ؟ )) وهمّت بالرجوع فغالطوها وحلفوا لها أنه ليس بالحوأب .

وفي كتاب سيف : أن فلاّل يوم بزاخة ، الذين كانوا مع طليحة المتنبي، أجمعت الى ظفر وبها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر الفزارية ، وكانت عزيزة في أهلها مثل أمها أم قرفة ، فنزلوا اليها فذمرتهم وأمرتهم بالحرب، وكانت أم زمل قد سبيت أيام أم قرفة ، فوهبت لعائشة فأعتقتها فكانت تكون عندها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليهن فقال ان احداكن تستنبح كلاب أهل الحوأب، ثم رجعت سلمى الى قومها وارتدت فيمن ارتد ، فلما رجع اليها الفلال طلبت بذلك الثأر ، فسيرت ما بين ظفر والحوأب حتى تجمع لها خلق كثير من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطي ، فبلغ ذلك خالداً فسار اليها ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً وهي راكبة على جمل أمها ، حتى اجتمع على الجمل أناس من المسلمين فعقروه وقتلوها وقتلوا حولها مائة رجل ، فكانوا يرون أنها التي عناها النبي صلى الله عليه وسلم .

والحوأب في أجبار الردة مخلاف بالطائف. والحوأب أيضاً جبل أسود.

* * *

# الحجّاج وأمّه

من ذلك ما يتناقله بعض المؤرخين ، أن عمـر رضي الله عنه مر بأم الحجاج وهي تقـول :

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

وأنه كان يقال للحجاج ابن المتمنية لذلك ، الى آخر ما طعنوا فيه بأمه بدون دليل ولا رواية صحيحة في هذا الخبر المكذوب ، ولم يخشوا الله الذي يقول في كتـابه الكريم : **( ولا تقف ما ليس لك به عـلم إن السمع والبصر والفـؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا )** فأسأل الله تعالى أن يوقف هؤلاء الكذابين الأفاكين بين يديه ويحشرهم في زمرة من قذف أم المؤمنين الطاهرة النقية ، لأنهم يشوهون سمعة سلف الاسلام ويتخذون من ذلـك فرقاً وأحزاباً تحملهم عصبية الجاهلية على أمور ليست من الدين في شيء.

وانظر ما نقله في السيرة الحلبية في أبحاث بناء الكعبة تعلم علو كعب هذه المرأة التي تنزه عن مثل هذه النقائص قال :

وفي كلام سبط بن الجوزي ان ام الحجاج كانت قبل أبيه مع المغيرة ابن شعبة فطلقها بسبب انه دخل عليها يوما فوجدها تتخلل حين انقلبت من صلاة الصبح ، فقال لها : ان كنت تتخللين من طعام البارحة انك لقذرة، وإن كان من طعام اليوم انك لنهمة كنتِ فبنتِ . فقالت : والله ما فرحنا إذ كنا ، ولا ندمنا إذ بنا ، ولا هو شيء مما ظننت ، ولكن استكت فأردت ان أتخلل من السواك ، فندم المغيرة على طلاقها ، فخرج فلقي يوسف ابن عقيل والد الحجاج فقال له : هل لك الى شيء ادعوك اليه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : اني نزلت عن سيدة نساء ثقيف ، وهي الفارعة فتزوجها تنجب لك ، فتزوجها فولدت له الحجاج .

وفي حياة الحيوان أنها كانت قبل أبي الحجاج عند أمية بن أبي الصلت، هذا كلامه ، وقد يقال لا مانع أنها تزوجت الثلاثة ، وأن تزوجها بأمية كان قبل المغيرة ، وكونها سيدة نساء ثقيف يبعد عنها القول بأنها المتمنية التي مر بها سيدنا عمر رضي الله عنه ، وهي تنشد : هل من سبيل الى خمر فأشربها ، الأبيات ، وأنه كان يعير بها فيقال له ابن المتمنية أهـ . ما في السيرة .

وذكر ابن خلكان في ترجمة الحجاج عن مروج الذهب للمسعودي أن امه كانت تحت الحرث بن كلدة الثقفي الطائي حكيم العرب ، وذكر سبب طلاقه لها من أجل التخلل .

واني لأكره أن يتقول أو ينقل عن أحد ما يشينه بدون أن يكون النقل ثابتاً على طريقة المحدثين . فأما صلاة الحجاج وإمامته بكثير من الصحابة وخطبه فيهم فثابت لا ينكر ، وكذلك عبادته وقراءته القرآن ، ومناقبه في الغزو والجهاد والفتوح ببلاد العجم والشرق لا يحتاج الى دليل .

ومنه ما في روح البيان في تفسير سورة البقرة تحت قوله تعالى : **( وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر )** . قال : وذكر انه استسقى الناس مراراً في زمن الحجاج فلم ينزل لهم قطرة ، فقيل لهم لو دعا شخص لم يترك سنة العصر ، والسنة الاولى من العشاء لحصل المقصود ، والا لا يحصل ، وان دعوتم أربعين مرة ، فتفقدوا فلم يجدوا شخصاً على الصفة المذكورة ، فرجع الحجاج الى نفسه فوجدها على ما ذكر فدعا ، فنزل مطر عظيم في هذا الحين ، وحصل المقصود ، وهذا ببركة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنه مشهور بالظلم اهـ .

وذكر في روح البيان أيضاً تحت قوله تعالى : **( ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا أن الله يحب المحسنين )** . قال : روي أن الحجاج لما ولي العراق كان يطعم في كل يوم على ألف مائدة ، يجمع على كل مائدة عشرة أنفس ، وكان يرسل الرسل الى الناس لحضور الطعام ، فكثر عليه ذلك ، فقال : أيها الناس رسولي اليكم الشمس اذا طلعت فاحضروا للغداء ، واذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون ذلك ، واستقل الناس يوماً فقال : ما بال الناس قد قلوا ؟ فقال رجل : أيها الأمير انك أغنيت الناس في بيوتهم عن الحضور الى مائدتك . فأعجبه ذلك وقال : اجلس بارك الله عليك. هذا كرم الحجاج وإحسانه الى الخلق مع كونه أظلم أهل زمانه اهـ .

ويا ليت ناقل القصتين لم يختمهما باغتيابه أنه مشهور بالظلم وأنه أظلم أهل زمانه ، ولعل المتحاملين عليه لا يصدقون ذلك ، ولو كانت حكاية ظلم أو هتك ستر أو سفك دم لكانوا له بسببها ما هم أولى به وأحرى ، فالله الله يا معشر النقلة والمتعصبين .

وقد ترجمه الدميري في حياة الحيوان في ذكر لفظ ( التيس ) وثلبه بذكر عجره وبجره الى أن قال : روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

رحمه الله أنه رأى الحجاج في المنام بعد موته وهو جيفة منتنة ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلني بكل قتيل قتلته قتلة واحدة الا سعيد بن جبير فانه قتلني به سبعين قتلة . فقال له : ما أنت منتظر ؟ قال : ما ينتظره الموحدون . فهذا مما ينفي عنه الكفر ويثبت انه مات على التوحيد ، وعند الله علم حاله وهو أعلم بحقيقة أمره .

وحسبك للحجاج منقبة اعتناؤه بكتاب الله حتى نقطه بأمر الخليفة حينما صار أهل الأهواء يحرفونه . فقد نقل القسطلاني في كتاب لطائف الاشارات : أن المعتزلة قرأوا قوله تعالى : **( وكلم اللهَ موسى تكليماً )** بنصب لفظ الجلالة لإحالتهم تكليمه تعالى لأحد من خلقه ، وأن مبغضي الشيخين قرأوا قوله تعالى : **( وما كنت متخذ المضلين عضداً )** بتثنية المضل لا جمعه ، ويعنون بهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما .

قال ابن خلكان في ترجمته بعد ما خلط فيها وخبط ما نصه : وحكى أبو أحمد العسكري في كتاب التصحيف أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه بضعاً وأربعين سنة ، الى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، ففزع الحجاج بن يوسف الى كتّابه وسأل أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات . فيقال إن نصر ابن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها فغبر بذلك الناس زماناً لا يكتبون الا منقوطاً ، فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف ، فأحدثوا الأعجام فكانوا يتبعون النقط والأعجام ، فاذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توف حقوقها اعترى التصحيف ، فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها الا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين . نقل هذه القصة ابن خلكان في ترجمة الحجاج مع ما نقل . وانك لو تتبعت سيرة الحجاج وما قام به من سائر أعماله لم تشك في أنه كان ساعياً في جمع الكلمة ولم الشعث واخماد الفتن الداخلية ، ليتفرغوا لنشر الدعوة

الى الاسلام . ومآثره في الفتوحات ببلاد الشرق ، وحنكته وتدبيره لا يحتاج الى دليـــل ولا برهـــان .

وان اعظم ما يطعنون به عليه قتله سيد التابعين سعيد بن جبير رضي الله عنه ، ولو تتبعت سيرة قتله على ما ذكـر سلطان المؤرخين ابن خلدون في خلافة الوليد بن عبد الملك لوجدت له بعض العذر . وذلك أن الحجاج استعمل سعيد بن جبير على عطاء الجند الذين وجههم مع عبد الرحمن بن الأشعث الى قتال رتبيل . وكان رتبيل هذا ملك الترك غزاه الحجاج ببعض امراء جنده ، وصار يؤدي الخراج ثم عصى وتمرد ، وحاربوه فظفر بالعرب حتى جرد له الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث بجيش غزا بلاده واستولى عليها كلها ، وان أخا عبد الرحمن نصح الحجاج أن لا يبعث عبد الرحمن خوفاً من خلعه وخلاقه . فقال الحجاج : هو أهيب من أن يخالف أمري . فلم يلبث عبد الرحمن حتى انتقض على الحجاج وخلعه وصالح رتبيل على أنه أن ظهر فلا خراج على رتبيل ما بقي الدهر ، وان هزم منعه ممن يريده . ودخل البصرة ، وبايعه أهلهـا واشتد القتال بينه وبين الحجاج سـنة اثنين وثمانين ، وخلع عبد الملك وكاد أمر الحجاج أن يتلاشى .

ثم قوي الحجاج وظفر بابن الأشعث ، فألقى ابن الأشعث نفسه من سطح القصر فمات ، وذلك سنة أربع أو خمس وثمانين ، وكان قد لحقه الشعبي ، فاعتذر للحجاج فعفا عنه ، وكان ممن لحق عبد الرحمن ، وخلع الحجاج سعيد بن جبير ، ولما هلك ابن الأشعث لحق سعيد بأصبهان ، ثم الى أذربيجان ثم الى مكة مع أناس من أمثاله يستخفون بأسمائهم ، فبعث الحجاج من يحمل أهل العراق الذين هم في مكة اليه فجيء بهم اليـه ، ومنهم سعيد بن جبير ، فلما رآه الحجاج شتم خالد القسري على ارساله وقال : لقد كنت أعرف أنه بمكة ، وأعرف البيت الذي كان فيه ، ثم اقبل

على سعيد وقال : الم اشركك في اماني ؟ الم استعملك ؟.. ثم تفعل

ـ يعدد اياديه عنده ـ فقال : بلى . قال : فما اخرجك على قتالي ؟ انا امرؤ

من المسلمين اخطىء مرة واصيب اخرى . ثم استمر في محاورته . فقال :

انما كانت بيعة في عنقي ، فغضب الحجاج وقال : الم آخذ بيعتك لعبد

الملك بمكة بعد مقتل ابن الزبير ، ثم جدد له البيعة في الكوفة فأخذت بيعتك

ثانياً ؟ قال : بلى . قال : فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين ، وتوفي بواحدة

للفاعل بن الفاعل والله لأقتلنك . فقال : اني لسعيد كما سمتني امي .

فضربت عنقه فهلل راسه ثلاثاً افصح منها بمرة . ويقال ان عقل الحجاج

التبس يومئذ ، وجعل يقول : قيودنا قيودنا . فظنوها قيود سعيد بن

جبير فأخذوها من رجليه ، وقطعوا عليها ساقيه . وكان اذا نام يرى سعيد

ابن جبير في منامه آخذاً بمجامع ثوبه يقول : يا عدو الله فيم قتلتني ؟

فينتبه مرعوباً يقول : ما لي ولسعيد بن جبير أهـ . من ابن خلدون .

فانظر يا رعاك الله الى هذا التابعي الجليل كيف خلع بيعة عبد الملك وانضم الى الخارجي في أحرج أوقات الجهاد والفتوح !

وهل يعقل أن يتعرض الأمير أو أظلم الظالمين لرجل من الطريق أو من المسجد ويأخذه ليقتله ؟

ولكن حيث تاب وأتى الى الحجاج كان على الحجاج أن يعفو عنه ، لأن أهل البغي لا يجوز اتباعهم ولا الاجهاز على جرحاهم ، فكيف بعد انتهاء الفتنة واستتباب الأمن والأمر ، ولكن قضى الله له بالشهادة إعلاء لمكان وليه ليكون عبرة للغير وليبوء هذا الأمير باثمه ، وهو متأول والعصمة لله وحده .

وفي روح البيان تحت قوله تعالى : **( ومن يرتد منكم عن دينه فيمت**

وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيهـا خالدون ) . ما نصه : قيل : ان الحجاج لما حضرته الوفاة كان يقول : اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون انك لا تفعل . ومات بواسط ، سنة خمس وتسعين وهي مدينته التي انشأها اهـ .

وفي كتاب طهـارة القلوب لسيدي عبـد العزيز الديريني في الفصل الخامس عشر في الاستعانة وذكـر رمضان ما نصه قال : دخـل قتيبة بن مسلم على الحجاج فقال له : يا قتيبة انك في سني . فأنشد يقـول :

اذا كانت الخمسـون سـنك لم يكـن لدائـك الا أن تمـوت طبيب
وان امرأ قد سار سبعين حجة الى منهـل مـن ورده لقـريب
اذا ماخلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكـن قـل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفـل ساعـة ولا أن مـا يخفى عليـه يغيـب
اذا مامضى القرن الذي أنت منهم وخلفت في قـرن فأنت غريب

وذكر ابن خلكان في ترجمته ما ذكـره عنه من الغث والسمين أنه كان ينشد في مرض موته هذين البيتين وهما لعبيد بن سفيان العكلي :

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا أيمانهم أنني من ساكني النـار
أيحلفون عـلى عميـاء ويحهـم ما ظنهم بعظيم العفـو غفـار

وكتب الى الوليد بن عبد الملك يخبره فيه بمرضه ، وكتب في آخره :

اذا ما لقيت الله عنـي راضيـاً فان سـرور النفس فيما هنالك
فحسبي حياة الله من كل ميت وحسبي بقاء الله من كل هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

وذكر ابن جرير في تاريخه أن الوليد لما أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية الاعهد ويجعلها لابنه عبد العزيز ، أجابه لذلك الحجاج وقتيبة بن

مسلم الذي كان يغزو بلاد الصين . قال ابن جرير : ومرض الوليد فرهقته غشية ، فمكث عامة يومه عندهم ميتاً ، فبكي عليه وخرجت البرد بموته ، فقدم رسول على الحجاج ، فاسترجع ثم امر بحبل فشد في يديه ثم أوثق الى اسطوانة وقال : اللهم لاتسلط علي من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتي قبل منيته . وجعل يدعو ، فانه لكذلك أذ قدم عليه بريد بإفاقته اهـ .

فانظر الى تذال هذا الرجل لربه حتى أجاب دعاءه ثم مات قبل موت الوليد ، عفا الله عنا وعنهم ورحمنا والمسلمين بالنبي الكريم آمين صلى الله عليه وسلم .

❊ ❊ ❊

# ردُّ ما افتری به علی مُعاویه والحسنین

## مِنْ خُشُونَةِ الطِّبَاعِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ

من ذلك ما ينقل أن الحسن أو الحسين دخل على معاوية في مرض موته ، وأن معاوية أسند نفسه وجلس ثم أنشد بيتاً من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي التي يرثي بها أولاده الخمس الذين هلكوا في عام واحد بطاعون أصابهم وهم مهاجرون لمصر ، ثم هلك أبوهم بطريق مصر ، وقيل بطريق أفريقية مع عبد الله بن الزبير والبيت هو :

وتجلدي للشامتين أريهم     اني لريب الدهر لا أتضعضع

وأن الحسين أجابه بالبيت الآخر منها وهو :

واذا المنية أنشبت أظفارها     الفيت كل تميمة لا تنفع !

وآثار الكذب ظاهرة على هذه القصة ، فالله تعالى يجازي من يضع هذه القصص بأسوأ عمله . أما أولا فلأن الحسن توفي قبل معاوية قطعاً . وأما ثانياً فلأن الحسين لم يكن حين وفاة معاوية بالشام . فما هذه الفرية ؟

قال ابن خلكان في ترجمة يحيى بن اكثم القاضي ما نصه : والحسين لم يحضر وفاة معاوية لأنه كان بالحجاز ، ومعاوية توفي بدمشق ، ثم وجدت في اول كتاب التعازي تأليف ابي العباس المبرد هذه القصة جرت للحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه اهـ . وعلمت الطعن الذي يلحقها .

ثم ذكر قصة مكذوبة اخرى وكلها — بغير سند — ان عقيلاً لما مات اخوه سيدنا علي صار معاوية يسمعه ما يكره ، وانه دخل عليه يوماً فقال معاوية لأهل الشام : اتعرفون ابا لهب الذي انزل الله في حقه قوله تعالى : **( تبت يدا ابي لهب وتب )** من هو ؟ فقال اهل الشام : لا ، فقال معاوية : هو عم هذا . واشار الى عقيل .

فقال عقيل في الحال : أتعرفون امرأته التي قال الله في حقها : **( وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد )** من هي ؟ فقالوا : لا . فقال هي عمة هذا . وأشار الى معاوية ، وكانت عمته أم جميل بنت حرب ابن امية بن عبد شمس بن عبد مناف زوجة ابي لهب بن عبد العزى اهـ . — ولكن أبا لهب هو ابن عبد المطلب واسمه عبد العزى — .

أما ظاهر كذبها فلعدم السند فهي موضوعة ، وأما ثانياً فمعاوية أدهى من أن يخزي نفسه أمام أهل الشام مع معرفته أجوبة أهل البيت ، فقاتل الله من يضع هذه الأكاذيب التي يعدها من مستملحات الحديث ، وهي من لهوه . ثم ذكر مثالب يحيى بن أكثم رضي الله عنه ، والله يعلم انه نزيه عما نسب اليه من تلك الكذبات ، قال ابن خلكان في جملة ما ترجمه به ما نصه : وذكر الخطيب في تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضي الله عنه ما يرميه الناس به فقال : سبحان الله من يقول هذا ؟ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وذكر عنه انه كان يحسد حسداً شديداً ، ثم ذكر تفننه وذكاءه وعلمه وما رمي به ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

# في ردّ ما افتراه أعداء العلم
## علىٰ قُرّاء كتابه تعالى

من ذلك ما افتراه أعداء العلم وأهله على الكسائي الذي خطأ سيبويه في المسائل النحوية الشهيرة التي سنذكرها ، وقصدهم بذلك الطعن في الكسائي بأنه يضع الأكاذيب ويحرف القواعد حتى ترد روايته ، لأن مثله إمام من أكبر أئمة القرأء اذا كان لا يتحاشى عن مثل هذه الكذبة الشنيعة ، كيف يؤمن على كتاب الله والرواية والقراءة . ولو صدرت مثل هذه القصة مع أحد أبناء زماننا لعدت فرية مسقطة له من العدالة وأهلية الرواية ، وكانت له من أعظم العيوب المشينة .

قال ابن هشام في مغنيه :

**مسألة :** قالت العرب قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، وقالوا أيضا فاذا هو أياها ، وهذا هو الوجه الذي أنكره سيبويه لما سأله الكسائي ، وكان من خبرهما أن سيبويه قدم على البرامكة فعزم يحيى بن خالد على الجمع بينهما ، فجعل لذلك يوماً ، فلما حضر

سيبويه تقدم اليه الفراء وخلف ، فسأله خلف عن مسألة فأجاب فيها فقال له اخطأت ، ثم سأله ثانية وثالثة وهو يجيبه ويقول له أخطأت ، فقال له سيبويه : هذا سوء ادب . فأقبل عليه الفراء فقال : ان في هذا الرجل حدة وعجلة ، ولكن ما تقول فيمن قال هؤلاء أبون ومررت بأبين ، كيف تقول على مثال ذلك من وايت او أويت ؟ فأجابه فقال : أعد النظر . فقال : لست اكلمكما حتى يحضر صاحبكما . فحضر الكسائي . فقال له الكسائي : تسألني أو أسألك ؟ فقال له سيبويه : سل أنت . فسأله عن هذا المثال فقال سيبويه : فاذا هو هي ولا يجوز النصب . وسأله عن أمثال ذلك نحو خرجت فاذا عبد الله القائمُ أو القائمَ . فقال له كل ذلك بالرفع . فقال الكسائي : العرب ترفع كل ذلك وتنصبه . فقال يحيى : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما . فقال الكسائي : هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون . فقال يحيى وجعفر : أنصفت. فأحضروا ، فوافقوا الكسائي ، فاستكان سيبويه، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج الى فارس فأقام بها حتى مات ، ولم يعد الى البصرة . ويقال إنهم انما قالوا القول قول الكسائي ، ولم ينطقوا بالنصب ، وأن سيبويه قال ليحيى : مرهم أن ينطقوا بذلك فان ألسنتهم لا تطوع به . ولقد أحسن الامام الأديب أبو الحسن حازم بن محمود الأنصاري القرطاجني اذ قال في منظومته في النحو حاكياً هذه الواقعة والمسألة الخ ... ما ذكره ابن هشام .

واني أقول ليت شعري ومن أين سند هذه القصة ؟ ومن رواها حتى وصلت لأبي الحسن حازم الأنصاري ؟ وممن تلقاها ابن هشام حتى أثبتها في مغنيه ؟ وهل يصدق أن الكسائي يقرأ في القرآن العظيم جميع الآيات على ما قاله سيبويه ثم يخالف ذلك مكراً وحسداً وكذباً وعناداً هو وتليمذه خلف رضي الله عنهما ؟

وأني أذكر حكم تلك المسائل موضحاً مختصراً ليعرفها من أرادها ملخصة من المغني وحواشيه : هو ان اذ تستعمل للمفاجأة ولغيرها ، فاذا استعملت للمفاجأة اختصت بالجمل الاسمية ولا تحتاج الى جواب لعدم تضمنها معنى الشرط ، ولا تقع في الابتداء اي في صدر الكلام ، وذلك لدلالتها على فجأة ما بعدها لما قبلها ، فلا بد من تقدم شيء عليها ، ومعنى ما قبلها وما بعدها الحال وان كانا ماضيين نحو خرجت فاذا الأسد بالباب ومنه فاذا هي حية تسعى . اذا لهم مكر . فاذا هي بيضاء . فاذا هي شاخصة . فاذا هم خامدون . فاذا هم بالساهرة . وهي حرف عند الأخفش ، ويرجحه قولهم خرجت فاذا إن زيداً بالباب بكسر إن لأن إن لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن لها الصدر . واختار هذا القول ابن مالك ، وقيل ظرف مكان كما هو عند المبرد ، واختاره ابن عصفور . قال الرضي : مقتضاه أنها ليست مضافة الى الجملة بعدها إذ ليس لنا ظرف مكان يضاف الى جملة الا حيث .

وقيل ظرف زمان ، كما هو عند الزجاج ، واختاره الزمخشري ، وهو ظاهر كلام سيبويه ، أما إعرابها فحيث كانت حرفاً فلا تعمل ، ولا يعمل بها ، وحيث كانت ظرف مكان يجوز كونها خبراً اذا لم يصرح بالخبر نحو خرجت فاذاً الأسد أي فبالحضرة الأسد . وأما في التنزيل فانها لم تقع الا مصرحاً بخبر ما بعدها ، وحينئذ فهي معمولة للخبر في نحو فاذا زيد جالس .

واذا كانت ظرف زمان فان كان الخبر موجوداً فهي معمولة له في نحو خرجت فاذا زيد جالس وان لم يكن موجوداً فحيث كان ظرف الزمان لا يقع خبراً على الجثة فيقدر مضاف نحو خرجت فاذا الأسد أي حضور الأسد .

وأما فاذا هو إياها أن ثبت فاذا هي حيةٌ بنصب حية بغير التنزيل فخارجة عن القياس واستعمال الفصحاء كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل . وسيبويه واصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك ، وان تكلم بعض العرب به كما في ابن هشام ، ولذا لا نطيل بتوجيه الكلام ، ولم أدر من أين نقل ابن هشام هذه القصة ؟ ولعله اعتمد على ما نقله الامام ابو الحسن حازم بن محمد الأنصاري القرطاجني بفتح القاف وسكون الراء وبالجيم والنون المشددة ، نسبة الى قرطاجنة الأندلس لا قرطاجنة تونس ، وهو أحد مشايخ أبي حيان ممتلىء العلم والأدب نزل تونس وامتدح المنصور صاحب أفريقيا أبا عبد الله محمد بن الأمير زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص بقصيدة ضمن بها هذه القصة ، ولم يوجد من هذه القصيدة الا نحو مئتي بيت ساقها السيوطي في كتاب له يسمى منهاج البلغاء ، ومات سنة ثمانمئة وأربع وستين . نقل ذلك كله الأمير في حاشيته على المغني .

ومن أين وجدت هذه الأبيات ؟.. ومن أين نقلت؟.. ولا أظنها صحيحة النسبة للقرطاجني المنسوبة اليه ، وانما صنعها واضعها ومبتدعها ثم نسبها الى الشيخ هنيء الدين أبي الحسن الحازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي القرطاجني المذكور ، ومن هذه النسبة ابتدأ كذبها وهو بريء منها . والعجب من الامام السيوطي على سعة باعه في الحديث وطول مراسه ، وشدة حفظه رحمه الله ، كيف يعتمد نسبة مثل هذه الأبيات الى أبي الحسن حازم ، وكيف وصلت اليه – ذلك الامام – ؟ وكيف ان ابن هشام يصدق تلك النسبة وليسا بمن يقبل ارسالهم حتى نعتقد بصحة نسبة الأبيات أو بصحة القصة ؟ والامام الشافعي لا يقبل المرسل والمنقطع من حيث هو ولو كان المرسل من كبار التابعين الا مراسيل سعيد بن المسيب، فكيف ارسال ابن هشام والسيوطي

في قصة مصادمة لقواعد القرآن العظيم ممن يؤسس ويوطد قواعده ويرويها على اتم وجه واحسنه ، وسنذكر نبذة من ترجمته ليستدل المطالع على استبعاد نسبة أمثال هذه الكذبات على ذلك الامام الا من أعداء الاسلام .

وقد نقل هـذه القصة التاج السبكي في تاريخه بترجمة أبي حيان النحوي ، وذكر كثيراً من أبيات القصيدة وحاول توجيه ما نسب للكسائي وقال في شرح الأبيات المنسوبة لأبي حازم في هذه المسألة ما نصه :

وتوضيح هذه الأبيات قوله والعرب قد تحذف الأخبار بعد اذا .. البيت يعني ان العرب قد تحذف خبر المبتدأ الواقع بعد اذا الفجائية ، تقول خرجت فاذا الأسد أي حاضر . والغالب ان يذكر الخبر بعدها حتى انه لم يقع في كتاب الله الا مذكوراً نحـو فاذا هي شاخصة . فاذا هي حية . فاذا هي بيضاء للناظرين . اذا هم جميعاً لدينـا محضرون . وهو كثير .

وقوله : اذا غدا فجأة .. البيت ، أي اذا كانت اذا الفجائية لا الشرطية، فان الشرطية لا تدخـل الا على الجمل الفعلية ، بخلاف الفجائية فانهـا تختص بالاسمية ، وقد اجتمعتا في قوله تعالى : **( ثم اذا دعاكم دعوة مـن الأرض اذا أنتم تخرجون )** . الاولى شرطية والثانية فجائية .

قوله : فان تلاها ضميران ، أي ان وقع بعد الفجائية ضميران نحـو قولك فاذا هو هي الأصل فاذا هو مثلها ، فهو مبتدأ ، ومثل خبر ، وها مضاف اليه ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف أليه مقامه ، فارتفع وانفصل وصار فاذا هو هي ومن قال فاذا هو إياها فالأصل فاذا هو يشبهها فهو مبتدأ ويشبهها فعل وفاعل ومفعول ، والجملة خبر ثـم حذف الفعل والفاعل وبقي المفعول فانفصل وصار فاذا هو إياها ونظيره

في حذف الخبر وبقاء معموله قراءة علي رضي الله عنه   ونحن عصبةٌ ،
وقول النابغة الذبياني :

وحلت سواد القلب لا أنا باغياً   سواها ولا عن حبهـا متراخياً

التقـدير لا أنا أوجد باغياً أهـ .

وانما ذكرت هذا التوجيه ليعلم تكلفه وتمحله ، اذ ما الفرق بين المظهر والمضمر ، والمظهر يكون تفسيراً للمضمر ، فحيث كانت آيات الكتاب العزيز كلهـا بالرفع فما الداعي لارتكاب التقـدير والحذف ثم تشبيهه بالقراءة الشاذة وهي تمحلات يجل عنها مقام الكسائي الذي انقطعت نسبة هـذه الحكاية له وانتهت الى أبي حازم إن صحت نسبة هذه الأبيات له ، وليس لاتصالها به سند والله أعلم .

والذي حمل هؤلاء العلماء على نقل أمثال هذه القصص ، إما تحسين الظن بمن رأوه نقلها ، أو لاستظراف القصة ، أو لتوطيد القواعد العربية وترسيخها بقصة مثل هذه القصة تحتمل الصدق والكذب ، وكذبها أرجح بل مؤكد ، مع استصغارهم جرم مثل هذه الفرية عن الكسائي وتليمذيه رضي الله عنهم . وقـد ترجم ابن حازم المذكور الامام السيوطي في طبقات النحاة ونوه بفضله وعلمه كثيراً ، وأشار الى تلك القصيدة ولم يذكر سنده اليه فيها لنعلم كيف وصلت أليه والى ابن هشام وممن تلقوها ، وقد صرح الأمير في حاشيته على المغني بأن أبا حازم المذكور نظم قصيدة في النحـو لم يوجد منها سوى مئتي بيت ، فيدل أن المفتري نظم هذه الأبيات وألصقها الى ذاك الامام وانتهى قصده من الفرية ، ثم تنوقلت حسبما وجد محرراً عليها أنها من نظم فلان ، وهذا القدر لا يكفي في نسبة الكتب الى أربابها على ما بيناه في مقدمة الكتاب ، على أن كتاب سيبويه مع ضخامته واحتوائه

وجمعه لم يذكر هذه القصة والمسألة ولم يشر اليها ، ولم اجدها في كتاب معتمد بسند صحيح او مطعون .

وهل يعقل ان مثل الكسائي يرشو العرب او يأمر برشوتهم لترويج امر باطل . والرشوة حرام اخذاً واعطاء .

وانظر الى ما نقله سيدي عبد العزيز الديريني في كتاب طهارة القلوب في الفصل السادس في الغيبة ومقدماتها ما نصه :

قيل للكسائي لما حضرته الوفاة : ما كان عملك ؟ قال : لو لم يقترب أجلي ما أخبرتكم ، وقفت على باب قلبي أربعين سنة كلما مر عليه غير الله رددته عنه اهـ .

وان تحليل سؤال الفراء انه كيف يقال من وايت واويت مثل ابون وابين . قال ابن هشام فجوابه : أن ابون جمع اب ، واب فعل بفتحتين ، واصله ابو ، فاذا بنينا مثله من أوى أومن واى ، قلنا اوى كهوى ، او قلنا واى كهوى أيضا ، ثم نجمعه بالواو والنون فتحذف الألف كما تحذف الف مصطفى ، وتبقى الفتحة دليلا عليها فتقول : أوون أو وأون رفعاً ، وأوين ، أو وأين نصباً وجراً ، كما تقول في جمع عصى وقفى اسم رجل عصون وقفون وعصين وقفين ، وليس هذا مما يخفى على سيبويه ولا على أصاغر الطلبة . قال محشيه الأمير فهو أجاب به ولا شك ، وانما خطأه الفراء لأن مذهبه أن أصل أب فعل بسكون العين كما في الأشموني وغيره ، فيقال على مثاله من واى ، وايٌ كظبي ، ويجمع على أبون ، كما تقول في ظبي مسمى به ظبيون ، وأما من أوى فيقال أويٌ أجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وتدغم الياء في الياء ، ثم اذا سمي به جمع على أبون ، والصواب مع سيبويه لأنه سمع فيه القصر أعني أبي كفتي

والواو لا تقلب الفـا الا اذا انفتح ما قبلها ولتثنيته على أبوان وجمعه على افعال والساكن لا ينقاس فيه هذا الجمع الا اذا اعتلت عينه كثوب اهـ .

فأنت ترى من مجموع ما ذكر دلائل الكذب تلوح على هـذه القصة ، وكيف يسأل مثل سيبويه ما لا يخفى على أصاغر الطلبة ؟ ثم تشاع هـذه الأخبـار والوقائع أمام الوزراء والملوك الذين هم حكام العـالم وأساطين الدنيا ، وبأبوابهم من العلماء والشعراء واللغويين من لا تروج عليهم هـذه السفاسف ، فليتق الله المؤرخون ونقلة الأخبار ، وليكونوا مثل ابن عساكر في اقل الأحوال اذا ارادوا نقل قصة أن يبينوا سندها ليلقوا تبعتها على من قالهـا .

وقد ذكرها ابن خلكان أيضاً في ترجمة سيبويه بدون عزو لكن على غير ما ذكرها ابن هشام ، وهو ان الذي جمع بينهما هو الرشيد فجمع بينهما وتناظرا ، وجرى مجلس يطول شرحه ، وزعم الكسائي أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعة من النحلة فاذا هو إياها ، فقال سيبويه : ليس المثل كذا بل : فاذا هو هي . وتشاجرا طويلا ، واتفقا على مراجعة عـربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهـل الحضر ، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه ، فاستدعى عربيـاً وسأله فقـال كما قال سيبويه ، فقال له : تريد أن تقول كما قال الكسائي . فقـال : ان لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق ألا الى الصواب . فقرروا معه أن شخصاً يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما ؟ فيقول العربي : مع الكسائي . فقال : هذا يمكن . ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائي ، وهو كلام العرب . فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه ، وتعصبوا للكسائي الخ . . . ، واختلاف هذه القصة أعظم دليل على كذبها

حسب شروط المحدثين مع عـدم السند في شيء مما نقلوه والله اعلم .

والذي تأكد عندي ان كل عالم نحرير محسود مكذوب عليه ، والذي يؤيد ذلك الأبيات التي ذكرها ابن خلكان في ترجمته انه أرسلها للرشيد يشكو العزوبة حيث لم يكن له زوجة ولا جارية ، فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم وجارية حسناء بجميع آلاتها وخادم وبرذون بجميع آلاته ، واليـك الأبيـات :

| | |
|---|---|
| قـل للخليفـة ما تقـول لمـن | أمسى إليـك بحرمةٍ يـدلي |
| ما زلت مذ صار الأمـين معي | عبدي يدي ومطيتي رجـلي |
| وعـلى فراشـي مـن ينبهني | مـن نومتي وقيـامه قبـلي |
| أسـعى برجـل منـه ثالثـة | موفـورة مني بـلا رجـل |
| واذا ركبت أكـون مرتدفـاً | قـدام سـرجي راكب مثـلي |
| فامنـن عـليّ بمـا يسكنـه | عني واهـد الغمـد للفصل |

ولعمري ان هذا الشعر الثقيل ليستحي أحد الأقران ان يبعث بـه لقرينه ، فضلا عن أن يرسله الامام الكسائي لهارون الرشيد ، فلا جزى الله خيراً من يفتري على الأئمة وأصلح الله المؤرخين الذين لا يحكمون عقولهم فيما ينقلون وانا لله وانا اليـه راجعون .

وحبذا لو ذكـر الناقلون سند هذه القصص التي يسوقونها ليرفعوا عنهم إثم تحملها ، ولعرفنا الناقل الكاذب فيها كما هو دأب محدث الشام ومفخرتها ابن عساكر حيث لا يذكر قصة الا ويذكر سندها ويخرج من إثم نقلها . فمن كان من رجال النقد يعلم الصحيح من الكاذب والله أعلم .

ومن ذلك ما نقله في الاحياء للغزالي في الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم أوائل كتابه قـال :

وحكي ان ابا يوسف القاضي كان يهب مالـه لزوجته آخـر الحول ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة ، فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فان ذلك من فقه الدنيا ، ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل خيانة ، ومثل هذا هو العـلم الضار اهـ .

قال شارحه السيد محمد مرتضى : وقد أورد هذه الحكاية صاحب القوت فقال : وقد حدثنا عن أبي يوسف انه كان اذا صار الحول وهب ماله لامرأته واستوهبها مالها فتسقط عنهما الزكاة ، فذكر ذلك لأبي حنيفة فقال : ذلك من فقهه . وانما يطلب العلم لمعرفة الورع والاحتياط للدين ، فهذا هـو العلم النافع فاذا طلب لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهـل خـيراً منـه اهـ .

ولد الامام ابو يوسف سنة ١١٤ وتوفي ببغداد سنة ١٨٣ .

ولا أظن هـذا النقل الا مدسوساً على الغزالي ، وصاحب القوت ، وحاشا الله أن يجرأ هذا الامام على هذا الفعل المشين للدين ، ولم يبلغ به الشح الى هذا الحد الذي لا يعقل ، ومن روى هذه الحكاية من المحدثين ؟ وأين سندها المتصل حتى تناقش رجاله ؟ وتعليقات البخاري اذا لم تكن مسندة غير مقبولة فكيف بهذه الكتب التي بينها وبين المنقول عنه مئات السنين ؟!!!.

ومن ذلك ما رأيت في كتاب مواهب الجليل للعلامة أبي عبد الله محمد ابن محمد بن عبـد الرحمن المغربي الأصل المكي المولد الرعيني المعروف بالحطاب المولود سنة ٩٠٢ تسعمائة واثنين والمتوفى سنة ٩٥٤ تسعمائة وأربع وخمسين . كما هو محرر على ظهر النسخة ، وهو شرح مختصر أبي الضياء خليل في مذهب الامام مالك ما نصه :

( فائـدة ) قال القرافي في الفرق الثاني والستين بعد المائتين : حكى صاحب مجالس العلمـاء ان الرشيد كتب الى قاضيه ابي يوسف هـذه الأبيات وبعث بها اليه يمتحنه بهـا .

فان ترفقي يا هند فالرفق أيمن — وان تخرقي ياهند فالخرقاشام

فأنت طـلاق والطلاق عزيمـة — ثلاث ، ومن يخرق أعـق واظلم

فبيني بهـا ان كنت غير رفيقة — وما لامرىء بعـد الثلاث مقـدم

وقال له : اذا نصبت ثلاثاً ماذا يلزمه ؟ واذا رفعناه كم يلزمه ؟ فأشكل عليه ذلك ، وحمل الرقعة الى الكسائي وكان معه في الدرب ، فقال لـه الكسائي : اكتب في الجواب يلزمه بالرفع واحدة ، وبالنصب ثلاث . بمعنى أن الرفع يقتضي ان الثلاث خبر عن المبتدأ الذي هو الطلاق الثاني ، ويكون منقطعاً عن الأول ، فلم يبق الا قوله أنت طالق فيلزمه واحدة . وبالنصب يكون تمييزاً لقوله فأنت طالق فيلزمه الثلاث . فان قلت اذا نصبناه أمكن أن يكون تمييزاً عن الأول كما قلت ، وأن يكون منصوباً على الحال من الثاني أي الطلاق معزوم عليه في حال كونه ثلاثاً أو تمييزاً فلم خصصته بالأول ؟

قلت : الطلاق الأول منكر يحتمل تنكيره جميع مراتب الجنس وأعداده وأنواعه من غير تنصيص على شيء من ذلك لأجل التنكير فاحتاج للتمييز ليحصل المراد من ذلك المنكر المجهول . وأما الثـاني فمعرفة استغنى بتعريفه واستغراقه الناشىء عـن لام التعريف عن البيان ، فهـذا هـو المرجح . ويحكى عـن الرشيد أنه بعث بهـذه الرقعة أول الليـل ، وبعث ابو يوسف الجواب بها أول الليل على حاله ، وجاءه من آخر الليل بغال موثقة قماشاً وتحفاً جائزة على الجواب ، فبعث بها أبو يوسف الى الكسائي ولم يأخذ منها شيئاً بسبب أنه الـذي أعانه على الجواب فيها . انتهى .

قلت : ونقل ابن عرفة في هذا الباب كلام القرافي المذكور برمته ولم يزد

عليه شيئا ، ونقل الحكاية ايضا ابن هشام في المغني وفي الكلام على ال ، لكن قال ابن عابدين في رد المحتار على الدر المختار :

قال في الفتح وهو بعد كونه غلطا بعيد عن معرفة مقام الاجتهاد ، فان من شرطه معرفة العربية واساليبها ، لأن الاجتهاد يقع في الأدلة السمعية العربية ، والذي نقله اهل الثبت من هذه المسألة عمن قرأ الفتوى حين وصلت خلافه ، وان المرسل الكسائي الى محمد بن الحسن ، ولا دخل لأبي يوسف أصلا ولا للرشيد ، ولمقام أبي يوسف أجل من أن يحتاج في مثل هذا التركيب مع امامته واجتهاده وبراعته في التصرفات من مقتضيات الألفاظ . ففي المبسوط ذكر ابن سماعة أن الكسائي بعث الى محمد بفتوى فدفعها الي فقرأتها عليه فكتب في جوابه ما مر ، فاستحسن الكسائي جوابه ، وذكر الحلبي عن حاشيته على المغني للجلال السيوطي أن هذا هو المروي في تاريخ الخطيب البغدادي . ثم قال ابن عابدين ناقلا عن المغني :

أقول : ان الصواب أن كلاً من الرفع والنصب محتمل لوقوع الثلاث والواحدة . أما الرفع فلأن ال في والطلاق إما لمجاز الجنس كزيد الرجل أي هو الرجل المعتد به ، وإما للعهد الذكري أي وهذا الطلاق المذكور عزيمة ثلاث ففي العهد به تقع الثلاث ، وعلى الجنسية تقع واحدة ، وأما النصب فانه يحتمل أن يكون على المفعول المطلق ، فيقتضي وقوع الثلاث . إذ المعنى فأنت طالق طلاقاً ثلاثاً ثم اعترض بينهما بقوله : والطلاق عزيمة وأن يكون حالا من المستتر في عزيمة . وحينئذ لا يلزم وقوع الثلاث لأن المعنى والطلاق عزيمة اذا كان ثلاثاً ، بل يقع ما نواه هذا ما يقتضيه اللفظ . والذي أراده الشاعر الثلاث لقوله : فبيني بها الخ ... اه .

وذكر في الفتح : ان الظاهر في النصب المفعول المطلق ، وفي الرفع العهد الذكري فيقع الثلاث ، ولذا ظهر من الشاعر انه اراده . انتهى ما في حاشية الدر لابن عابدين .

# في الأغاليط التي افتُرِيَ بها على أعاظم الرّجال

من ذلك ما رأيته في تاريخ ابن الوردي في وقـائع ٢٤٢ اثنين وأربعين ومائتين ، في ذكر ترجمة القاضي يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب ، وأن يحيى توفي بتلك السنة ، وأنه الذي أرجع المأمون عن القول بخلق القرآن ، وأنه كان يتهم بالصبيان ، وقد قيل فيه أشعار ذكر منها ما يخجل القلم عن تسطيره . وقد تتبعت أصل التاريخ الذي اختصره ابن الوردي وهـو تاريخ الملك المؤيـد صاحب حماه اسماعيل ابن الملك الأفضل علي صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢ فوجدته به وقد انتهى تاريخه الى سنة ٧٠٩ ، وذيله ابن الوردي من هذا التاريخ الى سـنة ٧٤٩ ، وتوفي ابن الوردي عمـر بن محمد بن أبي الفوارس الوردي المصري الشافعي سنة ٧٥٠ .

وأني لأعجب من ذكر هذه القصة وهذا الهجاء لمثل ابن أكثم وأن يصدر من مثل الملك المؤيد أبي الفدا ويتابعه عليه الشيخ عمـر بن الوردي ، وان

هـذا يعد من القذف المحرم الذي لا يجوز اطلاقه على أحـد بنص القرآن العظيم مع ما بينهما من بعد العهد خمسمائة سنة بل اكثر ، وأين السند الثابت حتى يتيقن بهـذه القصة وهذا الطعن الأليم الذميم ؟ ولكنها مـن بعض أغاليط المؤرخين مع ما كان عليه هـذا الامام العظيم من علو القـدر والمقدار لا سيما ما تواتر عنه من سعة الباع وكثرة العلم حينما أراد المأمون توليته القضاء وكان ابن ثمان عشرة سنة ، وفي شرح الملتقى للعلائي مانصه : ومن الطفها المسألة المأمونية ، وسميت بذلك لوقوعها في خلافة المأمون ، وهو أبو العباس أو أبو جعفر عبد الله بن الرشيد ، فانه كان كلما أراد أن يولي القضاء لأحد يسأل عنها فلم يجبه عنها أحد حتى وصف له يحيى بن أكثم ، فاستحضره الخليفة ليوليه قضاء البصرة ، فلما دخـل عليه وكان دميم الخلقة فاستحقره فأحس يحيى بن أكثم بذلك فقال : يا أمير المؤمنين سلني ، فان المقصود علمي لا جسمي ، وصوتي لا صورتي . وكان من عادة الخلفاء أن يمتحنوا القضاة والعمال والأمراء بالفرائض ، فقـال : ما تقول في أبوين وابنتين لم تقسم التركة حتى ماتت أحـد البنتين وخلفت من في المسألة أو زوجاً ومن في المسألة . فقال : يا أمير المؤمنين هل الميت الأول رجل أو امرأة . فأعجب المأمون من فطنته وقال : اذا عرفت الفرق عرفت الجواب . فكتب له عهده وولاه على البصرة . ــ فإنه ان كان الميت الأول امرأة يكون الجـد فاسداً فلا يرث ــ . قيـل فاستحقره مشايخ البصرة واستصغروه فامتحنوه فقالوا : كم سن القاضي ؟ فقـال : سن عتاب بن أسيد حين ولاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة فسكتوا أهـ .

وذكر هذه القصة ابن خلكان ، ونقل عن الخطيب في تاريخ بغـداد أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها فاستصغره أهـل البصرة فقالوا : كم سن القاضي ؟ فعلم أنه قـد استصغر فقال :

أنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سوار الذي وجه به عمـر بن الخطاب قاضياً على أهل البصرة . فجعل جوابه احتجاجاً اهـ .

قلت وفي حفظي أنه قال : سني سن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمرة الجيش وفي عسكره أبو بكر وعمر ، سني سن معاذ بن جبل الخ . . ، سني سن عتاب بن أسيد الخ . . ، سني سن كعب ابن سوار الخ . . . فانظر الى هذا الجبل في العلم أكان يشغل نفسه بما يفسق به مع أنه عاصر كثيراً من الأولياء والعلماء وكان في رأسهم ويرجعون اليه . ولو كان هـذا في عصرنا عصر الفسوق والضلال لأبينا كل الإباء أن يولى قاض يحكم بالشرع في مثل تلك التهم ! فكيف بتلك العصور والاسلام غض طري لم يثلم ، فلو أقسمت على كذب هذه القصة وأمثالها لكنت باراً ولا أحوج نفسي كثرة التتبع للشواهد الدالة على كذبها وحسبك شاهداً أنه لا سند لها ولا مستند ولا حـول ولا قـوة الا بالله .

وأنني أكتفي بنقل ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته أولها قال :

ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه ، وأنه كان يعاقر المأمون الخمر ، وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق ، وينشدون على لسانه :

| | |
|---|---|
| يا سيدي وأمير الناس كلهم | قد جار في حكمه من كان يسقيني |
| اني غفلت عن الساقي فصيرني | كما تراني سليب العقل والدين |

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم ، انما كان النبيذ ولم يكن محظوراً عندهم ، وأما السكر فليس من شأنهم ، وصحابته للمأمون انما كانت خلة في الدين ، ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ،

ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسّس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن اكثم ، وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعاً ، فأين هذا من المعاقرة . وأيضاً فان يحيى بن أكثم كان من علية اهل الحديث ، وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل القاضي وخرّج عنه الترمذي في كتابه الجامع ، وذكر المزي الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع ، فالقدح فيه قدح في جميعهم ، وكذلك ما يثيره المجازف بالميل الى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصاص الواهية التي هي من افتراء أعدائه فانه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزهاً عن مثل ذلك ، ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه بن الناس فقال : سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا ؟ وأنكر ذلك انكاراً شديداً ، ـ كما أشرنا لذلك فيما سبق ـ وأثنى عليه أسماعيل القاضي ، فقيل له ما كان يقال فيه فقال : معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد . وقال أيضاً في يحيى بن أكثم : أبرأ الى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ، ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق ، فرمي بما رمي به . وذكره ابن حيان في الثقات وقال : لا يشتغل بما حكي عنه لأن أكثرها لا يصح عنه أهـ .

وقد ذكر سيدي عبد الغني النابلسي في كتابه غاية المطلوب في محبة المحبوب نبذة مختصرة من ترجمة ابن أكثم وأبي نواس قال : والذي ورد عن أبي نواس الحسن بن هانىء ويحيى بن أكثم رضي الله عنهما من محبة الغلمان والقصص الواردة عنهما في ذلك مع عفافهما وجلالة مقدارهما وعلو فضلهما في العلم والهدى ولم يكن ذلك طاعناً في روايتهما للحديث عند الأئمة

الثقات ، فقد ورد أنه روى عن أبي النواس مثل الشافعي وأحمد بن حنبل ، وروى عن يحيى بن اكثم مثل الامام الترمذي في سننه . قال ابن كثير في تاريخه المرتب على السنين : في سنة خمس وتسعين ومائة مات أبو نواس الشاعر المشهور واسمه الحسن بن هانىء ، روى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان ويحيى القطان ، وروى عنه محمد بن ابراهيم بن كثير الصوفي وحدث عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل والجاحظ وغندر ومشاهير العلماء .

وقال الحافظ الذهبي في الكاشف عن رجال الكتب الستة : يحيى بن أكثم ، أبو محمد التميمي المروزي القاضي عن عبد العزيز بن أبي حازم وابن المبارك ، وعنه الترمذي والسراج ، وكان من بحور العلم لولا دعابة فيه ، تُكُلِّمَ فيه ، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين . وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه تقريب التهذيب : يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي المروزي أبو محمد القاضي المشهور فقيه ، الا أنه رمي بسرعة الحديث ولم يقع ذلك له وانما يروي الرواية بالاجازة والوجادة من العاشرة ، مات في آخر سنة اثنتين أو ثلاث وأربعين ومائتين وله ثلاث وثمانون سنة أهـ .

ومعلوم أن الامام الشافعي رحمه الله تعالى توفي بعد وفاة أبي نواس لأنه توفي سنة مائتين وأربع ، وأحمد بن حنبل توفي سنة مائتين واحدى وأربعين أهـ .

قوله اذا كانوا يطعنون بيحيى بن أكثم أنه يروي بالاجازة والوجادة فما بالك بوجادات زماننا التي جميع مطبوعاتها بالوجادة التي لو اطلع عليها

الأسلاف لجعلوها مع السفساف لا سيما بالكتب التي تروي الأقاويل الشاذة عن الأئمة المنقرضة مذاهبهم واتباعهم .

وقد ذكر ابن خلدون من امثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران ،وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد على زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة آلفتل من الحرير ، فاقتعده وتناول المعالق فاهتزت ، وذهب به صعداً الى مجلس شأنه كذا ، ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس ، وأن امرأة برزت له من خلال الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة ، فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح . ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حباً بعثه على الاصهار الى أبيها .

وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه ، واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه ، وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ، ومناظرته للعلماء ، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه ، فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل العشاق الأعراب . وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف . وأمثال هذه الحكايات كثيرة وما يبعث على وضعها والحديث بها الا هتك قناع المخدرات وعداوة السلطات الحاكمة من أرباب العصبية والنزعات الحزبية ، ولو ذكروا غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون .

ولقد عذلت يوماً بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعليم الغناء

وولوعه بالأوتار وقلت له : ليس هـذا من شانك ولا يليـق بمنصبك . فقال لي : افلا ترى الى ابن ابراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه . فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه او اخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم من مناصبهم . فصم عن عذلي واعرض والله يهدي من يشاء .

وكما ينقل من الطعن في حق الخلفاء والملوك ينقل عنهم المدح والثناء . فقد ذكر اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان بسورة النساء تحت قـولـه تعالى : **( ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة )** الى آخر الآية قال : حكي أن أولاد هارون الرشيد كانوا زهاداً لا يرغبون في الدنيا والسلطة ، فلما ولد له ولد قيل له أدخـله في بيت من زجاج يعيش فيه من التنعم والترنم والأغاني حتى يليق للسلطنة ، ففعل ، فلما كبر كان يوماً يأكـل اللحم فوقع عظم من يده فانكسر الزجاج فرأى السماء والأرض فسأل عنهما فأجابوا على ما هو ، فطلب منهم أن يخرجوه من البيت . فلما خرج رأى ميتاً وجـاء اليه وتكلم له فلم يتكلم ، فسأل فقالوا : هو ميت لا يتكلم . فقال وأنا أكون كذلك . قالوا : كل نفس ذائقة الموت . فتركهم وذهب الى الصحراء ، فذهبوا معه فاذا خمسة فوارس جاؤوا اليه ومعهم فرس ليس عليه أحـد فأركبوه وأخذوه وغابوا اهـ .

ومن المعروف المشهور أنه كان لهرون ولد زاهـد سائح يتعيَّر بـه وأقاصيصه بلغت مبلغ التواتر فلعله هـذا . ثم انظر كيف اتفقت كلمـة المؤرخين في قصصهم الحقيقية والخرافية على زهادة أولاد الرشيد ، كمـا نقل عن المأمون وتواتر عنه انه اراد أن يجعل الخلافة في الأشراف وخلـع لبس السواد ولبس الخضرة وجعل علياً الرضا ولي عهده سنة احـدى ومائتين كما ذكره ابن الوردي في تاريخه في حوادث سنة ٢٠٢ وانه ثامن

الأئمة الاثني عشر عند الامامية وهو أبن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، حتى خاف على نفسه من بني عمه والقصة في ذلك معروفة ومشهورة .

وأيضاً ما جنح اليه من القول بخلق القرآن هو ومن بعده الا بما ركز في اذهانهم أنه الحق وارادوا حمل الناس عليه حتى قنع المتوكل بخطأ الراي فرجع عنه وانتهت الرواية في عهده .

وما نقل عنه من اباحة المتعة لما بلغه حديث عمر وقوله : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنهما . ولولا أن قيض الله القاضي يحيى بن أكثم فأقنعه وأرجعه الى الصواب لكان القول بإباحتها الى يومنا هذا ، والأخبار في جنوحهم الى ناحية الدين كثيرة شهيرة فلا يطعن بها الا من طمس على قلبه وبصيرته والله أعلم .

ومن مناقب الرشيد رضي الله عنه ما قيل انه أمر بحبس رجل اتهم بجناية ، ثم سأل عنه فقيل له : هو كثير الصلاة والدعاء وبريء مما اتهم به . فقال للموكل به : أعرض عليه أن يسألني إطلاقه . فقال له الموكل به ذلك فقال : قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي في نعمتك ينقص من محنتي ، والأمر قريب والموعد الصراط والحكم لله . فخرّ الرشيد ساجداً وأمر باطلاقه .

وفي روح البيان بسورة الأعراف تحت قوله تعالى : **( والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً )** ، قال عن عبد الله بن مهران قال : حجّ الرشيد فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه إذ أقبلت هوادج هارون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين ، فكشف السجاف وقال لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير

المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رايت النبي صلى الله عليه وسلم يمضي على جمل وتحته رحل رث فلم يكن ضرب ولا طرد ولا اليك إليك وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك . فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الأرض وقال : يا بهلول زدنا يرحمك الله . فقال : هب انك قد ملكت الأرض ودان لك العباد فكان ماذا ، أليس غداً مصيرك جوف القبر ويحثو التراب هذا ثم هذا . فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول ، هل غيره . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق في ماله وعفّ في جماله كتب في خالص ديوان الله من الأبرار . فقال : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة فقال : أردد الجائزة الى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه . قال : يا أمير المؤمنين لا يقضي دين بدين أردد الحق الى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : يا بهلول فيجرى عليك ما يكفيك . فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى . قال في روح البيان : والمقصود من هذه الحكاية بيان استماع هارون الحق وقبوله ، وذلك لأنه كان كالمكان الزاكي وقلبه حياً بالحياة الطيبة ، فلذا لم يخرج منه الا الأخلاق الحميدة اهـ .

وانظر ما نقله في روح البيان عند تفسير قوله تعالى : **( ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب )** أول سورة آل عمران ما نصه :

روي أن يهودياً قال لهرون الرشيد في مسيره مع عسكره : اتق الله . فلما سمع هارون قول اليهودي نزل عن فرسه ، وكذا العسكر نزلوا تعظيماً لاسم الله العظيم .

وما ذلك الا لتتبعه سيرة الصحابة واقتدائه بهم . فقد ذكر في روح

البيان بسورة البقرة تحت قوله تعالى : **( واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم )** ما نصه : قال ابن مسعود رضي الله عنه : من أكبر الذنب عند الله ان يقال للعبد اتق الله فيقول عليك نفسك . وقيل لعمر بن الخطات رضي الله تعالى عنه : اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعاً لله تعالى اهـ .

فهل يعقل ممن هكذا حالهم ، أن يقال في حقهم يعاقرون الخمر ويعملون عمل الفساق ، فالطعن في دينهم والطعن في أخلاقهم طعن في الطاعن لجهله بحقيقتهم وارتكابه قذفاً محرماً بدون دليل ولا سند .

نعم إنا لا ننزههم عن الأخطاء في السياسة التي أدت الى تفريق كلمة المسلمين بزمنهم ، حيث لم يحسنوا لم شعث المسلمين في أقطار الأرض كلها كبني أمية ، فان ملك بني أمية كان جامعاً لبيضة المسلمين على خليفة واحد في أقطار الأرض كلها ، وكلمة العروبة والاسلام في زمنهم اجتاحت العالم كلـه .

ولم يكن فيهم ابن أمة ، الا ما قيل عن مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية ، وانها كانت أختاً لجعد ، فأخذ القول بخلق القرآن عن جعد ، فلقب بالجعدي كما سيأتي في آخر الكتاب ، وأما بزمن بني العباس الذي ليس فيهم أحد الا ابن أمة فانما هو تفرق وانقسام ودول ودويلات ولعب من اليهود في المقدرات كما ستعرفه فيما يأتي في الكلام على ديصان والقداح .

وأكبر خطيئة ارتكبها المعتصم ادخال الأعاجم في الجند ، وتقويه بهم حتى أدى ذلك الى ذهاب الملك من العرب ، ثم فتنة ابن العلقمي التي انتهت بها الخلافة العربية من بغداد ، والله وارث الأرض ومن عليها واليه المصير .

ولكن ما يشهده التاريخ وتؤيده الروايات الصحيحة تمسكهم بمعالي الأخلاق وتنزههم عن سفاسفها وعلو كعبهم في الدين والعلم والفنون حتى روي عن أبي جعفر المنصور لما تولي الخلافة أنه قال للامام مالك رضي الله عنه : لا أعلم بعدي على وجه الأرض أعلم منك ، فضع للناس كتاباً وطئه توطئة تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن مسعود . فقال مالك : والله لقد علمني التأليف من يومئذ . ولما فرغ من تأليفه عرض عليه فقال : الا تحمل الناس عليه فأبى مالك رضي الله عنه .

هذا ما كان عليه ملوك بني العباس من الدين والعلم ، وحسبك بالمأمون الذي لولا أهله لأخرج الخلافة من بني العباس لآل البيت رضي الله عنهم مما لم يفعله أحد قبله .

* * *

# في سبب استئصال العبّاسيين بني اميّة

من ذلك ما يتناقله علمـاء التاريخ أن بني العباس لمـا قاموا بدعوتهم وظفروا بالملك استأصلوا بني أمية قتلاً وتشريداً ، وأنهم ذبحوا تلك المذبحة الشهيرة وهم يتناولون الطعام فوق جثثهم ويتنعمون بسماع حشرجة موتهم وأنينهم . ولنوضح ذلك بأجلى بيان وأصح الوجوه مـع بيان أسباب ذلك وما يصح منـه .

لا يخفى أن أهم أسباب ذلك الحسد والحقد الكامن في الأعاجم الذين ذهب الملك منهم الى العرب فاتخذوا آل البيت وسيلة لايقاع التفرقة بين المسلمين وانتزاع الملك من العرب واعادته لهم ، وشواهد التاريخ على هذا أكثر من أن تحصى ، يأتي ذكر بعضها في هذا الفصل على سبيل المناسبة ، وليس هـذا الكتيب مهيئاً لذكـر القصص التاريخية التي ملئت الأسفار والمكاتب بهـا ، بل نشير الى ما نحتاجه منها بقدر الايضاح .

وأن بني أمية لما اغتصبوا الأمر من آل البيت وصار الأمر اليهم ، لم تزل طائفة من المؤمنين يوالونهم ويودون أن تعود الخلافة اليهم . ولكن الحقيقة ما ذكره ابن جرير في تاريخه في حوادث سنة ستين ومائة في ذكر الخبر عن مسيرة الحسين الى الكوفة وما كان من أمره كما تقدم .

قال : ( أبو محنف ) عن أبي خباب عن عدي بن حرملة عن عبد الله بن سليم والمدري قال : أقبلنا حتى انتهينا الى الصفاح ، فلقينا الفرزدق بن غالب الشاعر ، فواقف حسيناً فقال له : أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب . فقال له الحسين : بيّن لنا نبأ الناس خلفك . فقال الفرزدق : من الخبير سألت ، قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء . وحين عزم على المسير نصحه ابن عباس كثيراً وكثيراً ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا أهـ .

وبعد قتله في كربلاء في اليوم العاشر من محرم سنة احدى وستين زاد حنق القلوب على بني أمية ممن قتلوا الحسين بأيديهم قاتلهم الله فقد خذلوه وندموا وبقيت هذه الفكرة سائدة مرة جهاراً وأخرى بالكتمان ، وأن بني أمية أوغلوا بالفتوحات ونشروا الدين والعروبة واللغة في سائر آسيا وفي أفريقيا وفي نصف أوربا ، فكثر أعداؤهم الأعاجم ومن المجوس وغيرهم ، يكيدون لهم الدسائس وهم مشتغلون بما ندبهم له دينهم بعد أن استتب الأمر لهم من نشر تعاليم الاسلام بكل وسيلة ، فكان مظهر التشويش عليهم والدعوة للعباسيين أبا مسلم الخراساني وأهل خراسان ، ولولاه لما تمت ولما كان العباسيون يحلمون بها ولا يخطر لهم على بال ، ولكن الذي ساعدهم هو تمكن النفوس من حب الاشراف ولقرب عهد نكبتهم بالحسين ، فكان العباسيون مع الاشراف مثل ابن الزبير مع الحسين حينما كان بالحجاز ، فان ابن الزبير كان له طمع بالخلافة ، ولكن مدة وجود الحسين بالحجاز

لم ينبس ببنت شفة .. بل قال للحسين وهما يتناجيان ، والـذي سمع منهما انه قـال له : ان شئت أن تقيم اقمت فوليت هـذا الأمر فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك ... كما تقدم . وقال له عبـد الله بن مطيع : جعلت فداك ، أين تريد . قـال : أما الآن فاني أريد مكـة ، وأما بعدها فاني أستخير الله . قال : خار الله لك وجعلنا فداك ، فاذا أنت أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤومة ، بها قتل أبوك وخذل أخوك واغتيل بطعنـة كادت تأتي على نفسه ، إلزم الحرم فانك سيد العـرب لا يعدل بك والله أهل الحجاز أحداً ، ويتداعى اليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعـدك .

فأقبل حتى نزل مكة ، فأقبل أهلها يختلفون اليه ويأتونه ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق ، وابن الزبير بهـا قد لزم الكعبة فهو قـائم يصلي عنـدها عامة النهـار ويطوف ويأتي حسيناً فيمن يأتيه ، فيأتيه اليومين المتواليين ويأتيه بين كل يومين مرة ، ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه ما دام حسين بالبـلد ، وأن حسيناً أعظـم في أعينهم وأنفسهم وأطوع في الناس ، وهكـذا كان موقف الأشراف في كل زمن أيام الفتن والانقلابات لا أحد يعدل بهم أحـداً ، ولكن العجم قلوبهم ملأى من العرب فلم يجـد أبو مسلم ستاراً لدعوته مـن العرب الذين لهـم نوع قرابـة للشرف الا العباسيين فقام بالدعوة اليهم ، وبعبارة أصرح وأوجز أن أبا مسلم كان هو الخليفة والحاكم المطلق بزمن أبي العباس السفاح وأول حـكم أبي جعفر المنصور ، غـير مدافع ولا أمر لهم تجـاه أمره ولا نفوذ لهم تجـاه نفوذه كالبرامكة مـع الرشيد .

ومن الأدلة على أن القضية عجمية بحتة هو عدم جعل الدعوة لأهـل

البيت الذين هم أرباب الحق المشروع ، والذين هم كانوا يقضون مضاجع الأمويين ثم العباسيين ، ولو صارت الدعـوة اليهم لكانت أسهل وأقرب لاستجابة الناس ولم يذهب ما ذهب ضحية ذلك مـن الأرواح ، ولكن علم أبو مسلم ومن دبروا مكيدة رفـع الأمويين أنه لو عادت الخلافة للأشراف لا يمكـن نزعها منهم وان نزعها من غيرهم أسهل وأسهل ، ولولا مكيـدة أبي جعفر المنصور وتمكنه من قتل أبي مسلم لذهب الملك من العرب مـن مهـده كما ذهب من بعـده .

ومما ذكره ابن جرير الطبري في بحث الكلام على مقتله أنه قتل في دولته ستمائة ألف صبراً ، فما بالك بمن قتله بأسباب أخر أو حرباً ، وهذا القتل انما هـو في المسلمين العـرب خاصة حتى كان يوصي قواده أن لا يتركوا مسلماً عربياً يتكلم بالعربية لأنهم كلهم جند بني أمية ، من أجـل هذا قتل من بقي من الأمويين خشية الانتقاض عليه ، وهم لا يعدون شيئاً في العدد العديد الذي أريق دمه ظلماً وعدواناً وعصبية حتى فرّ أحدهم وهو عبد الرحمن الداخل ونجا بروحه وأعـاد ملكهم في بلاد الغرب والأندلس وكان هناك خالياً من دسائس الأعاجم ، وبقي ملكهم الى أن قضى عليه الاسبان بمشهد من دولة الظلم والأتراك .

ولو نظرت بمن قام للأخذ بثأر أبي مسلم بعد قتله لتحققت أن المسألة أعجمية بحتة منشؤها الحسد والعصبية ، وذلك مثـل سنباذ المجوسي وكان مـن قرية آهن احـدى قرى نيسابور ، فأرسل له المنصور جهور العجلي ، فلما قتل سنباذ سنة ١٣٧ هجرية استقل جهور أيضاً بما معـه من الجنود الأعاجم حتى قتل أيضاً .

وباستيلاء العباسيين وقفت الفتوحات الاسلامية والدعـوة العربيـة

وانقسمت الخلافة بين الشرق والغرب واستبدلت بالدعـوة الأعجمية ، حتى صار أكثر جنـد المعتصم من الأعاجـم ممـا اضطر المعتصم ان يبني لهم بلدة خاصة ومعسكراً مستقلا ليكف اذاهم عن الناس وسماها سر من راى وحرف الى سامرا .

ومما ذكره ابن جرير في تاريخه عن مدى نفوذ أبي مسلم الأعجمي في ذكر الخبر عن مقتله ، وسببه أنه لما حج أبو مسلم وأبو جعفر مات أبو العباس السفاح ، واستخلف بعده أبو جعفر المنصور ، فقال يزيد بن أسيد السلمي لأبي جعفر : اني أكره أن تجامعه في الطريق والناس جنده ، وهم له اطـوع وله أهيب ، وليس معك أحد. فأخذ برأيه ، فكان يتأخر ويتقدم أبو مسلم، وأمر أبو جعفر أصحابه فقدموا فاجتمعوا جميعاً وجمع سلاحهم فما كان في عسكره الا ستة أدرع .

ثم نقل ما قاله الحسن بن قحطبة لمسلم بن المغيرة أن يبلغه أبا أيوب : اني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه ، يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثـم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى أبي نصر فيقرؤه ويضحكان استهزاءاً ، ثم لمـا ظفر أبو مسلم بعسكر عبـد الله بن علي ، بعث المنصور يقطين بن موسى وأمره أن يحصي ما في المعسكر . فقال أبو مسلم ليقطين : أمين على الدماء خائن في الأموال ، وشتم أبا جعفر . فأبلغـه يقطين ذلك ، وأقبـل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف ، وكتب أبو جعفر لـه كتاباً يستقدمه ، فأجابه أنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو الا وأمكنه الله منه ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهـدك ، فان أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فان ابيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي .

فأجابه المنصور بكتاب آخر ، فكتب اليه أبو مسلم : أما بعد فاني اتخذت رجلا اماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نازلا ، وفي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله الى خلقه فكان كالذي دلّى بغرور ، وامرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا اقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم استنقذني الله بالتوبة ، فان يعف عني فقدماً عرف به ، وان يعاقبني فبما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد .

وخرج أبو مسلم يريد خراسان مراغماً مشاقاً . ثم انه ادعى أنه من نسل ابن عباس فكان يقول : انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وخطب أمينة بنت علي حتى يستحكم له ما يريد من الدعوة .

فعاتبه أبو جعفر المنصور على هذه الدعوى الكاذبة حين بطش به ، وكان أبو مسلم قد قتل في دولته وحروبه ستمائة الف صبراً كما ذكرنا فما بالك بغير هذا النوع من القتل ، مع أن ما ذكر من قتل الحجاج الذي يصفونه بأبشع الأوصاف والصفات لم يبلغ معشار ما قتله أبو مسلم .

وأول من قام بالدعوة هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولما مات عهد لابنه ابراهيم ، ولما مات ابراهيم عهد لأخيه أبي العباس السفاح وتمت الدعوة له وتسمى بالخليفة ، ثم لما مات عهد لأخيه أبي جعفر الذي اجتهد بذكائه وحيله وأحابيله حتى استقدم أبا مسلم وقتله وألقاه في الدجلة في خبر يطول ، والله وارث الارض ومن عليها واليه ترجعون . وأن النخوة العربية التي في أبي العباس السفاح غلبت عليه بالعفو عن بني أمية كما ذكره في الأغاني في ذكر قتلهم ، حتى جلس مرة في مجلسه على سريره وبنو هاشم

دونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم ، فدخل عبد ملثم لم يكشف عن وجهه وانشد شعره الذي ذكر فيه اقبح ما فعله الامويون في تاريخهم ، حتى استثار غضب ابي جعفر المنصور فأوقع بهم ، وقيل مدح السفاح بقصيدة فقال لمن حضره منهم أين هذا مما مدحتم به ، فقال له : هيهات لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيات فينا :

ما نقموا من بني أمية الا | انهم يحلمون ان غضبوا
وانهم معدن الملوك ولا | تصلح الا عليهم العرب

فقال له يا ماص كذا من أمه ، فان الخلافة لفي نفسك خذوهم فأخذوهم .

والحاصل ، فان السياسة تقتضي الكياسة والخياسة فمن تمسك باحداهما وترك الاخرى فقد ذل ، وأهل البيت هم بعيدون عن الثانية ، فلذا زلوا عن الخلافة من عهد علي رضي الله عنه فابنه الحسن فالحسين فأحفادهم رضي الله عنهم ، حتى أنه لما حضرت الوفاة الحسن رضي الله عنه قال لأخيه : يا أخي ان أباك استشرف لهذا الأمر فصرفه الله عنه ووليها أبو بكر ، ثم استشرف لها وصرفت عنه الى عمر ، ثم لم يشك وقت الشورى أنها لا تعدوه فصرفت عنه الى عثمان ، فلما قتل عثمان بويع علي ثم توزع حتى جرد السيف فما صفت له ، واني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة ، فلا أعرفن ما استخفك سفهاء الكوفة فأخرجوك . ذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء .

والأمويون لما عرفوا الطريق غلب عليهم حب التوسع في الارض ونشر الدين والعروبة لما لقنوه من شرعية الجهاد بقربهم من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغفلوا عن غير ذلك حتى كتب عامل مروان الحمار على خراسان يعلمه باستفحال أمر البيعة لابراهيم وهو أخو عبد الله المكنى أبو

العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحضره مروان وحبسه حتى مات في الحبس ، ثم استمر أبو مسلم بخراسان يأخذ البيعة لأبي العباس السفاح بعد موت أخيه بثمانية أشهر ، وبنو أمية ساهون حتى كتب اليه ذلك العامل :

| | |
|---|---|
| ارى تحت الرماد وميض جمر | ويوشك أن يكون لها ضرام |
| وان لم يطفها عقلاء قوم | يكون وقودها جثث وهام |
| فقلت من التعجب ليت شعري | أأيقاظ أمية أم نيام |

ثم ان أبا العباس السفاح رحل بأهله من الحميمة التي كانوا يقطنونها قرب الكرك واستوطن الكوفة والمبايعة آخذة له بها تلك المدة ، وبنو أمية ساهون لاهون الى أن قضى الله أمراً كان مفعولا .

وانظر في ذلك تاريخ الخلفاء لعلي بن أنجب المعروف بالساعي .

***

# فيما نسب لخالد بن الوليد رضي الله عنه

## في قتله مالك بن نويرة

من ذلك ما نسب الى سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه وانه قتل مالك بن نويرة ليتزوج زوجته . واني والله أبرىء خالداً رضي الله عنه أن يقع بمثل هذه الهفوة التي يجل عنها صغار الناس فضلا عن كبارهم ، بل لا تمكن الا من كافر أو فاسق ، ومعاذ الله عن صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيف الله أن يقدم على مثل ذلك ، وما هي الا كالفرية على داود صلوات الله عليه التي ينقلها عنه اليهود أنه قدّم زوج المرأة للجهاد والقتل أمام التابوت حتى قتل وتزوج زوجته حباً بها ، وكالفرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أحب زينب حتى طلقها مولاه زيد بن حارثة وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانما جميع ذلك لحكم ومصادفات معلوم أسبابها وقصصها بأسانيد صحيحة مقبولة معقولة ، وقد تمسك من طعن هذا الطعن اللائق بالطاعن ، بأشياء لا تدل له ، كما ذكر عنه في الاصابة أنه كان فيه تقدم على أبي بكر ،

يفعل اشياء لا يراها ابو بكر ، اقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته ، فكره ذلك أبو بكر وعمر ، وعرض الدية على متمم بن نويرة وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك ولم ير أن يعزله ، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ، وكان أميراً عند أبي بكر بعثه الى طليحة فهزم طليحة ومن معه ، ثم مضى الى مسيلمة فقتل الله مسيلمة أهـ .

والعذر له في قتل مالك ما ذكره على القاري في شرح شمائل الترمذي والمناوي في باب خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرح حديث النعمان بن بشير قال :

الستم في طعام وشراب ما شئتم ، لقد رأيت نبيكم وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه . قال واللفظ للمناوي اضافه اليهم الزاماً لهم وتبكيتاً وحثاً على التأسي والاعراض عن زخرف الدنيا ولذاتها ما أمكن . ولذلك لم يقل : نبي ، أو : النبي . وانما قال : رأيت نبيكم .

وأما قتل خالد لمالك بن نويرة لما قال له : كان صاحبكم يقول كذا ... فقال : صاحبنا وليس بصاحبكم . فليس بمجرد ذلك ، بل لسماعه عنه أنه ارتد وتأكد ذلك منه بهذه اللفظة ، كذا قرره جمع . وينبغي لك أن لا تظن أن خالداً قتله اعتماداً على ذلك كله ، بل الظاهر أنه قال صاحبكم دوني وما يوجب الكفر الصريح أهـ .

وذكر في الاصابة مالك بن نويرة قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم استعمله على صدقات قومه ، فلما بلغته وفاة النبي صلى الله عليه وسلم امسك الصدقة وفرقها على قومه وقال في ذلك :

فقلت خذوا اموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالدين المحوق قائم ... أطعنا وقلنا الدين دين محمد

ذكر ذلك ابن سعد عن الواقدي بسند له منقطع ، فقتله ضرار بن الأزور الأسدي صبراً بأمر خالد بن الوليد بعد فراغه من قتال الردة ، ثم خلفه خالد على زوجته ، فقدم أخوه متمم بن نويرة على أبي بكر فأنشده مرثية أخيه وناشده في دمه وسبيهم ، فرد أبو بكر السبي ، وذكر الزبير بن بكار أن أبا بكر أمر خالداً أن يفارق امراة مالك المذكورة ، واغلظ عمر لخالد في أمر مالك ، وأما أبو بكر فعذره ، فقال عمر لأبي بكر : ان في سيف خالد رهقاً . فقال أبو بكر : تأول فأخطأ ، ولا أشيم سيفاً سله الله على المشركين . وودى مالكاً . وكان خالد يقول انما أمر بقتل مالك لأنه كان اذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أخال صاحبكم الا قال كذا وكذا . فقال له : أوَ ما تعده لك صاحباً أهـ .

ولكن عمر رضي الله عنه لم يزل على خالد ساخطاً ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كله كما ذكره الطبري في وقائع السنة الثالثة عشرة وغيرها . قال :

فلما استخلف عمر كان أول شيء تكلم به هو عزله فقال : لا يلي لي عملا أبداً ، فكتب عمر الى أبي عبيدة : أن خالد أكذب نفسه فهو أمير على ما هو عليه ، وان هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ما هو عليه ، ثم انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين . فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال : انظرني أستشر أختي في أمري ، ففعل أبو عبيدة ، فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد وكانت عند الحارث بن هشام فذكر لها ذلك فقالت : والله لا يحبك عمر أبداً ، وما يريد الا أن تكذب نفسك ثم ينزعك . فقبل راسها وقال : صدقت والله . فتمّ على أمره وأبى أن يكذب نفسه ، فقام بلال مولى أبي بكر الى أبي عبيدة فقال : ما أمرت به في خالد . فقال : أمرت أن انزع عمامته واقاسمه ماله . فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه ،

فقال ابو عبيدة : إن هـذا لا يصلح إلا بهذا . فقال خالد أجل ما أنا بالذي اعصي امير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك . فأخذ نعلا واعطاه نعلا . ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله .

ثم ساق سنده الى سليمان بن يسار قال : كان عمـر كلما مر بخالد قال : يا خالد اخرج مال الله من تحت أستك . فيقول : والله ما عندي من مال . فلما اكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ما قيمة ما أصبته في سلطانكم ، أربعين الف درهم . فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين الف درهم . قال : هو لك . قال : قد أخذته . ولم يكن لخالد الا عـدة ورقيق . فَحَسِبَ ذلك فبلغت قيمته ثمانون ألف درهم ، فناصفه عمر ذلك فأعطاه أربعين ألف درهم وأخذ المال . فقيل له : يا أمير المؤمنين لو رددت على خالد ماله . فقال : انما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أرد عليـه أبداً . فكان عمر يرى أنه قد اشتفى من خالد حين صنع به ذلك اه .

وفي الاصابة بترجمة خالد قال : وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكـره الزبير بن بكار قال : كان خالد اذا صار اليه المال قسمه في أهـل الغنائم ولم يرفع الى أبي بكر حساباً ، وكان فيه تقدم على أبي بكـر يفعل أشياء لا يراها أبو بكـر ، أقـدم على قتل مالك بن نويره ونكح امرأته فكره ذلك أبو بكـر وعرض الدية على متمم بن نويره وأمر خـالداً بطلاق امرأة مالك ولم ير أن يعزله ، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد وكان أميراً عنـد أبي بكـر بعثه الى طليحة فهزم طليحة ثم مضى الى مسيلمة فقتل الله مسيلمة .

قال الزبير : وحدثني محمد بن مسلم عـن مالك بن أنس قـال : قال عمر لأبي بكر : اكتب الى خالد لا يعطي شيئاً الا بأمرك . فكتب اليه بذلك ،

فأجابه خالد : اما ان تدعني وعملي والا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله ، فقال ابو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد . قال عمر : عمر . فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار . فمشى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الى أبي بكر فقالوا : ما شأن عمر يخرج وانت محتاج اليه ، وما بالك عزلت خالداً وقد كفاك . قال : فما أصنع ؟ . قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب الى خالد فيقيم على عمله . ففعل ، فلما قبل عمر كتب الى خالد أن لا تعطي شاة ولا بعيراً الا بأمري ، فكتب اليه خالد بمثل ما كتب الى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه . فعزله ، ثم كان يدعوه الى أن يعمل ، فيأبى الا أن يخليه يفعل ما يشاء ، فيأبى عمر اهـ .

ولكن عمر بقي على سيرة سلفه أبي بكر وسيده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحد عن ذلك قيد شعرة وما تشديده على خالد الا ورعاً وتنزهاً واجتهاداً .

وذكر ابن جرير في وقائع سنة احدى عشرة محاجة عمر رضي الله عنه لخالد بسنده قال : ان أبا بكر كان من عهده الى جيوشه أن اذا غشيتم داراً من دور الناس فسمعتم بها أذاناً فامسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا ، وان لم تسمعوا أذاناً فشنوا فاقتلوا وحرّقوا . وكان ممن شهد لمالك بالاسلام أبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة ، وقد كان عاهد الله أن لا يشهد مع خالد بن الوليد حرباً أبداً بعدها ، وكان يحدث أنهم لما غشوا القوم واعدهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح . قال فقلنا إنا المسلمون ، فقالوا ونحن المسلمون ، قلنا فما بال السلاح معكم ، قالوا فما بال السلاح معكم ، قلنا فان كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، قال فوضعوها ثم صلينا وصلوا .

وكان خالد يعتذر في قتله انه قال وهو يراجعه ، ما أخال صاحبكم الا وقد كان يقول كذا وكذا . قال أوما تعده لك صاحباً ، ثم قدمه فضرب

الخطاب تكلم فيه عند
عنقه واعناق اصحابه ، فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند
ابي بكر فأكثر وقال : عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ، ثم نزا على
امراته . وأقبل خالد بن الوليد قافلا حتى دخل المسجد وعليه قباء له
عليه صدأ الحديد معتجراً بعمامة له قد غرز في عمامته اسهما ، فلما
ان دخل المسجد قام اليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ثم قال :
ارآءً قتلت امرأً مسلماً ثم نزوت على امراته والله لأرجمنك بأحجارك ، ولا
يكلمه خالد بن الوليد ولا يظن الا أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه
حتى دخل على أبي بكر ، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر اليه ،
فعذره أبو بكر وتجاوز له عما كان في حربه تلك .. قال فخرج خالد حين
رضي عنه أبو بكر وعمر جالس في المسجد فقال : هلمّ يا ابن أم شمله ،
قال فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه ودخل بيته ، وكان
الذي قتل مالك بن نويره عبد بن الأزور الأسدي ، وقال ابن المكلبي : الذي
قتل مالك بن نويره ضرار بن الأزور أهـ .

فانظر يا رعاك الله شدة طوعهم لخليفتهم وأميرهم رضي الله عنهم ،
واني لو كنت بدل خالد لقتلت مالك بن نويره في قوله صاحبكم ، أفلا يقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويعلم من جميع ما ذكر أن خالداً لم يقتله بانفراده ، انما كان قتله مع
من قتل من أهل الردة ، حتى سأل متمم أخوه أبا بكر أن يمن عليهم بالسبي ،
كيف وان سيدنا علي بن أبي طالب أخذ الحنفية من سبي مسيلمة وأولدها
مثل محمد بن الحنفية من أشراف أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فما
الفارق بينهما الا التحكم المحض ؟ ولو كان عليه تبعة في هذا الأمر لما نجا
من عمر بعد خلافته وبعد عزله ومشاطرته ماله ؟ ولا أقاد هو من نفسه
باخلاصه لدينه وربه ، فجزاه الله عن المسلمين خيراً وأجزل ثوابه .

* * *

# في ذكر تطوّر الفتن حسب تطوّر الزّمان

أعلم أنه لم تهدأ الفتن عن الاسلام في جميع الأزمان عن الدس في دينهم وتفريق كلمتهم بشتى الأساليب والطرق ، ولكن تطورت حسب تطور الزمان . وقد استقرت عقائد الاسلام في كتبهم وتمسكت أرباب المذاهب بفروعهم وأصولهم فلم يكن بوسع المارقين تفريق صفوف المسلمين مرة ثانية بعد ذلك .

حتى لما قام البابية البهائية بايران من الجماعة الاثني عشرية سنة ١٢٥٢هـ وسنة ١٨٢٠م ، ولما أظهره ميرزا علي محمد الشيرازي طردوه من بينهم لما أنه أحيا مذهب اليهودي عبد الله بن سبأ بحلول الإله في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم أعدموه سنة ١٨٥٠م بعد أن دام ثلاثين سنة وأسس أتباعاً واختار اسم الباب عنواناً لهم ، وخلف اثنين عهد لهما ، أحدهما صبح ازل الذي بقي على تعاليم سلفه ، والثاني بهاء الله الذي زاد على تعاليم سلفه بحلول الإله فيه ، وكثرت أتباعه حتى صارت النسبة

اليه ، ثم انتهى عهده بهلاكه سنة ١٨٩٢م ، وخلفه ابنه عباس ، ولما لم يجدوا اقبالا من المسلمين الا شذاذاً مستترين لا يعرفون أصلا ، وجهوا وجهتهم نحو الغربيين المطلعين على خرافات دينهم والذين ملئوا من التعاليم الكنائسية فوجدوا في امريكا وأوربا أتباعاً كثيرين لهم واتخذوا مركزاً لهم في شيكاغو ، ولقد نال هذا المذهب تشجيعاً من الانكليز لأنه يحاول به هدم الاسلام وتفريق كلمته ، ولكنه حل بناديهم وصار أكثر أتباعه من الغرب ، لكن مع الأسف عليه طابع الاسلام حيث يظن متبعوه أنهم مسلمون وهم بريئون من الاسلام ، كمذهب القاديانية الجديد الذي يعد دعوة انكليزية هدامة ومفرقة للاسلام ، وقد أسسها ميرزا غلام أحمد القادياني المنسوب الى بلدة قاديان الهندية ، ويدعي النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه هو عيسى المسيح ، وأنه المجدد الوحيد ، ويجعل من جملة عقيدته اخلاص الولاء للانكليز ، ولكنه لا يكفر أحداً من المسلمين الا الذين يكذبونه ويكفرونه فيجازيهم بالمثل ، وقد هلك أحمد القادياني منشىء هذا المذهب سنة ١٩٠٨م . ثم خلفه مولاي نور الدين بالانتخاب من مجلس منتخب من جماعتهم .

ولقد قاومتهم بدمشق المقاومة الفعالة أثناء قيامي بالافتاء العام ، وأغلقت لهم محل نشر دعاياتهم الباطلة ، وعندي من كتبهم وآثارهم الكفرية ما لم يطلع عليه غيري وغيرهم ، وافتيت بكفر من يتبعهم ويتبع تعاليمهم كسلفي المرحوم الشيخ محمد الاسطواني وسلفه المرحوم الشيخ عطا الله الكسم المحفوظة فتاواهم بسجلاتها والله أعلم .

فأمثال هذه النزعات والدسائس من المارقين عن الديانة لا تخفى ، ولكن الذي يخفى هو الدس على الأقدمين بمؤلفات من أعدائهم الذين يظهرون الولاء فيدسون السم في الدسم .

ومن ذلك ما رأيته من مؤلفات المدعو جرجي زيدان ، فان اغاليطه التاريخية المشوهة لسمعة السلف الصالح من المسلمين لا تخفى على المطالع ، وأن في من الف للرد عليه غنية عن ان اتتبع هفواته المقصودة او غير المقصودة ، وقد رايت من واجب كتاب اغاليط المؤرخين ان لا يخلو من التنبيه لمن يطالع كتبه أن يكون على حذر مما حوته من الدس المشين على الأقدمين والسلف الصالح من المسلمين ، على انه لا يشك أن امثال هذه الكتب ترى تشجيعاً من الغربيين ونقلا لها للغاتهم لأنها من أبناء العروبة الذين طعنوها بصميمها في إفشاء الأكاذيب والأغاليط التاريخية .

ولقد رأيت في كتاب شمس العلماء للشيخ شبلي النعمان الهندي رداً على بعض مؤلفات جرجي زيدان المذكور ، ونشر كثير منه في مجلة المنار المصرية التي كان يصدرها الشيخ رشيد رضا ، ولا زال جرجي زيدان في حياته ينشر كتباً مملوءة بالطعن في الاسلام والعروبة . وانما لم أتعرض لأمثاله الغربيين عن الدين في رد مطاعنهم ، لأن المسلم الذي يطالع في كتب الغرباء عن الدين يكفيه دينه أن ينبهه عن دسهم ، وحبذا لو كان حرر عن أسلافه النصارى الغساسنة الذين أتوا من اليمن وحكموا بلاد الشام قبل الاسلام وبقيت نصارى هذه البلاد من نسلهم لردته عصبية العروبة عن الطعن بجنسيته . ورحم الله عبد الله بن الزبير لما عانق الأشتر النخعي وسقطا عن جوادهما ، وكان اسم الأشتر مالكاً ، فقال : اقتلوني واقتلوا مالكاً معي . فهذا أراد أن يطعن بالاسلام ولو طعن بأصله .

أما موسوعة بنت الشاطىء فحسن الظن بها يحملنا أن نقول عن موسوعتها عدم مراعاتها ما في مقدمة هذا الكتاب من شروط التثبت بنقل الأخبار الذي يحمل الانسان على جمع ما يجد كحاطب ليل ، ولا يخرج كتابها عن أنه كتاب تاريخ واقاصيص يحوي كفيره الفث والسمين والله أعلم .

وإني لأعجب مما دها العرب أن تحل عصبيتهم الجنسية ، وتجمعهم العصبية الصليبية مع أهل الغرب الذين ينتحلون المسيحية كذباً وبهتاناً وهم بعيدون عن تعاليمها كل البعد ، حتى برأوا اليهود من دم المسيح . وما تشويه جرجي زيدان لمآثر فتوحات العرب وتحويرها بمظهر الظلم والاستبداد الا نزعة من النزعات الاستعمارية السارية في بعض الحكومات المسيحية التي لا تمنح المسلم جنسيتها مهما استوفت فيه الشروط القانونية ورجحت . وهذه ايران المسلمة بالرغم من تمسكهم بأهل البيت ومحبتهم لهم يتمسكون بالعصبية الفارسية أكثر من محبتهم أهل البيت ، فيقولون الخليج الفارسي ، وكل جواره عرب خلص ما عداهم . وقد أقاموا في أيلول هذا العام ١٩٧١م مهرجان المملكة الكسروية لمضي الفين وخمسمائة سنة عليها ، ولو قضوا على هذه العصبية بعصبية دينهم المحمدي لكان خيراً لهم وأبقى .

* * *

# في سبب تفرّق المسلمين وتأخّرهم

لقـد تكلم كثير في هـذا الأمر وأفعموا الكلام فيه بأنواع من الأدلـة والحوادث ، ثم بيّن بعضهم دواء ذلك وحث عليه ، وكل منهم نحا وجهـة في السبب والدواء ، وكل ما ذكروه من الاسباب له وجـه مـن الصحة والصواب ولكن الدواء لا ينفع مـع استمرار أسباب الداء ، فلو أن عشرة عمـال يصلحون بناء وواحد يهـدم بمعوله لعجزوا عن ترميم ما يفسده الواحد ، فكيف بعمال مخربين كثيرين مع قلة المعمرين .

والآن ألخص سبب التأخر والتفرق بأمرين أساسيين نتج عنهما ثالث، أما الدواء فهو فوق المستحيل ، ولا أمل بالاصلاح الا أن يأتي المجدد الأكبر عيسى عليـه السلام .

أما السببان : فهما الغلو بالدين والورع المبين لدرجة الوقوف مـع أوامره ونواهيه كما كان بزمن المشرع الأعظم صلى الله عليه وسلم وخليفتيه الإمامين الطاهرين . والثاني المتساهل فيه المستمر حتى وصل الي نبذه

بالكلية . فهذان العاملان الأساسيان ، حتى غلب الثاني الاول ووصل الى حـد الكفر والضلال والفسق والاضمحلال. والسبب الثالث حب الرياسة الذي قضى على السببين الاولين بتوالي الزمان .

فأما الغلو فقد بدأ من عصر الخليفة الاول والثاني حيث قام عمر على خالد وأراد تنحيته ناقماً عليه ما لم يشنه به ابو بكر رضي الله عنهم الى أن انفذ عمر إرادته بخالد حين إمارته ، ولو لم يكن خـالد بدرجة الشيخين من الاخلاص والتمسك بأهداب الدين لبدأ الانشقاق من يومئذ وانصدع الأمر ، ولكن خالداً انصاع الى الأمر ورضي بالله ورسوله عن الدنيا وخرج منها خاليـاً .

ووالله لموقف خالد حين أتاه العزل وهو بوقعة اليرموك وأمراء المسلمين متفرقون بأنحاء شتى ، لا يقفه الا من كان بدرجـة أبي بكـر وعمـر من الاخلاص لله رب العالمين ، فكتم عزله وأخبرهم بموت أبي بكر رضي الله عنه حتى كان ذلك سبب النصر والفتوح .

فأما عمر رضي الله عنه فبقي على سيرة سلفه الصديق الأكبر وسيرة سيد الأكوان صلى الله عليـه وسلم لم يحـد عن ذلك قيد شعرة ، وكان رحيماً بقدر ماكان شديداً ، وهو الباب الحصين الذي ليس للفتن مدخلٌ بوجوده ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيفتح الباب أم يكسر ، قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : بل يكسر . فعلم عمر انه يقتل ، فلما كسر الباب بقتل عمـر بدأت الفتن واتسعت بقتل عثمان واشتعلت بالمطالبـة بدمـه .

أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الفتن عن حذيفة ، قال : بينما نحن جلوس عند عمر اذ قال أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم

في الفتنة ، قال : فتنة الرجل في اهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال : ليس عن هذا اسالك . . ولكن التي تموج كموج البحر . قال : ليس عليك منها بأس يا امير المؤمنين ، ان بينك وبينها باباً مغلقاً . قال عمر : ايكسر الباب ام يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : اذاً لا يغلق أبداً ، قلت : أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب . قال : نعم ، كما أعلم أن دون غد ليلة ، وذلك اني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . فَهِبْنا أن نسأله مَنِ الباب ، فأمرنا مسروقاً فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر .

وكان بامكان عثمان قمع الفتنة بأسهل الطرق ورد المعتدين عليه ، ولكن غلوه بالتمسك بالدين وورعه حمله على الاستسلام لسفك دمه كما قدمناه مفصلا .

وليت شعري هل نعلم من فضائله نحن ما يجهلها هو من نفسه ، معاذ الله من ذلك ولعمري لو كان شعرة منها لأمثالنا ولو مناماً لطرنا بها فرحاً ، فهل يظن بنفسه ان عليه نصف عذاب العالم من هذا حاله ، وهذا ورع ما فوقه ورع ، فمثل هؤلاء الورعين لا يستقيم لهم الأمر في الزمان الذي دخل الناس فيه في الفتن ، وهلا كان ينبغي له الاحتراس والنجاة مهما أمكن .

وما بالك بزماننا الذي يحكم بالاعدام على كل من حاول اغتيال أحد كبار الوزراء والأمراء بمجرد الشبهة في سائر حكومات العالم .

ثم لما قتل ذو النورين وبويع علي رضي الله عنه لم يكن أقل صلابة من عثمان كما قدمنا شيئاً من ذلك .

ومما ذكره ابن جرير في وقائع ( ٣٥ ) من محادثة ابن عباس ونصحه له أن يقر عمال عثمان فأجابه سيدنا علي بقوله : أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لاصلاحها ، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي منهم أحداً أبداً ، فإن اقبلوا فذلك خير لهم وان أدبروا بذلت لهم السيف . قال ابن عباس : فأطعني وادخل دارك ، والحق بمالك بينبع ، وأغلق بابك عليك ، فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً . فأبى علي فقال لابن عباس : سر الى الشام فقد وليتكها . قال ابن عباس : ما هذا برأي ، معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله في الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم علي . قال علي : فلِمَ ؟ قال : لقرابة ما بيني وبينك وان كل ما حمل عليك حمل عليّ ، ولكن اكتب الى معاوية فمنّهِ وعِده ، فأبى علي وقال : والله لا كان ذلك أبداً .

ثم انظر الى ما قاله قيس بن سعد عاملَ عمر على مصر حين عزله وولى بدله محمد بن أبي بكر ، فناجاه قيس بن سعد وقال : انك جئت من عند امرىء لا رأي له ، وليس عزلكم اياي بمانعي أن أنصح لكم ، وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، واني في ذلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمراً وأهل خربتا ، فكايدهم به فانك ان تكايدهم بغيره تهلك . ووصف قيس بن سعد المكايدة التي كان يكايدهم بها فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالف كل شيء أمره به .

وذكر تفصيل ذلك ابن جرير في حوادث سنة (٣٨) حتى كان قتل محمد ابن أبي بكر واستيلاء معاوية على مصر . ولكن علياً رضي الله عنه لما أدرك

خطاه بعزل قيس بن سعد ، أرسل الاشتر أيضاً فاحتيل على الأشتر حتى سمه رجل يقال له الجايستار بالقلزم بطعام قدمه اليه مع عسل مسموم ، وتم ما علمه الله تعالى من استيلاء معاوية على مصر بالدهاء مرة والقتال أخرى ولا حول ولا قوة الا بالله .

ولقد حار السيد رفيق العظم في كتابه أشهر مشاهير الاسلام بما يقوله في حق النزاع بين هذين الخصمين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ولكنه أحسن إذ أحسن الظن بهما ، وامسك عنان قلمه عن الطعن بأحدهما مع ميله لأحقية علي رضي الله عنه كعقيدتنا بذلك ، ولكن الذي يدعوه للقول بأن معاوية على بعض الحق في اجتهاده وجود كثير من الورعين المسلم باخلاصهم في حربه كجبيب بن مسلم ، ولكن السيد رفيق العظم لم يلهم ولم يهتد لما دعا معاوية للخروج عن طاعة علي ، وهو ما قامت عليه الشواهد أن علياً رضي الله عنه لا رأي له وانه اذا بقي مصراً على تمشية الأمور كعهد الخليفتين لا يستقيم الأمر له ، بل ربما يكون على فوق من سبقه في الصلابة بالورع ومهما وصفنا العمرين بذلك ، فانا نقول ان كل واحد من الخلفاء الاربعة امتاز بصلابته في دينه وفضائل وخصائص أقوى بها من غيره ، ولا نقول ان أحد الأربعة خير من غيره بكل شيء ، بل بعض الأربعة يفوق بعضهم ببعض الخصال الحميدة ، ولكن الفضيلة التي خصهم الله بها هي على الترتيب الذي قاله اللقاني في جوهرته :

وخيرهم من ولي الخلافة وأمرهم في الفضل كالخلافة

فالأمر الذي يوجه به اجتهاد معاوية هو تشدد علي رضي الله عنه بما خاف منه معاوية خروج الأمر من يد المسلمين وانتقاض الفتوحات الاسلامية وتولية القواد الأشداء ، والشدة لا تأتي بخير ، وانظر ما يأتي في

تشدد الحسين بن علي عليهما الرضوان ، فانه على غـرار أبيه وسيرته كرم الله وجههما وجعل قاتلهما في أعماق جهنم . وقدمنا ما ذكره ابن جرير في وقائع سنة ستين ما دار بينه وبين ابن عباس حـين أجمع المسير الى الكوفـــة .

ووالله ان القلب ليدمي أسفاً وحـزناً على مقتـل الحسين وشيعته وخذلانه ممن دعوه ، ولكن الاصرار على هذا الشكل والتغاضي عن الدسائس مما لا يليق بمن يسوس الأمـة ويحفظ الملك ، ولو لم يكن الاسلام غضاً طرياً والمشركون واجفون خائفون لكانت الفتن الداخلية تسبب دعوة الاعداء لاسترجاع ملكهم وتمزيق عرى الاسلام ، كما حصل بزمن العباسيين الذين شتتوا الملك بقيامهم على بني أميـة مع ما اعتورهم من فتن داخلية مـن الأشراف وغيرهم ، وانظر من قام بعد الحسين ليطالب بدمه ثم من قـام بعـده من الأشراف وغيرهم ، وجـر ويلات الحروب الداخلية وأوجب الانقسام عدا ما جرته يد الدساسين على الدين كعبد الله بن سبأ اليهودي الـذي كان أول سبب لانقسام المسلمين على بعضهم بما دسه مـن سم الاعتقاد بأن علياً هو وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الأحـق بالخلافة حتى صار هذا ديناً عند بعض الفرق المنشقة عن الجماعة .

قال ابن الوردي في تاريخه في وقائع سنة ٦٦ : فيها خرج المختار بن عبيد الله الثقفي بالكوفة طالباً بدم الحسين في جمع كثير واستولوا عليها ، وبايعوه بها على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدم أهل البيت ، وتجـرد المختار لقتـل قتلة الحسين وظفر بشمر فقتله ، واحتاط بدار خـولي الأصبحي صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه ، وقتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص صاحب الجيش وسعد بن عمـرو المذكور وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالحجاز في ذي الحجة منهـا ، ثم دخلت سنة سـبع

وستين ، فقتل عبيد الله بن زياد وانهزم أصحابه وغرق كثير منهم في الزاب ، قتله ابن الأشتر في المعركة وأحرق جثته وبعث براسه وعدة من رؤوس اصحابه الى المختار ، وانتقم الله للحسين بالمختار وان لم تكن نية المختار خالصة اه .

فانظر ما جره ورع عثمان وتعصبه رضي الله عنه من ويلات بعد قتله واتخاذ قتله وسيلة لاهراق دماء كثيرة .

ثم انظر ما جره تمسك علي وتعصبه الى ما جره من حرب دامية بينه وبين معاوية وعدم ركونه الى نصح الناصحين ، ثم ما جره تعصب الحسين وعدم سماعه النصح وغروره بمبايعة أهل الكوفة ثم خذلهم له الى ان قيض الله من أخذ بثأره من قاتليه أهل النار والدمار ، وما كان أغنانا عن هذه الفتن لو قبل عثمان الرواح الى الشام مهد الأمويين ! وما كان أغنانا عن هذه الفتن لو قبل علي نصح الناصحين بابقاء معاوية ريثما يستتب الأمر له ! وما كان أغنانا عن هذه الفتن لو قبل الحسين نصح الناصحين ولم يذهب الى هؤلاء الذين غرروا به ونكثوا ببيعته !

هذا ما كان من الفتن بعهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منشؤه التعصب للحق الى أن يؤدي الى التساهل . ثم انظر بعد ذلك ما حصل في زمن من بقي من الصحابة والتابعين وأتباعهم لا يخرج عن هذين الأمرين ، فهذا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه حين توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ واعتزل ابنه معاوية الصغير للخلافة بعد لبثه فيها ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما ، واستوثق ابن الزبير من مكة والمدينة والبصرة والحجاز واليمن وبايعه أهل مصر وبويع له في الشام سراً وكاد يتم له الأمر لولا ضعفه في رأيه وتعصبه للحق كأسلافه وحفظه لأموال المسلمين الذي صاروا يسمونه بخلا بعد أن كان منقبة وشرفاً وصلاحاً . فقام مروان بن

الحكم بالشام وما ادراك ما دهاء الامويين ، فاستوثق منها وهرب القيسية منها اتباع الاحنف بن قيس الذي كان من اعظم اعوان ابن الزبير الى ان قتل ، ثم خنقت امراة مروان زوجها واعلنت موته فجأة . كما ذكره ابن الوردي بتاريخه في سنة ٦٤ و ٦٥ ، وكان بذلك العهد الحصين بن نمر السكوني محاصرا لابن الزبير بمكة ، كما تقدم ذكر ذلك عن كتاب حياة الحيوان . وذكر خلاصته من ذلك ابن الوردي في وقائع سنة ٦٣ و ٦٤ ، ولعمري كذب من يزعم انه من دهاة العرب بل هو من ضعاف الراي في العرب ، فهذا حال كل من كان شديد العصبية للحق والدين لم تكمل لهم الأسباب لأمر يريده رب الأرباب . وقال ابن الوردي عن ابن الزبير انه كان شجاعاً عابداً ولكن مع بخل وضعف رأي أهـ .

ولعل السر الذي يكون من جملة علمه سبحانه ضعفهم في الرأي كهذا الضعف ، حتى حولها الله عنهم لمن قام بنشر الدعوة حق القيام بمدة لا يتصور العقل فشو الاسلام بها على قصرها مع كثرة الفتن والاختلالات الداخلية في البلاد التي أهمها من الاشراف الذين تطيعهم الخاصة والعامة وما جر قيامهم من ويلات وانقسامات في المذاهب حتى الآن نجني سوء عاقبتها ، ومن هم السنيون والشيعيون والعلويون والدروز والقرامطة والخوارج ؟ ما هم الا فرق من المسلمين انقسموا وتحزبوا أحزاباً مع الأشراف أو ضدهم أولها كان عبد الله بن سبأ اليهودي الملعون بزمن عثمان رضي الله عنه ، الذي قام يطعن بخلافة عثمان وأن الوصي الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو علي بن أبي طالب ، ثم دس مع ذلك ما أراد من الكفر ، وان الذي سيعود في آخر الزمان هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : **( ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ) .** وليس الذي يعود هو عيسى بن مريم . كما ذكر ذلك ابن جرير في تاريخه

في وقائع سنة ٣٥ ، مما يدل أن أساس فتن الاسلام هم اليهود ، ثم بدأ الانقسام بفتنة قتل عثمان التي كان اولها ومبدؤها هذا اليهودي الملعون ، وبعد استتباب الملك لبني امية بقتل ابن الزبير في زمن عبد الملك بن مروان قام عليهم شبيب الخارجي ، ثم عبد الرحمن بن الاشعث وذلك سنة خمس وسبعين ، كما ذكره ابن الوردي ، ثم ذهبا . وفي زمن يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ خرج يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، فقتله يزيد واستأصل بني المهلب ، ولا زال يقوم واحد ويقتل واحد الى ان زالت دولة بني اميـة بدئوها دينية ، ثم جعلوها عصبية ملكية ، وقد ذكرها ابن خلدون في المقدمة بفصل مستقل في مذاهب الشيعة، ومما قاله : ان الكيسانية ساقوا الامامة من بعد محمد ابن الحنفية الى ابنه ابي هاشم ، وهؤلاء الهاشمية ، ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى أخيه علي ثم الى ابنه الحسن بن علي ، وآخرون يزعمون ان أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفا من الشام أوصى الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالإمام ، وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح ، وأوصى هو الى أخيه عبد الله جعفر الملقب بالمنصور ، وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد الى آخرهم ، وهـذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم الخراساني وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية ، وربمـا يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل اليهم من العباس لانه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة اه .

وهكذا حوادث الخلافة والإمارة في صدر الاسلام منشؤها الدعوة لأهل البيت التي بقيت آثارها الدينية ليومنا هـذا لأنها تكون لمتبعيها ديناً وعقيدة ، والدين والعقيدة يستحيل محوهما مـن القلوب . وأما حب

الملك والرياسة فينقضي بصاحبه ويعقب صاحبه أن كان له عقب ثم يندرس ، وما الاثنا عشرية والاسماعيلية والدروز والقرامطة والسنية أهل الجماعة الا متدينون بما ورثوه عن أسلافهم ، وكان سابقا تؤثر هذه العقائد حتى يتسنم دعاتها بالحكم والامارة ، ويحصل من جرائها الخلافات والوهن بالدولة . وقد نسي من يقوم بهذه الدعايات ماورد بالاحاديث المنادية بالخضوع والاستسلام لمن يتغلب ما لم يظهر منه الكفر البواح ، حتى قال صاحب الجوهرة في ذلك :

| | |
|---|---|
| وواجب نصب إمام عدل | بالشرع فافهم لا بحكم العقل |
| فليس ركنا يعتقد في الدين | ولا تزغ عن أمره المبين |
| الا بكفر فانبذنّ عهده | فالله يكفينا أذاه وحده |
| بغير هذا لا يباح صرفه | وليس يعزل إن أزيل وصفه |

وقال عليه الصلاة والسلام : (( **عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك** )) . أخرجه مسلم في كتاب الإمارة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وأخرج عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( **من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني** )) .

وقال : حدثني سلمة بن شبيب نا الحسن بن أعين نا معقل عن زيد ابن أبي انيسة عن يحيى بن حصين عن جدته أم الحصين قال : سمعتها تقول : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا كثيرا ، ثم سمعته يقول : (( **إن أمر عليكم عبد مجدع** ، حسبتها قالت أسود ، **يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا** )) .

وأخرج عن عبادة بن الصامت قال : دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، قال : (( **الا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان** )) .

وأخرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( **كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وانه لا نبي بعدي وستكون خلفاء ، فتكثر** )) . قالوا : فما تأمرنا . قال : (( **فوا بيعة الأول فالأول ، وأعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم** )) .

وأخرج عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( **انها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها** )) . قالوا : يا رسول الله وكيف تأمر من أدرك منا ذلك . قال : (( **تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم** )) أهـ . والاحاديث في هذا الباب كثيرة ويكفي منها ما أخرجه الترمذي في صحيحه عن زياد بن كسيب العدوي قال : كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق ، فقال أبو بلال : انظروا الى أميرنا يلبس ثياب الفساق . فقال أبو بكرة : أسكت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( **من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله** )) . أهـ . نعم غرّ من يقوم بالدعوة لأهل البيت قوله صلى الله عليه وسلم : (( **قريش ولاة الناس في الخير والشر الى يوم القيامة** )) . قال أبو عيسى : وفي الباب عن ابن مسعود وابن عمر وجابر وهذا حديث حسن غريب صحيح أهـ . من أبواب الفتن في صحيح الترمذي .

ولعمري هو حق وندين الله بحب أهل البيت ، ولكن اذا أدى ذلك لفتنة فالوفاء لمن أخذ البيعة ولو عبداً حبشياً أولى بل أوجب ، وكم رأينا من قام بالدعوة لأهل البيت فاتخذهم جسراً لينال به مكره ، وانظر كيف وصلت الخلافة لبني العباس عن طريق محمد بن الحنفية ، وإنا نسوق لك

بعض ما ذكره ابن خلدون لتعرف مدى تفرق المسلمين بسبب الدعوة لأهل
البيت ، وكيف أورث ذلك خلافاً دينياً لم يزل أثره حتى الآن بالرغم عن
كل تساهل عرّى أمر الدين قال : أما الزيدية فساقوا الامامة على
مذهبهم فيها وانها باختيار اهل الحل والعقد لا بالنص ، فقالوا بإمامة علي
ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد بن
علي ، وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً الى الامامة فقتل
وصلب بالكناسة ، وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى
خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن
ابن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية ، فخرج بالحجاز وتلقب
بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل ، وعهد الى أخيه ابراهيم فقام
بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي ، فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم
وقتل ابراهيم وعيسى ، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي
معدودة في كراماته .

وذهب آخرون منهم الى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية
هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر . وعمر هو أخو زيد بن علي ، فخرج
محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات
في حبسه .

وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى
الذي حضر مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ، ونقلوا الامامة
في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم .

وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس
الذي فرّ الى المغرب ومات هنالك ، وقام بأمره ابنه ادريس ، واختط
مدينة فاس ، وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب الى أن انقرضوا ، كما

نذكر في أخبارهم . وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم ، وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط واخوه محمد بن زيد ، ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم ، واسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر اخو زيد بن علي ، فكانت لبنيه بطبرستان دولة ، وتوسل الديلم من نسبهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في اخبارهم .

وأما الامامية فساقوا الامامة من علي الرضا الى ابنه الحسن بالوصية، ثم الى أخيه الحسين ، ثم الى ابنه علي زين العابدين ، ثم الى ابنه محمد الباقر ، ثم الى ابنه جعفر الصادق . ومن هنا افترقوا فرقتين .

فرقة ساقوها الى ولده اسماعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية ، وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته الى آخر الزمان .

أما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسماعيل بالنص من أبيه ، وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل ابيه انما هو بقاء الامامة في عقبه كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما .

قالوا ثم انتقلت الامامة من اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ، وهو اول الأئمة المستورين ، لأن الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر ، وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق ، واذا كانت الشوكة ظهر واظهر دعوته . قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق – أقول : جعفر الصادق هذا غير جدهم الأول ، لكن في كتب النسب انه جعفر المصدق ، فلعله تحريف من الطبع أو النسخ – .

وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين ، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي اظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة ، وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة ، وملك القيروان والمغرب ، وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ، ويسمى هؤلاء الاسماعيلية نسبة الى القول باسماعيل ، ويسمون أيضا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن أي المستور اهـ . ما أردنا نقله من مقدمة ابن خلدون بالحرف.

مما يدل على أن السادة الاشراف كانوا يقومون للمطالبة بحقهم المغصوب بالامامة في حين يكون الحكم والدولة لغيرهم ، ثم ينتج عن ذلك انقسام ديني بين المسلمين وطائفية ، حتى ان الدروز من الاسماعيلية ، انشقوا عليهم من زمن الحاكم وصاروا طائفة مستقلة ، وكان العباسيون يحاربون من قدروا عليه ، أما من بعد عنهم أو استعصم بقوة كالأدارسة بالمغرب ، وكالاسماعيلية بالمغرب أيضا بعد الأدارسة وبمصر ، فيبقون مستقلين منشقين . وكان ممن انشق أيضا من الملك الديلم وطبرستان ، وتشتت الملك دويلات وطوائف .

وانظر الى زيد الشهيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وفي سبب مقتله على ما ذكر الطبري في وقائع سنة ١٢١ احدى وعشرين ومائة ، وخصامه مع أولاد عمه بني الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب في صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودامت الخصومة بين زيد وابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وشمت الناس بهما وفرح أعداء الاشراف باختلافهم ، وكان خالد بن عبد الملك أميراً على المدينة آنذاك ، وكان زيد الشهيد يأتي الى هشام بن عبد الملك وهو الخليفة فلا يأذن له ، ويكتب له بأسفل القصة

أن ارجع الى أميرك ، فيقول : والله لا ارجع الى خالد أبداً ، واني لا أسأل مالاً ، انما أنا رجل مخاصم . ثم اذن له يوماً بعد طول حبس . ورقي هشام الى علية له طويلة وكان زيدبادنا وكان وراءه خادم لهشام يسترق السمع لما يقوله ، فقال : والله لا يحب الدنيا رجل الا ذل . فلما صار الى هشام قضى حوائجه ثم مضى نحو الكوفة ، فأخبره الخادم بما قال ، فالتفت هشام الى الأبرشي وأخبره بما قال زيد ، فقال له الأبرشي : والله ليأتينك خلعه أول شيء . فكان كذلك .

وقيل ان هشاماً قال له : لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هنالك وأنت أبن أمة . فقال له : واسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة مثلك ، فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر .

فقال له هشام : أخرج . فقال : أخرج ، ثم لا تراني الا حيث تكره . فخرج وأقام بالكوفة أشهراً يبايعونه وأمير الأمويين يأمره بالخروج فيتعلل ، فقال له داود بن علي ابن عمه : يا ابن عم لا يغرنك هؤلاء من نفسك ، ففي أهل بيتك لك عبرة ، وفي خذلان هؤلاء إياهم . فقال : يا داود ان بني أمية قد عتوا وقست قلوبهم . فلم يزل به داود حتى عزم على الشخوص من الكوفة ، فشخصا حتى بلغا القادسية . فاتبعوه وقالوا له : نحن أربعون ألفاً ، ان رجعت الى الكوفة لم يتخلف عنك أحد . وأعطوه المواثيق والأيمان المغلظة ، فجعل يقول : اني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي . فيحلفون له فيقول له داود : يا ابن عم ، ان هؤلاء يغرونك من نفسك ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك ، جدك علي بن أبي طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه وانتهبوا فسطاطه وجرحوه ، أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له بأوكد الأيمان ثم خذلوه وأسلموه ، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه ، فلا

تفعل ولا ترجع معهم . قالوا له : أن هذا لا يريد أن تظهر أنت ، ويزعم أنه وأهل بيته احق بهذا الأمر منكم . فقال زيد لداود : ان علياً كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرائه بأهل الشام ، وان الحسين قاتلة يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل . فقال له داود : اني لخائف ان رجعت معهم أن لا يكون احد اشد عليك منهم ، وانت أعلم .

ومضى داود الى المدينة ورجع زيد الى الكوفة ، فأتاه سلمة بن كهيل فقال : نشدتك الله كم بايعك ؟. قال : أربعون الفاً ، قال : فكم بايع جدك ؟ قال : ثمانون ألفا . قال : فكم حصل معه ؟ قال : ثلاثمائة . قال : نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟ قال : بل جدي . قال : أفقرنك الذي خرجت فيهم خير أم القرن الذي خرج فيه جدك ؟ قال : بل القرن الذي خرج فيهم جدي . قال : أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟ قال : قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم . قال : أفتأذن لي أن أخرج من البلد ؟ قال : لم ؟ . قال : لا آمن أن يحدث في أمرك حدث ، فلا أملك نفسي . قال : قد أذنت لك . فخرج الى اليمامة ، فخرج زيد فقتل وصلب .

وكتب عبد الله بن حسن الى زيد بن علي : يا ابن عم ، ان أهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة ، هرج في الرخاء جزع في اللقاء ، تقدمهم السنتهم ولا تشايعهم قلوبهم ، لا يبيتون بعدة في الأحداث ولا ينوؤون بدولة مرجوة ، ولقد تواترت الي كتبهم بدعوتهم فصممت عن ندائهم وألبست قلبي غشاءً عن ذكرهم يأساً منهم واطراحاً لهم ، وما لهم مثل الا ما قال علي بن أبي طالب : ان اهملتم خضتم ، وان حوربتم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وان اجبتم الى مشاقة نكصتم . ولما رجع زيد الى الكوفة استخفى فقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب : أذكرك الله يا زيد

لما لحقت بأهلك ولم تقبل قول احد من هؤلاء الذين يدعونك الى ما يدعونك اليه ، فانهم لا يفون لك . فلم يقبل منه ذلك ورجع اهـ . ما اختصرته من ابن جـريـر .

فانظر يا رعاك الله الى هذا الشهيد رضي الله عنه وكان بتلك السنة نصر بن سيار يغزو ما وراء النهر ويفتح البـلاد وينشر دعـوة الاسلام والعروبة ، فأيهما أولى وأجدر بالمعونة والاطاعة أتلك الشرذمة من اهـل الكوفة أم الانضمام الى الجماعة والصدق معهم ؟ وان يكون احد اعوانهم واحد امرائهم لغزو الكفرة ونشر الدعوة بدل تفريق الكلمة ؟ حتى ولو كان للأمويين ما يثلبهم في دينهم فعلينا اعطاء الحق الذي علينا وعليهم ما حملوا، والآخرة أمامنا والله خير وأبقى .

وانما ذكرت لك ما مر لتعلم ما نتج من قيام هؤلاء الزعماء بحجة المطالبة بحقهم من تفرق الكلمة والفزع لرد عاديتهم بدل أن ينضموا الى الجماعة لحرب الاعـداء ونشر الدعوة وطرح ما ذكرنا من الاحاديث النبوية مـع ما ورثه أنصارهم من انفرادهم فرقـة أخرى من فـرق المسلمين التي لم تزل حتى الآن تعتبر من أكثر فرق الاسلام بعد أهل السنة والجماعة ، وما وصل اليه بعض غلاتهم من الطعن بالشيخين وأم المؤمنين الطاهرة الزكية عائشة رضي الله عنهـا وعنهم ، وما نراه في أيامنا هذه من القاء جهلتهم القاذورات في الاماكن المقدسة كالحجـر الأسود وغيره مما يوغـر صدور المسلمين . كما فعل أحـد جهلتهم مـن تبعة الدولة الايرانية وهي دولة اسلامية تنتمي لأصل اسلامي خالص أثر بها حب العجمة وتشيعت لأهل البيت فكانت كفرقـة اسلامية لها عوائدها ومذهبها ، وعقائدها السليمة التي لا تمس بأصل الدين ولا تنافيه . واني لأعجب مما يثور في هذه الايام من الخلاف في نسبة الخليج ، كيف ترضى بأن تكون نسبته أعجمية مع أن

ايران من اتباع اهل البيت ، واهل البيت عرب خلص لا يحبون العصبية ولا الجاهلية ولا يرضون النسبة لمن ليس لهم صلة بالعروبة وأهل البيت ، وان هذا لقريب في بابه . فأفيقوا يا أمة الاسلام ويا أمة العروبة وانبذوا العصبية والتفرقة .

وما سبب تأسيس دولة العبيديين الا نزعة مذهبية زالت وبقي لها اثر الحاكم بأمر الله الذي تميزت بسببه فرقة اسلامية أخرى تسمت بالدروز على كره منها لهذا الاسم ، مع أن أصلهم ومنشأهم عرب خلص اسلام أثرت عليهم الاحداث السياسية حتى أصلت فيهم الانشقاق عن الجماعة التي منشؤها التشيع لأهل البيت .

ولا مخلص من هذا الانقسام الا أن ينظر عقلاء الأمم منشأ التفرق التاريخي ، ويرجعوا للوحدة الجامعة الاولى وهي الاسلامية التي تذوب فيها الطائفية والجنسية ، فلا عرب ولا عجم ولا ترك ولا كرد ولا .. ولا .. ثم الى الجامعة الثانية وهي العروبة التي توجب على الناطقين بالضاد أن يكونوا كلمة واحدة في جميع عوائدهم وأوطانهم وأن لا يدعوا للأجنبي يداً تفرقهم .

ومن عجيب الأمر ! أني كنت في مجمع من المسيحيين أكثرهم من رجال الدين ، وأتى ذكر ذي القرنين فقالوا : هو الاسكندر الرومي الذي دوخ الأرض وفتح وفتح .. فقلت لهم : يا للعجب ! ولم لا تنسبونه الى أصلكم الذي أوصلكم الى هذه البلاد ؟ وهلا كانت الغساسنة من أهل اليمن الذين كانوا ملوك الشام قبل الاسلام وأنتم أبناؤهم ؟ وهلا كان ذو القرنين من اليمن فهل تفخرون بأنه اسكندر الرومي ولا تفخرون بأنه من أصلكم اليمني ؟ ومن أين أتى اسم اسكندر حتى نلصقه بذي القرنين وأذواء اليمن أشهر من ان يذكروا ؟ مما حدى بي أن أفرد لهذا بحثاً مستقلا فيما يأتي .

وهب ان اسكندر الرومي له فتوحات لا تنكر فهو غير ذي القرنين اليمني وبينهما آلاف السنين، فذو القرنين كان بزمن ابراهيم عليه السلام، واسكندر الرومي كان بزمن الرومانيين ، فما أبعد هذا من ذاك .

وأيضا ما صلة المسيحيين العرب الذين هم من غساسنة اليمن بالرومان حتى ينسبوا لهم ذا القرنين ويقولوا عنه انه اسكندر المقدوني الا التفرق الذي كان مضغوطاً ومكافحاً بجميع اشكاله بزمن بني أمية حتى اذا ذهبوا أخذ يظهر ويزيد بزمن بني العباس بأشكال عجيبة ومخيفة الى أن اضمحل ملك العرب وحل محله العجمة والأعاجم الذين لا يشفى غليلهم بدون استئصال العرب والعروبة . والتاريخ لا يستر عورة أحد فانه نقل لنا ان السلطان سليمان تغاضى عما كان يفعل بمسلمي اسبانيا العرب حين كان سليمان تهابه الأسود في آجامها ، ولكن لا يستغرب من وحشيتهم شيء بعد أن كان الملك منهم يستأصل اخوته وأولاده في سبيل ملك زائل .

فقد ذكر فريد وجدي في تاريخه ان السلطان سليمان استأصل أولاده حتى ابن ابنه الرضيع ، وجعلوا بلاد العرب جاهلة قاحلة عادت لأسوأ ما كانت عليه أيام الجاهلية بأضعاف أضعاف الجهالة ، ولولا قيام المصلح الكبير محمد بن عبد الوهاب وصمود أتباعه بوجه الاستعمار التركي الذي لم يستطع أن يغير من عصبيتهم وتمسكهم بمصلحهم ذرة لما علمنا ما كانت تصير اليه البلاد العربية من الانهيار والانحلال، وقامت على أساسه ومبدئه الدولة الاسلامية السعودية محافظة على تلك الشعائر الدينية ، ناشرة الآثار العلمية الاسلامية بالرغم عما كان يشوه الاستعمار التركي سمعتها به من الانحراف الديني الذي لم أجد له أثراً في جولاتي الحجازية مع شدة الاختلاط بهم وعشرتهم الأيام والليالي الطويلة ، وانما يحكمون الكتاب والسنة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحرون الحق باجتهادهم ويتبعون الدليل .

وحقيقة ما هم عليه في الاصول والفروع كما قال الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة ، وفي الفروع على مذهب الامام احمد بن حنبل ، ولا ينكرون على من قلد اصول الأئمة الاربعة ، الا انهم اذا صح عندهم نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا معارض حتى بأقوى منه وقال به أحد الأئمة الاربعة يأخذون به ويتركون المذهب الحنبلي ، كميراث الجد والاخوة فانهم يقدمون الجد بالارث على الاخوة وان خالف مذهب الحنابلة . لكن لا يخلو بعضهم من شدة الانكار على من يتمسح بآثار الاولياء والصالحين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام خشية سوء الاعتقاد بان هؤلاء يتصرفون بأمور الدنيا والآخرة وغير ذلك ، وايضا يهدمون قبور الأصحاب والصالحين ويسوونها بالأرض بدون تمييز حتى لأكبر ملك عندهم وهو المرحوم عبد العزيز .

نعم أن من يعتقد بأن لهم التصرف بما ذكر بالاستقلال فهذا لا شك بإنكاره ، فقد قال صاحب الدر آخر كتاب الصوم وقبل باب الاعتكاف ما نصه : واعلم أن النذر للأموات من أكثر العوام ، وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها لضرائح الأولياء الكرام تقرباً اليهم فهو بالاجماع باطل وحرام ، ما لم يقصدوا صرفها لفقراء الأنام ، ولقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في هذه الأعصار ، وقد بسطه العلامة قاسم في شرح درر البحار ، ولقد قال الامام محمد : لو كانت العوام عبيدي لأعتقتهم وأسقطت ولائي ، وذلك لأنهم لا يهتدون فالكل بهم يتعيرون أهـ .

وقال العلامة ابن عابدين في حاشيته على ذلك قوله : تقرباً اليهم ، كأن يقول يا سيدي فلان إن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب أو الفضة أو من الطعام أو من الشمع أو الزيت كذا بحر . أما بطلانه وحرمته فقال : لوجوه ، منها أنه نذر لمخلوق والنذر لمخلوق

لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لاتكون لمخلوق ، ومنها ان المنذور له ميت والميت لا يملك ، ومنها أنه إن ظن ان الميت يتصرف في الامور دون الله تعالى واعتقاده ذلك كفر ، اللهم الا ان قال : يا الله اني نذرت لك ان شفيت مريضي او رددت غائبي او قضيت حاجتي ان اطعم الفقراء الذين بباب السيدة نفيسة أو الامام الشافعي او الامام الليث او اشتري حصرا لمساجدهم أو زيتاً لوقودها او دراهم لمن يقوم بشعائرها الى غير ذلك مما يكون فيه نفع للفقراء والنذر لله عز وجل ، وذكر الشيخ انما هو محل لصرف النذر لمستحقيه القاطنين برباطه او مسجده ، فيجوز بهذا الاعتبار، ولا يجوز أن يصرف ذلك لغني ولا لشريف منصب أو ذي نسب أو علم ما لم يكن فقيرا ، ولم يثبت جواز الصرف للأغنياء للاجماع على حرمة النذر للمخلوق ، ولا ينعقد ولا تشتغل الذمة به ولأنه حرام بل سحت ، ولا يجوز لخادم الشيخ أخذه الا أن يكون فقيرا أو له عيال فقراء عاجزون على سبيل الصدقة المبتداه ، وأخذه أيضا مكروه ما لم يقصد الناذر التقرب الى الله تعالى وصرفه الى الفقراء ، وبقطع النظر عمن نذر للشيخ . بحر ملخصاً عن شرح العلامة قاسم .

وأما ما يتعلق بصيغة النذر ، فقال ابن عابدين : بأن تكون صيغة النذر لله تعالى للتقرب اليه ، ويكون ذكر الشيخ مراداً به فقراؤه كما مر ، ولا يخفى أن له الصرف الى غيرهم كما مر سابقاً ، ولا بد أن يكون المنذور مما يصح به النذر كالصدقة بالدراهم ونحوها ، أما لو نذر زيتاً لإيقاد قنديل فوق ضريح الشيخ أو في المنارة كما يفعل النساء من نذر الزيت لسيدي عبد القادر ويوقد في المنارة جهة المشرق فهو باطل ، وأقبح منه النذر بقراءة المولد في المقابر ومع اشتماله على الغناء واللعب وايهاب ثواب ذلك لحضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم اهـ .

وفي الهندية في الباب السادس عشر في زيارة القبور قال برهان الترجماني : لا نعرف وضع اليد على المقابر سنة ولا مستحسناً ولا نرى به بأساً . وقال عين الأئمة الكرابيس : هكذا وجدناه من غير نكير من السلف . وقال شمس الأئمة المكي : بدعة . كذا في القنية . ولا يمسح القبر ولا يقبله فانه من عادة النصارى ، ولا بأس بتقبيل قبر والديه أهـ .

وأما هدم قبور الأصحاب والأولياء وتسويتها ، فربما يشهد لهم ما رواه مسلم عن أبي التياح حيان بن أبي الهياج قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لا تدع صورة الا طمستها ولا قبراً مشرفاً الا سويته . وذكره في كتاب رياض الصالحين أواخره في كتاب الدعوات .

وحبذا لو كان الملك والسلطة كزمننا هذا بالحزبية التي لا تكاد تدوم الا وتنهار بانهيار القائمين بها شأن كل طامع بالسلطة ويرجع الأمر للقدر ، ولكن في القديم كانت عبارة عن دين يرسخ في نفوس متبعيه نجني مرارة ثمره في زماننا هذا وفي كل زمن ، ومذ تضاءلت النعرة الدينية من البشر قامت الدول المستعمرة تفرق المسلمين بحسب الملك والانقسام والتنصير للأمم الضعيفة في افريقيا وسواها حتى قضت على المسلمين في افريقيا وقضت عليهم في آسيا وأوربا بتقسيمهم دويلات .

وهذا ما يجب أن تفعله لحياة الاستعمار فان الاسلام والعرب قوة لا خلاص منها بغير هذه الطريقة الاستعمارية الخبيثة ، ولا حياة للغرب بدون البترول ، والبترول اذا كان بيد دولة قوية فانها تخنق الغرب وتقضي عليه ولا تأمن عليه الا أن يكون بيد الأمم الضعيفة ، وليس أمة أقبل للانقسام والتفرق من العرب ، وهذا شأنهم قبل مجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا أقواماً متفرقين في جزيرة العرب يقتل

بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً حتى جاء الاسلام ووحد كلمتهم فاجتاحوا الدنيا ، ولما زالت النعرة الاسلامية التي هي الجامعة الاولى لهم عاد لهم ما كانوا عليه من التفرق والانقسام والضياع . قال تعالى : ( **لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم** ) . ولا زال الغرب يسعى بكل وسيلة لرفع الآثار الاسلامية حتى يتحكم التفرق كما يريد ، ولا سبيل لذلك الا بعنصر اليهود الذي كان أوله عبد الله بن سبأ اليهودي بزمن عثمان بن عفان وانتهى الى دولة العصابات اليهودية الخبيثة التي لا مخلص منها نهائياً مهما حاول العرب الا بالمهدي المنتظر وعيسى ابن مريم عليهما السلام . ورحم الله من قال :

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

وزدت عليه من قولي :

عملنا ونحن المسلمون بديننا وأنتم لعيسى أبعد الناس أكلح
زعمتم بأن كنتم نصارى ديانة ولكن كذبتم فالديانة أصلح
ومعبودكم جان له ومكافؤ بقدس من التبرىء هذا لأقبح

حتى قيل ان القول بخلق القرآن انما كان منشؤه اليهود كما يقوله ابن نباته المصري في كتابه سرح العيون : ان جعداً أخذ القول بخلق القرآن من إبان بن سمعان ، وأخذه إبان من طالوت بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول بخلق القرآن ، وكان طالوت زنديقاً وهو من صنّف لهم في ذلك ، ثم أظهره جعد بن درهم ، وقد أقام جعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن فتطلبه بنو أمية فهرب وسكن الكوفة فلقيه بها جهم بن صفوان فنقل عنه هذا القول .

وهذا مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية : يرى المؤرخون ان امه كانت امة بخلاف سائر من كان قبله من ملوك بني امية ، وانها كانت اختاً لجعد ، وانه قد اعتنق مذهب جعد فلقب بالجعدي والله أعلم . .

ولكن القول بخلق القرآن من جملة اقوال المعتزلة المعتقدين بها والتي اغروا بها خلفاء بني العباس كالمأمون والمعتصم والواثق ، ولا يبعد ان تكون من دسائس اليهود في عقائد اهل السنة حتى انفصل عنهم من انفصل ، كما ذكره ابن نباته مع قرب زمن الجعدي من زمن المعتزلة . ولا حول ولا قوة الا بالله .

ولعمري ان الغرب استطاع بدهائه ان يكون امكر من اليهود حيث القاهم في لجة بحر العرب الذي لا ينضب ماؤه ولا يفنى منبع رجاله ، فتخلص بذلك من اليهود الذين هم شر الخلق ، وتخلص من العرب الذين هم ارحم الخلق واحسنهم اخلاقاً ورفقاً بالبشر ، وكان واسطة هذا الامر ومحركه الظاهر امريكا التي تساندهم وتقويهم وتعينهم باغراء دولة المكر والخداع وهم الانكليز الذين ركبوا الامريكان وسيروهم كما يريدون ودفعوهم لكل مكروه من وراء وراء .

ففي الحرب العالمية الاولى التي انتهت سنة ١٩١٩ استأجروا مراكب الامريكان وعتادهم ، وفرقوا بين العرب والترك حتى فرقوا الخلافة الاسلامية ، ثم خدعوا الجميع حتى ظفروا وانتصروا ، وفي الحرب العالمية الثانية التي انتهت سنة ١٩٤٥ كان الاحمق الوحيد الذي ركبوه في المرة الاولى سبب نصرتهم ايضاً ، وحتى الآن جروه لبلاد الشرق والقوه بمعاركه يفنى بها ماله وعتاده واولاده ، فتارة بحرب كوريا ، وتارة بحرب فيتنام ، وتارة بنقض امة العروبة التي لا تنام ، وما ندري ما سيكون في المستقبل من حوادث الايام .

ان الليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

واني ألخص لك بهذه الصحيفة خلاصة ما اعتمده المؤرخون ممن انشق عن الجماعة بتواريخهم ومصادر النقل لتعلم دسائس أعداء الاسلام كيف استطاعوا أن يفرقوا بين عرى الاسلام مشيراً لاهم الحوادث معرضا عن التفصيل ، واليك البيان : اما أهل السنة والجماعة فهم الذين اتبعوا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا أصحابه كلهم ، ولم يطعنوا بأحد منهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ، ووكلوا أمر اختلافهم الى الله ، وهم أكثر فرق الاسلام على وجه الارض والحمد لله .

١ ـ انشق عنهم شيعة أهل البيت الذين يرون حق الخلافة والوصاية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ، لكن لم يظهر هذا الأمر ولم يتكلم به أحد ألا بعد قتل عثمان رضي الله عنه ، وبزمنه أيضاً أول من قال به هو عبد الله بن سبأ اليهودي ، فطعن بخلافة عثمان والشيخين ، وقال ان علياً هو الوصي الشرعي بعد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، فاستقر هذا الشيء عند كثير من أفراد المسلمين وعامتهم وقاموا به وتسموا بالشيعة . وصاروا ينقلونها بالعهد والعقيدة كما قدمناه ، وقد ذكر تفصيل مذهب هذا الملعون أبن جرير في تاريخه بوقائع سنة ٣٥ خمس وثلاثين وانه عاث فساداً في البلاد وتكاتب أتباعه سراً وبدأ الانقسام يومئذ ، ولكن لم ترج بقية كفرياته التي دسها ولم يظهر لها أثر لعدم مروج لها . أما أمر التشيع لأهل البيت فبقي أثره العظيم حتى صار كلما يقوم رجل من أهل البيت الخلص للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يجد أعواناً وأتباعاً ، ثم يخذلونه بعد أن يبايعوه ، الا من كان قصده الملك من اتباعهم ، فكان يتخذهم غرضاً يتقي بهم ووسيلة لمقصده ثم يعد للأمور عدتها ويتحيل للوثوب بمكره كالعباسيين والعبيديين ، وأما من كان يريد ارجاع الأمر لأهله كالمأمون فكان يخذل ويرجع الى الملك مضطراً ووقائع التاريخ شاهدة بذلك .

٢ ـ الانشقاق الثاني انشقاق معاوية عن علي رضي الله عنهما سنة ٣٥ وعـدم مبايعته له ، ثم قتل ابي الحسنين واستقرار الأمر لمعاوية بمبايعة الحسن له سنة ٤١ احدى واربعين ، كما في تاريخ الطبري وابن الوردي .

٣ ـ خروج الحسين رضي الله عنه ومقتله سنة ٦١ احدى وستين كما في تاريخ ابن الوردي .

٤ ـ وبعده عبد الله بن الزبير سنة ٦٤ أربع وستين وقتله سنة ٧٣ ثلاث وسبعين ، ثم استقر الملك لبني أمية ، تاريخ ابن الوردي .

٥ ـ خروج المختار بن عبيد الله الثقفي طالباً بدم الحسين وقتَل قاتليه وانتقم الله منهم ، لكن المختار أدخل أيضا عقيدة فاسدة ولم تدم بل ذهبت بذهابه وقتل سنة ٦٧ سبع وستين .

٦ ـ الانشقاق السادس : الانشقاق العباسي المنظم الذي بدأ بتفرق الكلمة واستتباب الأمر لبني العباس سنة ١٣٢ بمبايعة أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالخلافة كما في ابن الوردي بوقائع سنة ١٣٢ .

٧ ـ استمرار الدولة الأموية بالأندلس بدخول عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك اليها هارباً متخفياً من بني العباس سنة ١٣٩ وهو أول انقسام للخلافة الاسلامية ذكره ابن الوردي بوقائع تلك السنة .

٨ ـ فتنة الراوندية سنة ١٤١ فقتلهم الخليفة المنصور وانتهت بقتلهم ، ابن الوردي بوقائع تلك السنة .

٩ ـ خروج محمد بن عبد الله بن الحسن السبط سنة ١٤٥ خمس واربعين ومائة الملقب بالمهـدي وبالنفس الزكية ثم قتله ، ثم قـام اخـوه

ابراهيم العلوي ابن عبد الله بن الحسن ولم يبلغه مقتل اخيه رضي الله عنهما ، فقتله المنصور ايضا ذكره ابن الوردي بوقائع تلك السنة .

١٠ – فتنة القرامطة التي ظهر بها الفرج بن يحيى المدعو قرمط سنة ٢٨٥ يدعي بكتاب يزعم انه من عند أحمد ابن الحنفية وتلقب بذكرويه .

١١ – قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وامتدادها لمصر وانشقاقها عن العباسيين من سنة ٢٩٧ الى انقراضهم سنة ٥٦٧ ودامت ٢٧٠ مائتين وسبعين سنة .

وهنا تمكن العدو الأكبر للمسلمين جرجي زيدان من اظهار ما يكنه من بغض للعرب والاسلام برواياته في تاريخ الاسلام ، وكأني بقارىء سلسلة تاريخه برواياته المعسولة يعجب من اضاعة وقته في هذا المضمار ، كأنه ليس في المسلمين من يقوم بهذه المهمة المفروغ منها ، ولكن بعد أن يمعن النظر من يقرؤها يعلم السر في ذلك ، فانه والعدو الثاني أمين الريحاني صاحب كتاب النكبات التي حلت به بعد الممات تمكنا من دسائس وأكاذيب على ملوك الاسلام وخلفائهم من حيث لا يشعر فيها الجاهل الفر ، وكأن جرجي زيدان لم يكتف بما هتك به المؤرخون من أعراض الفاطميين حتى أكملها هو بروايته فتاة القيروان ، وأن لمياء بنت حمدون هي ويعقوب بن كلش اليهودي كانا سبب انتصار المعز في دخوله مصر بعد موت كافور الاخشيدي ملكها ، مع أن المراجع التي ذكرها لكتابه خالية من كل أكذوبة وضعها بروايته ، والتصدي لردها يضيع وقتاً أثمن من هذياناته التي أصبحت مثلا بين الناس حيث يقولون : هل هي أكذوبة جرجي زيدان في روايات تاريخ الاسلام ؟ . وفي هذه الاشارة برنا بوعد الالماع اليه والسلام .

على أن الانقسامات هذه لم تنته عند ذلك ، بل زادت زيادة خرجت

عن الحد بصورة لا يمكن تعدادها الا باختصار كتب التاريخ كما فعل السيد فريد وجدي المصري بمقدمة تاريخ الدولة العثمانية جزاه الله خيراً ما أجمل تتبعه واستقصائه ، ولكن كل ما حصل من التفرق والانقسام ، انما كان بعد زوال الدولة الأموية من عالم الوجود ، والسبب ان الخليفة العباسي كان يرسل الأمير لاحدى المقاطعات فيستقل هو وعقبه بها الى أن ينقرضوا أو يتغلب عليهم متغلب ، حتى حصل في المغرب دولة الأدارسة والملثمين والأغالبة والزناتية ، وفي اليمن بنو طباطبا ، وفي مصر دولة الاخشيدية ، وكذا في مصر وسورية دول الأكراد والجراكسة ، وفي الري والديلم الدولة الطبرستانية ، وتعطلت الأخرجة التي كانت ترد الى الخليفة الأعظم من ملوك العالم ، ثم حصلت حروب بين هذه الدويلات الاسلامية وكل واحد منهم يريد توسيع ملكه وسلطته على حساب الآخر ، وتسيل الدماء ويذهب أمير ويأتي أمير ، ويحصل انقطاع لاسم الخليفة بناحية ويعود بأخرى حسب أهواء المتغلب ، وذلك أواخر أيام العباسيين ببغداد الى أن انتهى بدخول هولاكو التتري بزمن المعتصم العباسي سنة ٦٥٥ فخلعه ثم قتله سنة ٦٥٦ ، وبقي الوقت بلا خليفة ثلاث سنين الى أن بايع المصريون المستنصر بالله أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله وذلك في رجب سنة ٦٥٩ ، وهو أسود اللون أمه حبشية ، قدم مصر فعرفوه وهو عم المستعصم الذي قتله هولاكو ، وكانت مبايعته أيام حكم الملك الظاهر لمصر ، والمستعصم ابن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد والد أول خليفة بمصر ابن الناصر بن المستضيء وهو الذي انقرضت بزمنه دولة العبيديين الفاطميين سنة ٥٦٧ ، وخلفهم السلطان صلاح الدين . والمستضيء هو ابن المستنجد .

وهنا رؤيا لطيفة ذكرها الدميري في حياة الحيوان : أن المستضيء رأى

ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه أربع خاآت ، فطلب معبراً وقص عليه ما رآه . فقال له : تلي الخلافة سنة خمسمائة وخمس وخمسين . فكان كذلك .

والمستنجد بن المقتفي ، والمقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد بن القائم بن القادر بالله بن اسحق ، كما في الدميري ، واسحق هذا ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هرون بن المهدي بن أبي جعفر المنصور ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما .

وباستقصاء النسب هنا لم نستقص الخلفاء ، اذ قد يتولى الخلافة اخوه أو عمه أو ابن عمه أو غيرهما ، ودامت الخلافة العباسية ببغداد ٥٢٤ سنة ، ثم تجددت بمصر تجددا صوريا ولبثت بها ٢٦٧ سنة . فيكون مجموع حكمها ٧٩٤ سنة ، أوله حكم حقيقي وآخره اسمي صوري الى أن استولى الأتراك العثمانيون على مصر بزمن السلطان سليم الاول بن بايزيد ، وأخذ من المتوكل الآثار النبوية المباركة وهي : الراية والبردة والسيف ومفاتح الحرمين الشريفين وذلك سنة ٩٢٣ ، وكان المتغلب اذ ذاك على مصر الملك الأشرف قانصوه الغوري .

وبتسليم المتوكل انقطع من الدنيا حكم العباسين وهو ابن يعقوب العباسي ابن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل بن أبو بكر المعتضد ابن أبو العباس أحمد بن المستكفي سليمان ابن الامام أحمد أول الخلفاء العباسيين بمصر ابن علي بن أبو بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر .

ولكن المؤرخ فريد وجدي لم يعد الإمام احمد هذا ابن الخليفة الظاهر من الخلفاء الستة عشر الذين جددوا الخلافة بمصر ، لأنه اخذ جيشاً

جهزه له السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري المتغلب آنذاك على مصر وارسله معه الى بغداد ، فحاربه التتر وهزموا من كان معه من الجند ، ولم يوقف له على خبر ، وبعد انقطاع خبره أتى الامام أحمد بن علي بن ابو بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر وأثبت نسبه فعدّ هو أول الخلفاء العباسيين بمصر كما ذكره في مقدمة تاريخ الدولة العثمانية ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وطالت خلافته بمصر مدة أربعين سنة تقريبا وبأيامه ظهرت دولة الترك في الأناضول سنة ٦٩٩ ، والثاني ابنه المستكفي بالله ، والثالث ابو اسحق ابراهيم ابن أخي المستكفي ولقبه الواثق بالله ، خلع وبايعوا أبا العباس أحمد بن المستكفي ولقب بالحاكم بأمر الله فهو رابعهم ، والخامس ابنه المعتضد بالله أبو بكر ، والسادس ابنه محمد المتوكل على الله ، وفي أيامه وصل تيمورلنك الى بلاد الشام وعاث في الأرض الفساد ، وانتصر على السلطان بايزيد العثماني ابن مراد في بلاده ، والسابع الواثق بالله عمر ، والثامن أخوه زكريا ابراهيم ، والتاسع أبو العباس المستعين بالله بِكْر أولاد محمد المتوكل ، والعاشر الابن الثاني لمحمد المتوكل هو داود المعتضد بالله ، والحادي عشر ابن محمد المتوكل الثالث هو سليمان الملقب بالمستكفي ، والثاني عشر رابع أولاد محمد المتوكل هو حمزة ألقائم بأمر الله ، والثالث عشر خامس أولاد محمد المتوكل هو يوسف المستنجد بالله ، والرابع عشر عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل ، ولقب بالمتوكل أيضا كجده ، والخامس عشر ابنه يعقوب ولقب المستمسك بالله أبو الصبر ، والسادس عشر ابنه محمد ولقب بالمتوكل وهو آخرهم الذي انتقلت منه الخلافة الى دولة الترك التي علا شأنها وامتد سلطانها وخشيها الاجانب فأكثروا عليها الحروب في كل آن وزمان فاضطرت للتغافل عما حل ويحل بالأندلس من الويلات .

قال الأمير شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الاسلامي في كلامه على مسلمي الأندلس : وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية الا انها كانت في الجهاد الدائم مع الدول الاوربية كما لا يخفى ، فلم يكن من السهل عليها التفرغ لأمر الاندلس ، وبرغم هذا قد ثبت ان خير الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر طالما ارسلوا نجدات بالمال والرجال الى مسلمي جبال البشرات المشرفة على البحر اهـ .

ثم أخذت دول الشرق والغرب حتى دولة العجم الفارسية المبدأ والمنتهى تحارب الدولة العثمانية الاسلامية السنية للحد من سلطانها الذي امتد امتدادا هدد العالم بأسره ، حتى ذكر السيد فريد وجدي وصية بطرس الأكبر الروسي أثناء ذكره تاريخ السلطان مصطفى خان الثالث التي تنص على عدم ترك الاتراك بدون هجوم ومحاربة لهم في كل وقت ممكن . ولكن ما لا يمكن التغاضي عنه تمسك حكام الاتراك وملوكهم بعصبية جنسيتهم التي اتخذها الاعداء أعظم وسيلة للتفريق بين المسلمين ، لا سيما جعل اللسان التركي هو اللغة الرسمية دون لغة القرآن ، حتى تأسست بتركيا جمعية تسمى تركيا الفتاة ، دخلها الصالح والطالح ، وأعانها الأعداء ، وأضحى رجالها ببلادهم حتى أصبحت الدولة بين نارين داخلي وخارجي ، أما الداخلي فمستتر له فروع في الخارج كان العثمانيون يلاحقون من يعثرون عليه منها الى أن تطورت هذه الجمعية وتمكنت من إحداث انقلابات في ملوك الترك كان آخرهم عبد الحميد الثاني رحمه الله ، الذي كان بذهابه ذهاب دولة العثمانيين من عالم الوجود باقامة أخيه محمد رشاد الذي لم يكن له سوى الاسم الصوري ، وكان الحكم بيد عصابة تسمى جمعية الاتحاد والترقي الذين اشتهر عنهم اسم ( الدونمه ) ، وهي كلمة تركية معناها الراجعون ، ويقال انهم من نسل اليهود الذين

حيث لم يكن اسلامهم صحيحاً ، ولم يقبلهم العالمي لارتدادهم عن دينهم أسلموا حين الفتح التركي لبلاد النمسا والمجر خوفاً من الاتراك الفاتحين فسموا الراجعين . وهذه الاشاعة وان لم تكن مستندة الى دليل لكن ما اتوه من الاعمال أكبر دليل على هذا الأصل ، اذ فتكوا بالقتل والتعذيب والتشريد لمواطنيهم خاصة العرب منهم الى أن انتهت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٩م وذهب العديد منهم قتلا ضحية اجرامهم ، وتمزقت دولة الترك واستقل كل من كان تحت يدها دويلات ، واقتصر ظلم من بقي منهم على من تحت سلطانهم من الاتراك المسلمين ، لان جنسية الترك من أشد الأمم تمسكاً بدينهم الاسلامي ، ولكن حكامهم أبدلوا الاحرف العربية بالكتابة بأحرف لاتينية لقطع الصلة مع العرب والمسلمين ، وأباحوا زواج المسلمة بمن شاءت من اليهود والنصارى والمجوس وأي ملة كانت ، ومنعوا أذان الصلاة بالعربية ، ومنعوا الأزياء الاسلامية وأن يرتدي أحد العمامة مع أن الزي مباح في جميع أمم الارض أن يرتدي الانسان ما شاء حسب تقاليده ، ومع أن الأذان الاسلامي في بلاد العالم أجمع بالعربية ، وغير ذلك مما نرجو الله تعالى أن يردهم لدينهم وما ذلك على الله بعزيز .

ولكن طول عهد هذا الانحلال الخلقي والديني منذ انتهاء الحرب العامة الثانية سنة ١٩٤٥م وقبلها حتى كتابة هذه السطور ليس هو بشير خير للاسلام .

وقد ذكر الأمير شكيب ارسلان في كتابه حاضر العالم الاسلامي أثناء كتابته على مسلمي الاندلس ما ننقله بالحرف قال :

من أدل الدلائل على تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر أن أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدئون باجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التي نشئوا عليها ،

وذلك كما فعل الاسبانيون من اكراه مسلمي الاندلس على نبذ اللباس الاسلامي وترك الذهاب الى الحمامات وما اشبه ذلك ، فالعمل الذي عملته حكومة انقره بمسلمي تركيا في هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها ومن انتقد لبسها ان هو الا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الاتراك من الدين الاسلامي ، وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابيلا لمسلمي الاندلس بين يدي حملهم على النصرانية .

نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين ، والدين لا يتعلق باللباس ، ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير في أحوالها الروحية الباطنية ، ومن ينكر ذلك يكون مكابراً ، ولولا هذا التأثير ما كان الاسبانيون لتسهيل خروج مسلمي الاندلس من الاسلام بادروا باجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم ، وايم الله لولا متانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الاوضاع الجديدة التي حملتها عليها أنقره عميقاً جداً ، ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة في تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سيما بعد الغاء أنقره كل تعليم ديني اسلامي من مكاتب الحكومة . هذا ما قاله أمير البيان بالحرف .

أما سلطان الترك الذي وقع في أيامه بقية حوادث الاندلس الوخيمة ، فهو السلطان أحمد الاول ابن السلطان محمد الثالث العثماني ، وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة الموافق لسنة ١٥٨٩ ميلادي ، وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقي فيها ١٤ سنة ، توفي سنة ١٦١٧ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وقد أصدر في أيامه أمراً بانقاذ الاندلسيين ، وأرسل لملك فرنسا هنري الرابع المتوفي

سنة ١٦١٢م بأن يترك من لجئوا اليه من مسلمي الاندلس الذين قبلهم في بلاده ، ان يتركهم لركوب البحر الى بلاد الاسلام ، فلم يسعه الا الاجابة لطلبه ، وبقي منهم بقايا في فرنسا اندمجوا في اهلها كما ذكر ذلك الأمير شكيب في كتابه المذكور .

ومع ذلك لم يبرر الامير سلوك ملوك الاتراك من بعض القصور في اغاثة مسلمي الاندلس حيث قال : وانا لا ابرىء الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير واقول : انها برغم ما كانت عليه من الحروب في البلقان ومن مجاهداتها يومئذ للالمان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم ، كان في استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل في نواحي غرناطة ويفرّج عمن هناك من المسلمين ، ولكن قدر الله أن لا تفعل ذلك اهـ .

ولما غلب فرديناند وايزابيلا على ملك بني الأحمر سنة ١٤٩٢م كان السلطان بايزيد خان الثاني ابن السلطان محمد الثاني فاتح استنبول ، وامتدت محنة الاندلس الى زمن السلطان سليمان القانوني بل كانت شدتها في زمنه وذلك سنة ٩٢٦ هجرية ١٥٢٠م .

ولنذكر موجزاً مما حل بمسلمي الاندلس ، هو انه لما غلب فرديناند وزوجته ايزابيلا على ملك بني الاحمر من سلالة الخزرج الذين كرسيهم غرناطة ، فاستولوا عليها سنة ١٤٩٢ وأمضيت معاهدة بينهما وبين سلطان المسلمين المغلوب . ملخصة في كتاب ( آخر بني سراج ) المطبوع سنة ١٨٩٧ م .

والسلطان هو أبو عبد الله محمد ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله مؤسس مجدهم .

وقد استقامت دولة الاسلام بالاندلس سبعمائة وثمانية وسبعين سنة منذ انهزام لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة لفرديناند وزوجته في ٢٥ سبتمبر ١٤٩٢ وفق ٢٢ محرم ٨٩٧، وبدأ القتل والتعذيب والفتك بالمسلمين وتنصيرهم ، ويسمى المرتد ( موريسك ) ، وشدد ذلك بعده شارلكان سنة ١٥٢٦ ، ولم تزل الثورات تتجدد والقتال يستمر الى سنة ١٦١٠م حيث وقع الجلاء التام بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرون ، ولم يزل شارلكان يتمم عهد فرديناند بتنصير المسلمين واسترقاقهم حتى هاجر من هاجر لبلاد الترك أو لبلاد الاسلام ، وتنصر الباقون ، وقتل من قتل ، واسترق من استرق حتى لم يبق بتلك البلاد مسلم واحد .

وبدل أن يحول السلطان سليمان في زمنه وجهته لتخليص أبناء دينه من شارلكان وايزابيلا قَبِل أن يحمي الملك الافرنسي من شارلكان وايزابيلا سنة ١٥٢٥ ، ونص الكتاب الذي أجاب به ملك فرنسا كما ذكره فريد وجدي في تاريخ ملوك بني عثمان هو :

الله العلي المعطي المغني المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات ، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الاربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وجميع أولياء الله .

أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك ظل الله في الأرضين ، سلطان البحر الابيض والبحر الاسود والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن ، وممالك كثيرة أيضا التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة انار الله

براهينهم ، وبلاد اخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر . أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان .

الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا :

وصل الى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فرانقبان النشيط مع بعض الاخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً ، وأعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكية ، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل ، فصار بتمامه معلوماً ، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم ، فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فان آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو ، ونحن أيضا سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلا نهارا مسروجة وسيوفنا مسلولة ، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته ، وأما باقي الاحوال والاخبار تفهمونها من تابعكم المذكور . فليكن معلومكم هذا تحريرا في أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بمقام دار السلطنة العليه القسطنطينه المحروسه المحميه .

ومن هذا الكتاب نعلم مدى سطوة دولة بني عثمان حين كان المسلمون العرب يلجأون لبلاد الافرنج ويتنصرون ويعذبون على يد الأجانب المتعصبين الذين لم يعاملهم أجدادنا حين فتح بلادهم الا بالرحمة والاحسان ، وانه لو قصد السلطان سليمان تجريد حملة لحمايتهم لأرهب شارلكان قبل أن تصل الحملة اليه ، واني اردت نقل هذا الكتاب لتستهل دموع

المسلمين على ما وصلت اليه ملوكهم ورؤساؤهم الآن من استجداء الاجانب ان يعطوهم السلاح ، في حين يزودون به اسرائيل منحة ، وما المانع لهم من تأسيس المصانع الحربية التي تنتج ما ينتجه المستعمرون ، والمال عندهم موفور والمدارس والجامعات عمت السهل والوعر ، وضجيج العلم والترقي أصم الآذان ، فتنبهوا يا أبناء الزمان فالوقت سيف قاطع إن لم تقطعه قطعك ، ودعوانا عريضة ونفوسنا مريضة ولا حول ولا قوة الا بالله . ولكن ما رأيناه من الوحدة بين الجمهوريات العربية الثلاث يبشرنا بأمل كبير في كونه نواة وأساساً لوحدة شاملة تكون سبباً بنجاح مأمول والتاريخ أبو العجائب .

## ■ تنبيه

هذا تنبيه اذكره ختاماً لهذا الفصل ليعلم أبناء الاسلام والعروبة تعصب الكفرة ضد الأمة الاسلامية عناداً للحق ودفناً للفضيلة بأدلة تاريخية وأجلى بيان .

من المسلم انه لم يذكر التاريخ في فتوحات العرب والاسلام أنهم أكرهوا احداً على الدخول في دينهم لا كلياً ولا جزئياً ولا افراداً ولا جماعياً عملا بتواصي دينهم وأوامر رسولهم صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل في كتابه الكريم : **( لا إكراه في الدين )** . وقال عليه الصلاة والسلام : **(( اذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو ، واذا كثر الزنا كثر السبا ، واذا كثرت اللوطية رفع الله يده من الخلق ولا يبالي في أي واد هلكوا ))** . والسبا بكسر السين . وقال صلى الله عليه وسلم : **(( اذا ظهرت الفاحشة كانت الرجفة ، واذا جار الحكام قل المطر ، واذا غدر بأهل الذمة ظهر العدو ))** . والمراد بالرجفة الزلازل . ذكرهما في الجامع الصغير ، وفي الحديثين ضعف الا ان الثاني أقوى من الاول ، وفي كتاب الزواجر لابن

حجر من رواية ابي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه : (( **من قتل نفساً معاهدة بغير حق لم يرح رائحة الجنة ، وان ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام** )) . وفي رواية : (( **من قتل معاهداً في عهده لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام** )) . ويرح بضم أوله وبفتحه وكسر الراء ، وبفتح أوليه ومعنى الكل شم الرائحة . وروى الترمذي وقال حسن صحيح واللفظ له وابن ماجه : (( **ألا من قتل نفساً معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله،فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً** )) .

هذه التواصي الدينية التي حملت المسلمين على ابقاء من جنوا من ابقائهم الدمار والخراب حتى الآن ، واذا كانوا أقلية بمكان فالامر أدهى وأمر اذا هم يتمتعون بحرية لا تحلم بها الاكثرية المغلوبة .

أما طريقة العرب والاسلام في فتوحاتهم فكانوا يخيرون الأمم بين ثلاث : إما الاسلام واما الجزية ، وكلا الأمرين يكون لمن يقبله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن لم يقبل أحدهما فالحرب غالباً أو مغلوبا . ولكن في جميع مجالاتهم الاولية يكون النصر فيها للعرب بلا استثناء ، وحينئذ يفعل الامام بالمغلوب ما يستحقه ، فكان يسلم بعضهم ويؤدي الجزية بعضهم، ويسترق بعضهم ويقتل بعضهم ، وحين توغل محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلي في الشرق ووصل الغزو الى الصين ، اكتفى الامير منها بالجزية من ملوك الصين وكذا من سائر البلاد التي كانت تدين للفاتحين ثم يتركونهم وشأنهم ، بينما كان الفتح العربي بالغرب تجاوز الاندلس الى أوائل بلاد الافرنسيين الآن على هذا الشكل والقاعدة ، في حين ان افريقيا بما فيها من سكانها البربر كانوا يدينون للعرب بفضل الاسلام لغزو أوربا ، ولولا خطيئة الامويين بكبح جماع موسى بن نصير لأتى على أوربا بأجمعها ولكان

أوصل الفتوحات براً وبحراً الى القسطنطينية ، ولكن شاء الله ان يظلم هذا الرجل بمن ظلم قدس الله روحه وأجزل ثوابه .

ثم أن رهبة الامة الاسلامية والعربية لم تزل مسيطرة على الدنيا الى أن زالت بظهور العباسيين ودولهم وبدأ انتقاض الامم التي كانت تخضع لسلطان الامويين والعروبة ، وكانت تتجدد الحروب والفتوحات من العباسيين لما يليهم من الممالك بين حين وآخر ، فيقال ان المعتصم فتح عمورية ، وهرون غلب تقفور كلب الروم ، والسلطان الفاتح فتح القسطنطينية ، وما هذه الفتوحات الا عصيان وانتقاض ممن أبقاهم العرب بمقتضى أوامر دينهم ، وكانوا ما يؤدون ما عليهم من الجزية ويدينون لسلطان الامويين العظيم .

وقصدنا من ذلك ان المستعمرين الأجانب لما تمكنوا من تفريق المسلمين دويلات وأمارات وغلب حب الرياسة على الملوك والرؤساء واشتعلت الحروب بينهم في الشرق والغرب ، علم الاعداء ان تركهم كما كانت العرب والاسلام يتركونهم قد يؤدي لانتقاضهم كما انتقضوا هم ، فشرعوا يطبقون سياسة غير سياسة العرب والاسلام ، الا وهي سياسة القتل والإبادة والتشريد والظلم والتنصير بكل وسيلة وحشية حتى لا تبقى لآثارهم الاسلامية والعربية أي شيء يذكر أو يعتصمون به الى يومنا هذا .

ومن قرأ كتاب حاضر العالم الاسلامي للأمير شكيب ارسلان علم بعض الفظائع التي ارتكبها الاسبان في تنصير العرب ، ومن استقرأ أعمال الهولنديين والافرنسيين وغيرهم في افريقيا وغيرها في مستعمراتهم التي كانوا يسرقون خيرها ، علم الوحشية التي ترتكب للتنصير بأنواع الظلم والقتل والارهاب والجوع والاهانة والاذلال حتى عمت النصرانية عن رهبة لا عن رغبة ، ولم يخرج الانكليز من الهند حتى أفنى المسلمين بهذه

الأساليب وهذه الوسائل ، وجعل الاكثرية لغيرهم ، وشطر الباكستان شطرين حتى يفني كل منهما الآخر ، ثم ضم كشمير وما والاها لعبادي البقر ، وما خرج من مصر الا بعد أن سلخ السودان المصري عنها ، وما الوحشية التي يلقاها المسلمون الآن في الحبشة بأقل مما لاقاها السنغال واوغندا من المستعمرين في أفريقيا بعد استقلالهم ، وما الوحشية ألتي لاقاها أهل أمريكا الأصليون من الفاتحين بأقل مما لاقاها غيرهم حتى أبادوهم وحلوا محلهم .

هذه هي المدنية الغربية .. وأين هي من تعاليم المسيح صلوات الله وسلامه عليه في الرفق والاحسان الى الخلق ؟ فوالله إنهم بعيدون عن دينه الصحيح بُعد السماء عن الارض ، ولو نظرت للدين الاسلامي فانك تراه بعيداً عن السفاسف ، وانما اتبعه من اتبعه عن قناعة وحب حتى سرى في النفوس سريان الروح في الجسد والماء في الشجر ، وما دين الاسلام الا ما شهد به هرقل لما سأل أبا سفيان عنه قبل أن يسلم انه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه . قال : لا . فقال هرقل : وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب . كما ذكره البخاري أوله .

ومن تتبع سير الصحابة حينما كانوا يهجرون آبائهم وأبنائهم وأزواجهم وزوجاتهم وأمهاتهم وأموالهم ويتبعون محمداً صلى الله عليه وسلم ، علم كيف كان الناس يعتنقون دين الاسلام عن رغبة لا عن رهبة ولا قتل ولا تشريد ولا ظلم ولا ابادة ولا إحراق ولا تهديد ، وما من صحابي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا كان أبوه وأمه من أعدى أعدائه صلى الله عليه وسلم ، هذا خالد بن الوليد ، وهذا عكرمة بن أبي جهل ، وهؤلاء أولاد أبي لهب ، وهذا حنظلة غسيل الملائكة ابن الراهب ، وهذا أبو عبيدة الذي قتل أباه لأنه تكلم بحق النبي صلى الله عليه وسلم ما لا ينبغي ، وهذا عبد

الله بن عبد الله بن أبي بن سلول حين همّ بقتل أبيه لعداوته للنبي صلى الله عليه وسلم لولا أن منعه النبي من قتله .

ووالله لو ترك البشر على اختيارهم لكان جميع أهل الارض مسلمين ، لأنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لكن لا بد من قيام الساعة ، وهي لا تقوم الا على شرار الخلق، لذا فلا بد من اضمحلال الأخلاق كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ما من يوم يأتي الا والذي يتلوه شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : (( **تقوم الساعة والروم أكثر الناس** )) . رواه مسلم في كتاب الفتن . وهذا من معجزات أقواله صلى الله عليه وسلم في أحوال آخر الزمان ، والمراد بهم هؤلاء الزرق العيون الشقر الألوان الذين يسعون بإبادة غيرهم كما فعلوا بالعرب وفيتنام ، فمرة بالحرب والطعان ومرة بافساد اللسان ومرة باللطف والاحسان يتلونون كالحرباء وهم كالحية الرقطاء .

فنسأل الله أن يعيذنا من شرورهم ويجعل كيدهم في نحورهم .

هذا وقد علم مما سبق سبب الانقسامات وأثر التمسك الشديد بالورع الذي أدى الى التهتك المديد ثم انقلب الى حب الرياسة الوحيد .

* * *

# في الكلام على ذي القرنين المذكور في الكتاب العزيز

أنه عربي أو فارسي أو رومي أو يوناني
وأنه هل يسمى الإسكندر أم لا ؟

## وغلط من قال انه غير عربي ..!

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون اختلافاً كثيراً ، وما هو الا غفلة عن الأدلة التي نسوقها بأنه عربي مسلم صالح من حمير واذواء اليمن ، قديم اقدم من اسكندر الرومي الذي بنى الاسكندرية ونسبت اليه والمسمى بالاسكندر .

ولنقدم بعض كلامهم قبل وصولنا الى ما استنتجناه من الأدلة ، ونستفتح ببعض ما قيل في تفسير قول الله عز وجل في سورة الكهف .

**( ويسالونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا )** الى ان قال تعالى **( ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس ) .**

وبما أنا لسنا بصدد تفسير الآية ، بل بصدد الكلام على هذا الرجل العظيم من الوجهة التاريخية ، فصريح الآية أنه مشى توآ بدون رجوع ، مما يدل على أنه انتقل من المغرب توآ الى المشرق حسب كروية الأرض المقتضية لذلك ، وهو أقرب من الرجوع واجتياز أمريكا ثم البحر الفاصل بينهما وبين أوربا وهو البحر المحيط الأطلانطيكي ، ثم اجتياز أوربا وآسيا والوصول الى مطلع الشمس ، بل انتقل من أمريكا ان لو كانت موجودة وقتئذ الى الصين باجتياز البحر المحيط الكبير بما آتاه الله من الأسباب .

أما سؤالهم عن ذي القرنين فيشبه أن يكون إجماع المفسرين على أن السؤال من اليهود أو من قريش بتلقين اليهود ، ومستند ذلك آثر ذكره ابن كثير في تفسيره عن محمد بن اسحق في سبب نزول سورة الكهف ، وأما تسميته بذي القرنين فذكر الألوسي في تفسيره أحد عشر قولا تبعاً للامام فخر الدين الرازي في تفسيره .

وأما كونه عربياً أو فارسيا أو روميا أو يونانياً ، فقال الخازن : قيل اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح ، وقيل اسمه الاسكندر بن فيلقوس ، كذا صح الرومي وكان ولد عجوز لها ولد غيره . وعن الامام فخر الدين في تفسيره عن أبي الريحان البيروتي المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية: أنه من حمير واسمه ابو كرب سمي بن عمير بن أفريقيس الحميري وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً علا في الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغي ... أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد

في عين ذي خلب اي حمأة ، والثأطة أيضا الحمأة ، والحرمد الطين الأسود اهـ .

ورأيت في ترجمة الامام مالك بن انس لناشر شرح الموطا للامام السيوطي عازياً لكتاب كوثر المعاني ، ان نسب الامام مالك يتصل بذي اصبح الأصبحي الحميري ، وان ذو كذا عند حمير لقب للملك ، ويجمع جمع تكسير فيقال لهم الأذواء ، وجمع سلامة فيقال لهم الذوين . قال الشاعر :

فلا اعني بذلك أرذليكم ولكني اريد به الذوينا اهـ .

اقول : وما اشبه هذا بما اصطلح عليه الافرنسيون الارستقراطيون في اضافتهم ، فيقال دي جوفنيل مثلا ، فدي عندهم اداة اضافة وشرف في البيوتات المشهورة عندهم .

وأما كونه فارسياً فقال الفخر الرازي في تفسيره : في سبب تسميته بذي القرنين وجوها الثاني : أن الفرس قالوا ان دارا الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلقوس ، فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلقوس وكانت قد حملت منه بالاسكندر ، فولدت الاسكندر بعد عودها الى ابيها ، فبقي الاسكندر عند فيلقوس واظهر فيلقوس أنه ابنه وهو في الحقيقة ابن دارا الأكبر ، قالوا : والدليل عليه أن الاسكندر لما ادرك دارا ابن دارا وبه رمق وضع راسه في حجره وقال لدارا : يا أبي أخبرني عمن فعل هذا لأنتقمن لك منه ، فهذا ما قاله الفرس ، قالوا وعلى هذا التقدير فالاسكندر ابوه دارا الأكبر وامه بنت فيلقوس ، فهو انما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم .

وهذا الذي قاله الفرس انما ذكروه لأنهم ارادوا ان يجعلوه من نسل ملوك العجم وهو في الحقيقة كذب . وانما قال الاسكندر لدارا يا ابي على سبيل التواضع ، واكرم دارا بذلك الخطاب .

ثم ان الفخر بعد أن اعتمد أن ذا القرنين هـو الاسكندر بن فيلقوس قال : إلا أن فيه إشكالا قوياً وهو انه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل اليه والله أعلم .

وذكـر ابن كثير في تفسيره قال : وأورد ابن جـرير هنا والأموي في مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف عن عقبة بن عامر : أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا اليه ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً مـن الروم ، وأنه في الاسكندرية ، وأنه عـلا به ملك في السماء وذهب به الى السد ورأى أقواماً وجوههم مثـل وجوه الكلاب .

وفيه طول ونكارة ورفعه لا يصح ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى اسرائيل ، والعجب أن أبا زرعة الرازي مـع جلالة قـدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة وذلك غريب منه . وفيه من النكارة أنه من الروم ، وانما الذي كان من الروم الاسكندر الثاني وهو ابن فيليبس المقدوني الـذي تؤرخ به الروم .

فأما الاول فقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع ابراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام .

وأما الثاني وهو اسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم . وهو الذي تؤرخ من مملكته الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة ، وأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل كما ذكره الأزرقي وغيره وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه ابراهيم عليه السلام وقرب

الى الله قرباناً ، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في اخباره في كتابنا البداية والنهاية بما فيه كفاية ولله الحمد اهـ . ما من ابن كثير .

ولقد وفق طنطاوي جوهري رحمه الله في تفسيره بتلخيصه سيرة ذي القرنين على غير ما اعتاده من اطالة الكلام في كل موضوع فقال : اعلم أن كثيرا من العلماء يقول أنه اسكندر الرومي بن فيليبس وهو تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف ويسمى المعلم الأول وهو الذي انتشرت فلسفته في الأمة الاسلامية ، وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ( ٣٣٠ ) سنة ، وقد تولى الملك بعد أبيه وهو من أهل مقدونية ، وحارب انفرس وتولى على ملك دارا وتزوج ابنته وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه ، وأظهر كرماً وشجاعة ، وألناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين استاذه في السياسة .

ذلك انه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالا ذوي وجاهة وبهجة وجمال وأبهة من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم ، فاستشار أستاذه ، فأرسل اليه أن لا فضل في قتلهم وأن قتل الرؤساء تتأجج ناره في قلوب الأمة ولا تخمد ، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلاً منهم ملك أبيه ، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائماً ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوباً . فمشى على تلك السياسة . ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي اسسها . ثم انه سافر الى الهند وحارب هناك في البنغال وغيرها . ثم انه بنى الاسكندرية لما حكم مصر لأن مصر كانت تحت حكم الفرس ، فلما غلب الفرس حكم مصر وبنى الاسكندرية المسماة باسمه للآن وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة ومات عند رجوعه من الهند قبل ان يصل لبلاده هذا رأي .

وهناك رأي آخر قاله ابو الريحان البيروتي المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية انه من حمير واسمه أبو كرب بن افريقش ،

وافريقش هذا قد رحل بجيوشه الى ساحل البحر الابيض فمنها الى تونس ، فسميت القارة كلها باسمه ( افريقيا الحميري ) ، وهو الذي افتخر به احد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... الى آخر الأبيات .

هذا ملخص ما قاله العلماء مع ذكر الحقائق الاصلية في التاريخ بدون تخليط اهـ .

وقال الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره ما نصه :

التنبيه الثاني في ذي القرنين : اتفق المحققون على أن اسمه الاسكندر ابن فيليبس . وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان في الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الاسكندر المقدوني وهو ابن فيليبس وليس بالاسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن ، بل بينهما قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين ، فذو القرنين كان رجلا صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكان يغزو عباد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج .

وأما هذا المقدوني فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته ، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة ، والنصارى تؤرخ له ، وكان ارسطاطاليس وزيره ، وكان مشركاً يعبد الأصنام انتهى كلامه .

قال الشيخ : وفيه نظر ـ وحاصل نظره : أن المقدوني كان مسلماً مؤمناً بالله تعالى ، وكذلك وزيره أرسطاطاليس ؛ الى أن قال : وهكذا كان الاسكندر وأستاذه والحكماء قبله ، فان الممعن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وايمان بالمعاد .

ثم دفع الشيخ استشكال الفخر الرازي بأن الاسكندر وشيخه ارسطاطاليس ليسا على الحق ، وهو ينافي ثناء الله على ذي القرنين ، ووجه الدفع أنهما كانا مؤمنين ، الى أن قال : وللرازي فرص يفتنم التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم وهذه منها وانه صبغها سامحه الله بهذا الأسلوب عرف ذلك من عرف اه .

ورحم الله الشيخ جمال الدين باعتراضه على الفخر الرازي الذي لايصل علمه الى شعرة من علم الفخر وابن القيم ، وليته اقتصر على متابعته للمحقق الألوسي بأن الاسكندر الرومي وشيخه كانا مؤمنين فقط ، ولكن أورد المحقق الألوسي إشكالا أيضاً ، هو أن ذا القرنين كان بزمن ابراهيم عليه السلام ونمروذ كان بزمن ابراهيم أيضاً . وقد روي خبر أنه ملك الارض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فذو القرنين وسليمان . وأما الكافران فنمروذ وبختنصر . قال : ولا مخلص من ذلك على تقدير صحة الخبر الا بأن يقال : كان زمان ابراهيم عليه السلام ممتداً ووقع ملكهما الدنيا متعاقباً وهو كما ترى . ورأيت في بعض الكتب بأن ذا القرنين مَلَكَ بعد نمروذ وينحل به الاشكال .

وقال بعضهم : الذي تقتضيه كتب التواريخ عدم صحة الخبر أو تأويله ، إذ ليس في شيء منها عموم ملك سليمان عليه السلام أو ملك نمروذ أو بختنصر ، والظاهر عدم الصحة اه . كلام الالوسي .

أقول والذي حررته في كتابي المسمى إغاثة ألبررة في الأحاديث المشتهرة عدم صحة الحديث وانه منقول من قول مجاهد والله أعلم .

أما المدد والأعمار : ففي الخازن : عمر ذي القرنين كان الفاً وثلاثين سنة . وفي الألوسي : كان ملكه على ما قال ابن قتيبة مائة وسبعة وثلاثين

سنة . وعلى ما قاله المسعودي : ثلاثاً وخمسين سنة . وعلى ما قاله غيرهما : سبعاً وثمانين سنة اهـ .

واما الاسكندر الرومي فقيل كان عمره ستاً وثلاثين سنة ، وملكه ثلاث عشرة سنة، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، وبينه وبين ذي القرنين وابراهيم عليه السلام نحو من الف وسبعمائة سنة ، وهذا التباين بالأعمار وجه من وجوه الترجيح بأن ذا القرني غير الاسكندر الرومي كما لا يخفى ، فان الأعمار المتطاولة كانت من زمن ابراهيم وما قبله الا نادراً .

وفي ابن كثير : وقال ابن لهيعة : حدثني سالم بن غيلان عن سعيد بن أبي هلال أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول ان ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال : **( وآتيناه من كل شيء سبباً )** . وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية في ذلك الانكار ، فان معاوية كان يقول عن كعب : انا لنبلو عليه الكذب ، يعني فيما ينقله لا أنه كان يتعمد ما ليس في صحفه ، ولكن الشأن في صحفه أنها من الاسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق . ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى شيء منها بالكلية ، فانه دخل على الناس منها شيء كثير وفساد عريض ، وتأويل كعب قول الله **( وآتيناه من كل شيء سبباً )** ، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه من انه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق ، فانه لا سبيل للبشر الى شيء من ذلك ولا الى الترقي في أسباب السموات . وقد قال الله في حق بلقيس : **( وأوتيت من كل شيء )** أي مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب ، اي الطرق والوسائط الى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والاراضي وكسر الاعداء وكبت ملوك الارض

وإذلال اهل الشرك ، فقد اوتي من كل شيء مما يحتاج اليه مثله والله اعلم .

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي من طريق قتيبة عن ابي عوانة عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد قال : كنت عند علي رضي الله عنه وساله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال : سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد اهـ . ما من ابن كثير .

ثم ذكر الألوسي عن أبي الريحان البيروني المنجم في كتابه المذكور ما نقله غيره : أن ذا القرنين هو ابو كرب سمي بن عمير بن افريقيس ، وهو الذي افتخر به تبع اليماني حيث قال : قد كان ذو القرنين جدي مسلماً الخ ..

قال المنجم : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي رعين وذي يزن وذي جدن ، واختار هذا القول كاتب جلبي ، وذكر أنه كان في عصر ابراهيم عليه السلام ، وانه اجتمع معه في مكة المكرمة وتعانقا ، وأن شهرة بلوغ ملك الاسكندر اليوناني تلميذ أرسطو الغاية القصوى في كتب التواريخ كما ذكر الامام دون هذا ، انما هي لقرب زمان اليوناني بالنسبة اليه ، فان بينهما نحو ألفي سنة ، وتواريخ هاتيك الأعصار قد أصابها اعصار ولم يبق ما يعول عليه ويرجع في حل المشكلات اليه ، وربما يقال عدم شهرة من ذكر تقوي كونه المسؤول عنه ، اذ غرض اليهود من السؤال الامتحان ، وذلك انما يحسن فيما خفي أمره ولم يشهر ، إذ الشهرة اذا كانت تامة مظنة العلم ، والى كون ذي القرنين في زمان ابراهيم عليه السلام وطاف معه بالكعبة وكان ثالثهما اسماعيل عليه السلام .

وروي أنه حج ماشياً فلما سمع ابراهيم عليه السلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ، وقيل اتي بفرس ليركب فقال لا أركب في بلد فيه

الخليل ، فعند ذلك سخر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبشره ابراهيم عليه السلام بذلك ، فكانت السحابة تحمله وعساكره وجميع آلاتهم اذا أرادوا غزو قوم ، وهؤلاء لم يصرحوا بأن ذا القرنين هذا هو الحميري الذي ذكر ، لكن مقتضى كلام كاتب جلبي أنه هو وذكر أنه يمكن أن يكون اسكندر لقباً لمن ذكر معرباً عن الكسندر ، ومعناه في اللغة اليونانية آدمي جيد ، وربما يقال ان من قال اسمه الاسكندر صعب بن عبد الله بن عبيد قينان بن منصور الى آخر النسب السابق المنتهي الى قحطان عن هذا الرجل الحميري لا الرومي ولا اليوناني ، لكن وهم الناقل لأنه لم يقل أحد بأن الروم من أبناء قحطان وكذا اليونان ، الى أن قال : والمذكور في كتب التواريخ أن ملوك اليمن الى أن غلبت الحبشة عليها من أبناء قحطان ، وأنه لما سمي بذي القرنين لذؤابتين كانتا له ، وكان ملكه على ما قال ابن قتيبة مائة وسبعاً وثلاثين سنة ، وعلى ما قال المسعودي ثلاثاً وخمسين سنة ، وعلى ما قال غيرهما سبعاً وثمانين سنة .

وبعد أن استبعد الألوسي سائر أقوال المؤرخين الواردة بهذا الصدد وأورد عليها احتمالات توهنها ، تعرض لحديث **ملك الدنيا مؤمنان وكافران** كما ذكرنا ، ثم قال : وبالجملة لا يكاد يسلم في أمر ذي القرنين شيء من الأقوال عن قيل وقال . وكأني بك بعد الاطلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختار أنه الاسكندر بن فيلقوس غالب دارا ، وتدعي أنه يقال له اليوناني كما يقال له الرومي ، وأنه كان مؤمناً بالله تعالى لم يرتكب مكفراً من عقد أو قول أو فعل ، وتقول أن تلمذته على أرسطو لا تمنع من ذلك ، وأطال بترجيح قوله الى أن قال :

وما عليّ اذا ما قلت معتقدي   دع الجهول يظن الجهل عدوانا

أهـ . ما من الألوسي .

ونحـن لو سلمنا لما قاله شيخنا الجمال من احتمال ايمان المقدوني اليوناني وكونه تلميذاً لأرسطاطاليس وانه لا يمنع منه ، ولكن هذا لا دليل عليه يؤيده ، بل نقل المفسرين والمؤرخين على خلافه ، وقد سبقه الى ذلك الألوسي كما وقفت عليه من كلامه ، ولكن حيث أن هـذه الأخبار والآراء متضاربة والعصور قديمة وليس في الأمر قاطع ، وانما شأن الباحث أن يؤيد ما يترجح عنده من الاقوال .

فالذي أراه أن المذكور في القـرآن هـو الحميري العـربي اليماني ، لا الرومي ولا اليوناني ولا الفارسي وذلك لأمور :

١ ـ ان ذو مـن من خواص أذواء اليمن المشتهرين بـه في كتب التاريخ كذي الكلاع ، وذي أصبح ، وذي فايش ، وذي شناتر ، وذي المنـار ، وذي نواس ، وذي رعين ، وذي يزن ، وذي جدن ، وذي سـعد وغيرهم ، وما وجد لغيرهم من هذه التسمية فعلى سبيل الندرة التي لم تشتهر ، أو من تسمية العرب منهم لسبب من الأسباب كذي الأكتاف الذي سمته به العـرب لتوغله بقتلهم ، ينزع أكتافهم بدون أن يشتهر بهـذا اللقب في ملـكه .

٢ ـ ما ذكره المؤرخون أنه اجتمع بابراهيم عليه السلام وكان ثالثهما اسماعيل ، وطاف بالبيت وقرّب القرابين ودعا له ابراهيم وسخر لـه السحاب ومدّ له في الأسباب ، والرومي والمقدوني والفارسي بعيدون عن ابراهيم والبيت وان كان مجيئهم اليـه محتملاً بطريقهم ، لكـن للعـربي مناسبة وأي مناسبة بذلك .

٣ ـ ما ذكر أن الخضر عليه السلام كان وزيره وابن خالته ، ومن أين للروم واليونان والفرس نسبة مع العرب وبني اسرائيل وان كان الاحتمال جـائزاً ببعد العهـد .

٤ ـ انتصاراته العظيمة التي لا يمكن ان تكون بغير قوة إلهية من دعاء ابراهيم ووزارة الخضر عليهما السلام، كما كانت انتصارات النبي صلى الله عليه وعلى أصحابه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها بمدة قليلة ، فلقد عمّ الصين والهند والمغرب وأفريقيا وأوربا ووجدت آثاره التاريخية بأمريكا ، في حين انا لم نسمع بدين ولا مذهب سياسي ولا حزب انتشر انتشار الاسلام في أول ظهوره الا بعد أحقاب طويلة عليه وبعد تغيير وتبديل يطرأ على أصله ومنبعه .

فلو لم تكن قوة ربانية لما انتشر فتح ذي القرنين ما انتشر ، ولم يصل الى ما وصل ، وكان رضي الله عنه عبداً صالحاً ، وسمي بذي القرنين لأسباب داعية لتسميته مما ذكروه .

وانا إذ نؤيد ذلك نكون تابعين لا مبتدعين ، فقد أيد هذا القول ابن كثير وكاتب جلبي كما نقله عنه الألوسي ، وأيده الأزرقي كما نقله عنه الألوسي أيضا ، وأيده المنجم البيروتي كما نقله عنه أكثر المفسرين ، وأيده ابن قتيبة كما نقله عنه الشيخ جمال الدين القاسمي .

٥ ـ تطاول المدد والأعمار التي ذكرت في ذي القرنين الذي كان بزمن ابراهيم مما لا يتأتى مثلها فيمن كان في زمن المسيح وما قبله بقليل .

٦ ـ انا لا نسلم أن اسمه الاسكندر فانه ذكر تاريخي لا يستند الى دليل وفي اسمه اختلاف كثير . والذي أوقع المؤرخين في الخطأ هو قولهم ان اسمه الاسكندر ، فقالوا انه اليوناني الذي كان قبل المسيح بقليل ، والذي وحّد ممالك الروم وكسر الفرس وتوغل في الفتوحات وبنى الاسكندرية . أما اذا أبعدنا عنه اسم الاسكندر فلا يلتبس بالرومي أصلا . فقد ذكر أبو الفداء ملك حماه في تاريخه الشهير في ذكر الطبقة الثانية من

الفرس : أن الاسكندر بن فيليبس اليوناني باني الاسكندرية وتلميذ ارسطو الذي وحد ممالك الروم واليونان ثم غزا الفرس واستولى عليها وقتل دارا ملكها وفرق ممالكه وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وملك ثلاثة عشرة سنة قيل انه بنى السد على يأجوج ومأجوج . والصحيح ان الاسكندر المذكور لم يكن ذلك بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن ، وهو ملك قديم كان على زمن الخليل ابراهيم عليه السلام ، قيل انه افريذون ، وقيل غيره . وقد استفاض على ألسنة الناس أن لقب الاسكندر المذكور ذو القرنين ، وهو أيضا غلط ، فان نفظة ذو عربية محضة ، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن ، وكان منهم ذو جدن وذو كلاع وذو شناتر وذو القرنين الصعب بن الرائش ، واسم الرائش الحارث بن ذي سدد بن عاد الماطاط بن سبأ ، وقد قيل أن ذو القرنين الصعب المذكور هو الذي مكّن الله له في الارض وعظم ملكه وبنى السد على يأجوج ومأجوج ، ومما نقله ابن سعيد المغربي أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله في كتابه فقال : هو من حمير . وهذا مما يقوي أنه الصعب المذكور أهـ .

وذكر الفخر في تفسيره القول الثاني فمن هو .. قال : قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية :

قيل ان ذا القرنين هو أبو كرب شمس بن عبير بن أفريقش الحميري ، فانه بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

| | |
|---|---|
| قد كان ذو القرنين جدي مسلماً | ملكاً علا في الأرض غير مفند |
| بلغ المشارق والمغارب يبتغي | أسباب ملك من كريم سيد |

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هـذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهـم الذين لا تخلو أساميهم من ذي كذا كذي المنار وذي نواس وذي النون وغير ذلك اه . كلام الفخر .

وقد رأيت في مجلة الاخاء التي تصدر في طهران في عدد ٣٢ من السنة الثالثة في ١ جمادى الثانية سنة١٣٨٢ و ١ تشرين أول سنة ١٩٦٢ مقـالا للاستاذ محمد جميل بيهم على مقال المرحوم أبي الكلام أزاد في مجلة الاخاء أيضا أول آب سنة ١٩٦٢ .. قال صاحب المقال :

كنت كتبت مقالا نشرته مجلة العرفان في أيار سنة ١٩٥٥ برهنت فيه على أن السور الصيني الكبير إنما هو سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في القـرآن الكـريم وحاك حـوله القصاصون مـن المفسرين الخرافات والخزعبلات ، ولما أتيح لي الوصول الى الصين وزرت هذا السور ازددت وثوقـاً بما ذهبت اليه في ذلك المقـال ، خصوصاً وأني رأيت بأم عيني الصدفين أي رأسي الجبل المتقابلين الذي ساوى بينهما ذو القرنين حسبما ورد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن سد يأجوج ومأجوج ، ورأيت أيضا زبر الحديد في الأنقاض حيث يقوم عمال الحكومة بالترميم الى آخر ما ذكـره والله أعـلم .

* * *

# في الكلام على الزّبا، وحقيقة أمرها

بعد تعليقنا على بعض الأغلاط التاريخية أحببت أن أبيّن ما افترى به الغربيون على تاريخ الزباء ملكة تدمر مبيناً في ذلك افترائهم المقصود بأوضح الأدلة فأقول :

ذكر الشريشي في شرح المقامة الرابعة والعشرين النحوية في ترجمة جذيمة الأبرش ننقلها مع اختصار شيء منها ثم نتبعها بما يؤيدها قال : قال ابن الكلبي : جذيمة أول من ملك قضاعة بالحيرة من أفضل ملوك العرب رأياً وأظهرهم حزماً ، وهو أول من استجمع الملك له بأرض العراق وغزا بالجيوش ، وكان به برص فكنت العرب عن البرص إعظاماً فقالت له جذيمة الوضاح وجذيمة الأبرش ، واتخذ نديماً غلاماً من لخم يسمى عدي بن نصر له ظرف وأدب ، فعشقته رقاش أخت جذيمة فطلبها من أخيها وهو مغرق بالسكر فأعطاه اياها فدخل بها ، ولما علم جذيمة أنكر ذلك ففر عدي واختفى ، فحملت رقاش من عدي ، ولما ترعرع الولد أرسلته لخاله

فأعجب به وضمه اليه واسمه عمرو ، وحلّ من خاله بأعلى مكان ، ثم فقِد زماناً ولم يعثر له على خبر حتى أتى به رجلان صادفاه في الصحراء وأهدياه لخاله رجاء بره ، فخيرهما ما يتمنيان عليه فتمنيا منادمته ، فاصطفاهما جذيمة لمنادمته ولبثا عنده أربعين سنة ما أعادا عليه حديثاً ذكراه له ، فضرب بهما المثل في تأكيد الألفة حتى قال مالك بن نويرة في رثاء أخيه :

وكنا كندماني جذيمة حقبة — من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً — لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

وتمثلت بهما عائشة رضي الله عنها عند قبر أخيها عبد الرحمن .

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العمليقي من العماليق وكان ملك الجزيرة وملك الحضر وهي مدينة قديمة بين دجلة والفرات ، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفرق جموعه فملكت بعده الزبّاء ابنته واسمها نائلة .

قال ابن الكلبي ولم يكن في عصر الزبّاء أجمل منها جمالا وأكمل منها كمالاً ، وكان لها شعر اذا مشت تدلى ورائها واذا نشرته جللها ، فسميت الزبّاء لكثرة شعرها ، فجمعت خيل أبيها وغزت بالجيوش من حولها من الملوك فذللتهم ، فضرب بها المثل فقيل : **أعز من الزبّاء .**

ولما أرادت أن تغزو جذيمة لتدرك ثأر أبيها نهتها أختها زبيبة عن ذلك وقالت : لا طاقة لك به ، ولكن ابني أمرك فيه على المكر والحيل . فبعثت اليه تخطبه على نفسها ليتصل ملكه بملكها فيصير بذلك أعزّ الملوك ، وكان بلغه عن جمالها ما أطمعه في الظفر بها ، فأخبر أرباب دولته فكلهم أشار عليه أن يتزوجها الا قصير بن سعد بن عمرو ، وكان لبيباً عاقلا له عزم وحزم ، وكان خازنه وعميد دولته، وحذره أشد الحذر ، فخالفه وسار

اليها واستخلف عمراً على ملكه ، وقال له قصير أثناء المسير : **من لم ينظر في العواقب لم يأمن من المصائب** . ولما وصل احس قصير بالمكر ، وكان تحته فرس تسمى العصا وكانت لا تسبق ، ارخى لها عنانها وهوى عليها هوى الريح ، ثم وقفت بعد ثلاثين ميلا وبالت ، فبنى على الموضع برج سمي برج العصا . ولما خلت الزبّاء بجذيمة كشفت له عن شعرتها ، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها ، فقالت له : يا جذيمة **أشوار ذات عروس** . قال : **بل شوار بظراء تفلة وأمر غدر قد بلغ المدى** . فقالت : والله **ما ذاك من عدم المواس ولكنها شيمة أناس** . ولما قتلته قالت لهم : لا تضيعوا دم الملوك . قال لها : **لا يحزنك دم ضيعه أهله** . فذهبت مثلا . فاحتال قصير بن سعد بأن جدع أنفه واذنه وادمى ظهره ولحق بالزباء كالمستجير بها من عمرو ابن أخت جذيمة الذي ملك بعده ، فقالت العرب : **لأمر ما جدع قصير أنفه** . ولا زال بها حتى أخلصت اليه واعتمدت عليه ، وأشار عليها باتخاذ سرداب يكون ملجأ لها ، فأطلعته على سرداب اتخذته تحت سريرها يطلع من تحت سرير أختها ، وكان الفرات يشق بين قصريهما ، وصارت ترسله بالتجارات الى أن توصل الى عمرو وقال له : أصبت الفرصة فأعطني الرجال والمال . قال له عمرو : حكمك مسلط فيما عندي . فعمد الى الفي رجل من أهل القتال ، وجعلهم في غرائر سود ، وجعل سلاحهم السيوف والحجف ، وساق العبيد والخيل ، وأرسل البشير للزباء ثم سبق قصير القافلة وبشرها ، فنظرت من سطح لها عال فرأت قوائم الابل تسوخ في الأرض لما عليها من الأثقال فقالت :

ما للجمال مشيها وئيدا ... اجندلا يحملن او حديدا

ام صرفانا باردا شديدا ... ام الرجالَ جثما قعودا

وفي رواية : ... ام الرجال درعا قعودا

وقالت لجواريها : **اني أرى الموت الأحمر في الغرائر السود** . فذهبت مثلا ، ولما وصلوا خرجوا وصاحوا : يا لثأر الملك . فهربت الزباء تطلب النفق الى تحت الفرات فسبقها عمرو الى بابه مع قصير ، وكانت صورته مصورة في جانبها ، فعندما رأته عرفته ، وكانت جعلت تحت فص خاتمها سم ساعة فمصت السم وقالت : **بيدي لا بيد عمرو** . فسقطت وعمرو وقصير يضربانها بالسيف ، فماتت بين السم والسيف ، واستباحوا بلدها واستولوا على ملكها ، واتخذ عمرو الحيرة من ذاك دار ملكه وتوارثوها الى النعمان بن المنذر ، وهو الذي أدرك زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتله كسرى وهو آخرهم ، وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام أهـ .

وذكر أبو حفص النسفي نجم الدين المفسر شيخ صاحب الهداية المولود سنة ٤٦١ والمتوفى سنة ٥٣٧ في كتابه طلبة الطلبة في شرح المثل الذي تمثل به عمر رضي الله عنه لما أتى بلقيط منبوذ فقال : **عسى الغوير أبؤسا** ، وهو تصغير غار يتضمن أبؤسا ونصبه بإضمار هذا الفعل أو نحوه وايقاعه عليه ، وهو مثل تتمثل به العرب عند سماع ما يكرهونه وتوهم ظهور ما يخافونه ، واختلفوا في أصل المثل وفي المراد بهذا الغوير ، قيل : ان قوماً نزلوا غاراً فانهار عليهم فهلكوا ، وقيل : نهشتهم حية فماتوا ، وقيل : هجم عليهم عدو فيه فأسروا . والصحيح فيه أن الغوير اسم ماء كان لبني كلب والمثل للزباء ملكة العرب ، وكان نصر اللخمي وزير جذيمة الأبرش الملك بعد قتل الزباء جذيمة يطلب الثأر من الزباء بقتلها ، وكان لا يصل الى ذلك ، فاحتال ودخل في خدمتها ، وكانت تبعث به الى العراق فيحمل اليها الطرائف، فعل ذلك مراراً ، وفي المرة الاخيرة اشترى صناديق وجعل في كل صندوق رجلا تام السلاح ، وعدل عن الجادة أي طريق العامة وأخذ في طريق فيه هذا الماء المسمى بالغوير ، فأخبرت بذلك فقالت :

عسى الغوير أبؤسا أي عسى أن يلحقنا من هذا ما نكره ثم صعدت المنظر تنظر الى الأحمال وهي على الجمال وهم في ذلك الطريق فقالت :

ما للجمال مشيها وئيدا ... الأبيات

قولها مشيها بخفض الياء وهو بدل من الجمال أي ما لمشي الجمال وئيدا أي في تؤدة أي ما لها تمشي في تؤدة أي إبطاء ، أيحملن جندلا اي حجارة أم يحملن حديدا أم صرفانا أي رصاصا وهو أيضا أجود التمر وأوزنه أم يحملن الرجال دارعين والدارع الذي عليه الدرع والدرع جمع الدارع والقعود جمع القاعد .

وكان كما تفرست ، فانهم قدموا ونزلوا وجعلوا الصناديق في الدار فخرجوا من الليل وقتلوها أهـ .

وذكر خبرها في الأغاني آخر ذكر أخبار متمم أخي مالك بن نويرة الذي قتله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه باليمامة بمناسبة رثاء متمم أخاه مالك بقوله :

كنا كندماني جذيمة حقبة ... الأبيات

وأنه لما أنشده لعمر رضي الله عنه قال عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك . فقال متمم : لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته . وكان قتل باليمامة شهيداً وأمير الجيش خالد بن الوليد . فقال عمر : ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم . وقد رثت عائشة لما وقفت على قبر أخيها عبد الرحمن بهذين البيتين . وبمناسبتهما ذكر قصة جذيمة الأبرش ونديميه واهدائهما ابن أخته عمرو اليه حتى كافأهما بمنادمته ، ولم يختلف ما ذكره في الأغاني عما قاله الشريشي الا بذكر بعض أشعار العرب

في هذه القصة ، وأن قصيراً ذهب الى عمرو بن عبد الحر التنوخي يطلب منه الثأر لابن عمه جذيمة فلم يحفل به ، فذهب الى عمرو بن عدي ابن اخت جذيمة وأسر له تدبير الحيلة والمكر حتى تمت ، كما ذكر مع أشعار منها ما للمتلمس يذكر جدع قصير انفه .

ومن حـذر الأيام ما جز انفـه      قصير وخاض الموت بالسيف بيهق

قال صاحب الأغاني : وفي هذا المعنى أشعار كثيرة يطول ذكرها .

فهذا ما أجمع عليه مؤرخو العرب ، وصاحب الدار أدرى بما فيها مع ما توارثناه من الأمثال في هذه القصة ، فمن أين أتى الغربيون بفرية أسرها لبلادهم وأنهم زوجوها لملوكهم وأتت لهم بالأولاد ؟ وغير ذلك من أكاذيبهم الملفقة التي كادت تقضي على الحقيقة المتوارثة، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وذكر قصتها أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني المتوفي سنة ٥١٨ في كتابه مجمع الأمثال بأبسط مما ذكره غيره ، وذكر ما اشتملت عليه قصتها من الأمثال فمنها :

١ ـ **خطب يسير في خطب كبير** : وتحت هذا المثل ذكر الميداني القصة ، وأن هذا المثل قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة بن مالك بن نصر الـذي يقال له جذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح ، وكان جذيمة ملك ما على شاطىء الفرات ، وكانت الزباء ملكة الجزيرة وكانت من أهل باجرمي وتتكلم بالعربية وغيرها من اللغات ، وأن هذا المثل قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة بن مالك بن نصر المذكورين حينما استقبلته الزباء باللطائف والهدايا ، فقال جذيمة : كيف ترى ؟ فقال له قصير : خطب يسير في خطب كبير . فذهبت مثلا .

٢ ـ **أعـز من الزباء** : لرفعتها ونبوغها وظفرها في جميع حروبها .

٣ ـ **من لم ينظر في العواقب لم يامن من المصائب** : سببه تحذير عمرو لجذيمة فلم يصغ اليه .

٤ ـ **أشوارُ ذاتِ عروس** : قالته لما اخذت جذيمة وكشفت عن فرجها وكان شعره موفوراً عقدته من خلف ظهرها ـ الشوار : الفرج . . فقال لها :

٥ ـ **أرى دأب فاجرةٍ غدورٍ بظراء تفلـة** : . . فاجابته :

٦ ـ **لا من عـدم مواس ولا من قلة أواس ولكن شيمة أناس** : اي لا من عـدم الآلة وهي الموسى ، ولا من عدم النظافة وهي المواساة ، ولكن هذا عادة بعض الناس . . . . وقيل قالت له :

٧ ـ **أدأب عروس ترى** : فذهبت مثلا . . . . فقال لهـا :

٨ ـ **بلغ المُدى وجف الثري وأمر غـدر أرى** : فذهبت مثلا .

٩ ـ **رأي فاتر وغدر حاضر** : قاله قصير لما أشار عليهم بعدم الذهاب وخالفـوه .

١٠ ـ **رأيك في الكِن لا في الضِح** : قاله جذيمة لقصير حين أشار عليه بعدم الذهاب . بكسر الضاد : الشمس . يعني أن رأي قصير بالاستكانة لا في الظهـور .

١١ ـ **لا يطاع لقصير أمـر** : . . . قاله قصير حين طرحوا رأيه وقوله .

١٢ ـ **ببقة خلفت الرأي** : . . . وبقة اسـم موضع كانوا يتشاورون فيـه . فقاله قصير لجذيمة حين نزلوا على شاطىء الفرات مـن الجانب الغربي ، وسأله ما الرأي فقاله له . فذهبت مثلا .

١٣ ـ **القول رداف والحزم عثراته تخاف** : من قول قصير لمـا سأله عمرو : ما قولك بالزباء ؟ فقاله له فذهبت مثلا .

١٤ ـ **اركب العصا فانه لا يشق غباره** : وكانت العصا فرساً لجذيمة ركبها قصير وساير جذيمة وقال له ذلك ، فلما اشتد الأمر حيل بينه وبين

جذيمة فطار عليها قصير ، فرآه جذيمة فقاله . فذهبت مثلا . ...
ولما رآه جذيمة مولياً قال :

١٥ ـ **ويل أمه حزماً على متن العصا** : فذهبت مثلا ... فجرت به الى غروب الشمس وقد قطعت شوطاً كبيرا ، ثم وقفت وبالت ، فبنى موضعه برجاً ضخماً يقال له برج العصا . ... وقالت فيه العرب :

١٦ ـ **خير" ما جاءت به العصا** :

١٧ ـ **دعوا دماً ضيعه أهله** : ... قاله جذيمة لما دعت بالسيف والنطع لتقتله فأوصتهم أن لا يضيعوا دمه ، وقالت : إن دماء الملوك تشفي من الكلب .. فذهبت مثلا .

١٨ ـ **أمنع من عقاب الجو** : ... قاله عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة لما حرضه قصير على الأخذ بثأر خاله .

١٩ ـ **خل عني وخلاك ذم** : ... قاله قصير لعمرو بن عدي لما قال : إجدع أنفي واضرب ظهري . فامتنع وقال له : لستَ بأهل لهذا . فذهبت مثلا . وجدع أنف نفسه وأدمى ظهر نفسه . ... فقالت العرب :

٢٠ ـ **لمكر ما جدع قصير أنفه** : ... فذهبت مثلا .

٢١ ـ **آخر البز على القلوص** : ... قاله قصير لما جاء بالرجال على القلائص وأوهمها بمجيء التجارة التي وعدها اياها ، ودعاها أن تخرج لتنظر اليها فقالها لها ... فذهبت مثلا .

٢٢ ـ **بمال صامت** : قاله لها لما نظرت الى التجارة الخاسرة ... فذهبت مثلا .

هذا ما ذكره الميداني من الأمثال في سياق قصتها ، ذكرتها ليعلم إجماع مؤرخي العرب والأدباء بما يدفع فرية الغربيين الذين يعرفون أصول

دس فرياتهم بواسطة اذنابهم المأجورين او الفر الجاهلين ، فلا نرى إلا شيوع دعاياتهم من حيث لا ندري ثم تلبس النحلة حلة الحقيقة وتجلس جلسة زور وبهتان في أي مكان كان .

وذكر ابن خلدون في الجزء الاول من تاريخه في الخبر عن ملوك الحيرة من آل المنذر تفصيلا مسهباً الى ان قال :

قال الطبري : وكان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام عمرو ابن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العملاقي ؛ فكانت بينه وبين جذيمة حرب قتل فيها عمرو بن الظرب وفضت جموعه ، وملكت بعده بنته الزباء واسمها نائلة ، وجنودها بقية العمالقة من عاد الاولى ومن نهد وسليح ابني حلوان ومن كان معهم من قبائل قضاعة ، وكانت تشتو على شاطىء الفرات وقد بنت هناك قصراً ، وتربع عند بطن المجاز ، وتصيف بتدمر .

ولما استحكم لها الملك اجمعت أخذ الثأر من جذيمة بأبيها توهمه الخطبة ، الى آخر القصة التي ذكرها غيره من المؤرخين واتفقوا عليها من قتل عمرو بن عدي لها عند النفق .

وقد اعتمدها ابن خلدون في أخباره ، ونقلها عن السهيلي والكلبي والطبري والمسعودي ، وامتلأت كتب تواريخ العرب في القصة وكيف كان هلاك الزباء . فمن أين أتى مؤرخوا الغرب بقصتهم الملفقة يفسدون علينا تاريخ قومنا وبلادنا ؟ ونتخذه عقيدة شائعة تكتبها الجرائد والمجلات عن أناس درسوا التاريخ عن أساتذتهم المستعمرين وهم جهلوا تاريخ قوميتهم ، حتى رأيت جريدة الأخبار القاهرية في عدديها ٥٤٣٣ و ٥٤٣٩ تذكر القصة بامضاء الياس بولس الخوري على ما رواه الغربيون ، وأنا أذكر ملخصها

على ما ذكرته حاشية تاريخ ابن خلدون في طبعتها المؤرخة في ١٩٣٦ بالمكتبة التجارية الكبرى بفاس ومصححها علال الفاسي وعبد العزيز بن الدبس بالمغرب قال المحشي :

تختلف المصادر العربية بتسمية الزباء هل هي نائلة أو بارعة او ميسون، ويختلفون كذلك في اسم والدها فيقول في ت انه عمرو بن الظرب، وينقل صاحب أقرب الموارد أنها هند بنت الريان الغساني ملك الجزيرة ، وتلتبس الزباء على جمهور الباحثين في أوربا بسبأ أو بلقيس المذكورة في القرآن الكريم وذلك لتشابه اللفظين عند الافرنج .

والحقيقة انهما شخصيتان متغايرتان ، فبلقيس من تبابعة اليمن ، والزباء من نسل العمالقة بالشام ، والزباء هذه هي زنوبيا Zenobya ملكة بلمير أو تدمر ، ورثت الملك عن أبيها الذي كان على مشارف الشأم والجزيرة وقتله جذيمة الأبرش وأخذت الثأر له ( كما تجده مفصلا في المصادر العربية ) وتستكمل المجد بوراثتها لأذينة ملك تدمر ورئيس المشرق : Duxorientis فتسلم مقاليد الحكم بنفسها وتطمح الى بسط نفوذها على الدولة الرومانية الشرقية ، فتستقل عن الرومان وتحاربهم ببسالة عظيمة ويمتد ملكها من الفرات الى بحر الروم ومن صحراء العرب الى آسيا الصغرى وتفتح مصر بقيادة زبدة Zobda بدعوى إعادتها للامبراطورية ، وهكذا تظل تعمل في ظل الخفاء تارة والجلاء أخرى لإتمام غايتها التي ترمي الى اكتساح تلك الامبراطورية الكبرى ، الى أن يدرك الذي ولي الامبراطورية في سنة ٢٧٠م ما في سياسة الزباء من الخطر على وحدة المملكة فيعلن محاربتها ، وبعد مقاومة عنيفة تسقط ملكة تدمر في يد عدوها وهي في طريق الالتجاء الى ملك الفرس فيبقي عليها ، وبعد أن يقتل قوادها وعظماء رهطها يبعثها الى روما حيث تدخلها في موكب الظافر

المنتصر ، ثم يعين لها نيفولى تيبور Tibour مسكناً تعيش فيه هي وابنها هبة الله الى أن تموت ، أما بناتها فيصبحن عرائس لنبلاء الرومان .
وتذكر الرواية العربية أن الذي قتلها هو قصير الأجدع في قصة طريفة اثبتها المؤلف هنا .

كانت الزباء بديعة في الحسن مفرطة في الذكاء غزيرة المعرفة تتكلم اليونانية والسريانية والقبطيه واللاتينية ولها مناقشات كبيرة مع رئيس الأساقفة Paul of Sons في القضايا الدينية ، وكتبت تاريخاً للشرق ، ولا تزال في لبنان آثار عديدة تنسب اليها ، ويشير التلمود الى انها كانت تحسن معاملة اليهود في تدمر .

هذا ما رأيته في حاشية تلك الطبعة معزواً لأمير البيان شكيب أرسلان قد لخص بها ما قاله الغربيون عن مهلكها .

والذي يدل على كذبهم في ذلك ما ذكره الأمير نفسه في هذه الحاشية أنها التبست عليهم بسبأ وبلقيس مع بعد العهد بينهما ، فأين بلقيس التي كانت قبل المسيح بأجيال ؟ وأين زنوبيا التي كانت بعده بمائتين ونيف ؟

أما حروبها مع الرومان فلا تستنكر خوفاً من امتداد سلطانها .
ومقتضى ما ذكره الأمير شكيب أرسلان من سعة ملكها فانه حسب حالتنا الحاضرة يتناول الجمهورية السورية وفلسطين وشرقي الاردن وجمهورية مصر والعراق ولبنان وقسماً من بلاد الحجاز وقسماً من بلاد الأتراك ، وهذه مملكة لا يستهان بها ، لذا كانت مدعاة لتخوف الرومان من بسط نفوذها ، ولكن تكذيب جميع تواريخ العرب وأمثالهم من كلامها وكلام ملوكهم ورؤسائهم ثم الاعتماد على روايات أجنبية ليس لها سند وآثار

تخبطهم بها ظاهر حيث اشتبه عليهم اسمها بغيرها أمر عظيم وخطأ فاحش جسيم .

زد ما كان عليه عمرا نالبلاد في أيامها من تقدم مزدهر ، وآثارها حتى في لبنان كما ذكر ، والرقة التي كانت مصيف هارون الرشيد وتدمر التي كانت مصيف زنوبيا ودار ملكها لا يعقل أن تكون تلك البلاد على ما نعرفها الآن من الخراب والبداوة ولا ندري ماذا يحدث بعدنا بل في أيامنا من تطور سريع الى عمران أو خراب والله هو العليم ومسبب الأسباب لا إله الا هو وهو سريع الحساب .

واني أنصح شبيبتنا وكتابنا أن لا يعتمدوا على نقل أخبار الغربيين عن الشرق قبل أن يمحصوا الخبر تمحيصاً يعلم به الصحة من الفساد ، فان للغرب أغراضاً وأطماعاً وتضليلا ، كما وقع أيضا لصاحب كتاب حاضر العالم الاسلامي للأمير شكيب أرسلان في ذكر تاريخ جزائر القمر ومداغسكر حيث قال : نحن عندما نقلنا ما نقلناه عن مداغشقر وجزائر القمر انما اعتمدنا على كتب الأوربيين ، وهؤلاء كما لا يخفى يخبطون كثيراً عندما يخوضون في المباحث المتعلقة بالشرقيين ولا يأمن الانسان العثار في النقل عنهم . الى آخر ما قال ثم صحح ما نقله وأضرب عن نقلهم .

وليكن هذا ختام ما حررناه من بعض ما قصدناه متمثلاً بقول من قال :

أفنيت وصف تغزلي — في ذكر خصر كالخيال

وسكت عما تحته — ما كل ما يعلم يقال

وفي معناه قول من قال :

اذا قلت المحال رفعت صوتي — وان قلت الصحيح أطلت همسي

وسنتبعه بما وعدنا به في صدر الكتاب من تراجم بعض المعاصرين ان شاء الله تعالى .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

# الفهرس

# جـدول الخطـأ والصواب

| ص | س | الخطـأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ١٨ | ٣ | بالخبرية | بالخيرية |
| ٣٠ | ٥ | بشير | بشر |
| ٧٤ | ٢١ | وسل | وهل |
| ١٠٠ | ١٢ | حسسنما | حسبما |
| ١١٠ | ١٤ | ننت | بنت |
| ١٢٥ | ١٣ | وتوانر | وتواتر |
| ١٥٠ | ٧ | ما وراه | ما رواه |
| ١٥٨ | ١٠ | لا تسسكثر | لا تستكثر |
| ١٩٦ | الاخير | أجبار | أخبار |
| ٢٠٥ | الاخير | الالعهد | العهـد |
| ٢٣٨ | ٣ | الخطات | الخطاب |
| ٢٨٠ | ١٢ | بالمفـب | بالمغرب |
| ٢٨٨ | ١٤ | ومد | ومذ |
| ٢٩٥ | ١١ | حفيقي | حقيقي |
| ٢٩٦ | ١ | الندقداري | البندقداري |
| ٣١٥ | ٥ | وهـد | وهـو |
| ٣٣٢ | ١٠ | سسحانك | سبحانك |

**تنويهات :**

– لم يرد في بعض الأحيان اشارة الى جانب التاريخ كونه ميلادياً أو هجرياً ويعرف من السياق بسهولة .

– لم تذكر المصادر كملحق مستقل للكتاب لاشتماله ضمن أبحاثه في الاشارة اليها .